الهند القديمة

حضاراتها ودياناتها

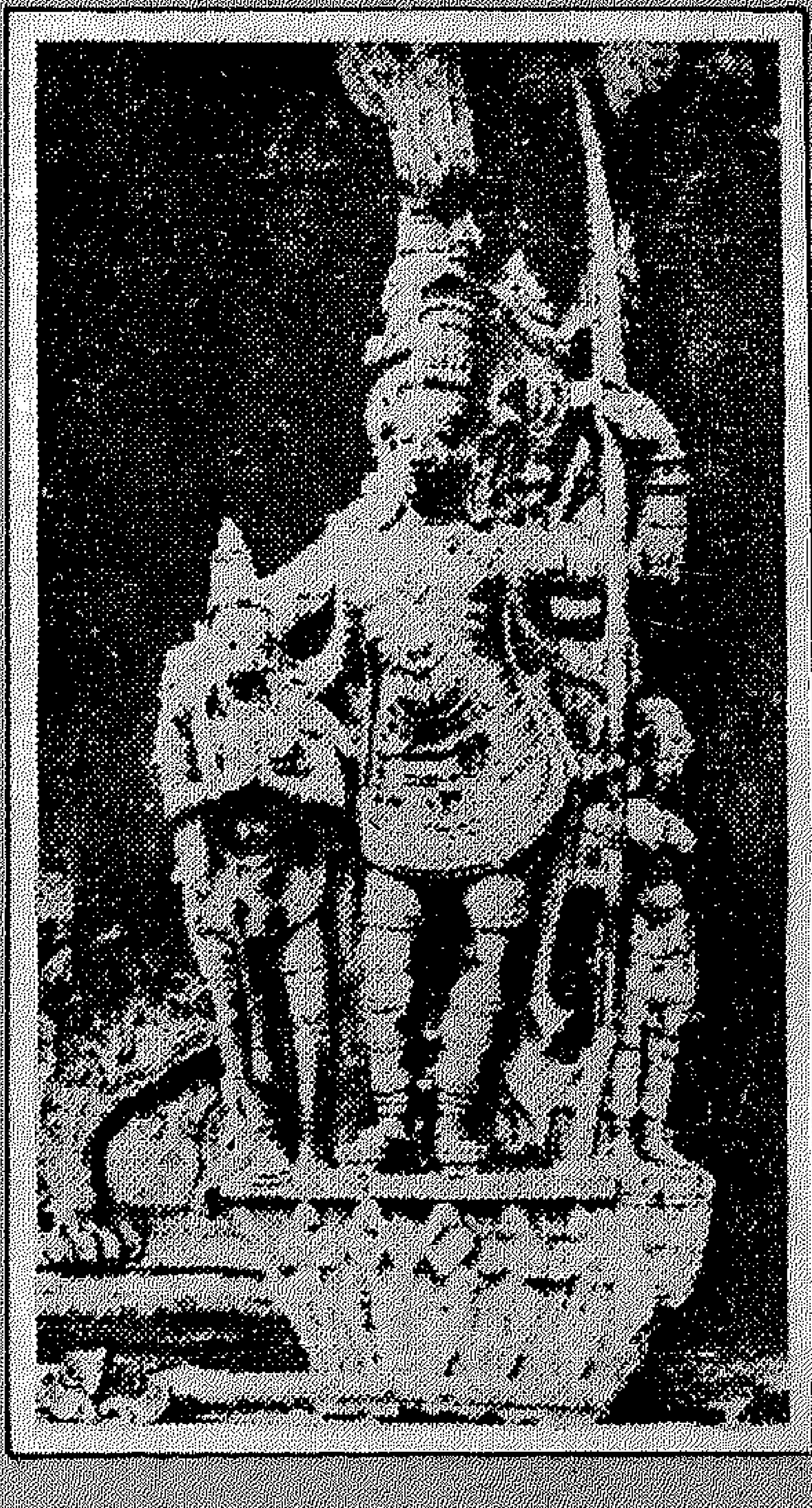

الدكتور محمد إسماعيل الندوي

الهند القديمة

حضاراتها ودياناتها

الدكتور محمد اسماعيل الندوي
ماجستير في العلوم الإسلامية من جامعة القاهرة
دكتوراه في الآداب من جامعة عين شمس

دار الشعب

رقم الايداع ٢٧٠٢ / ١٩٧٠

الهند والعراق خلال الألف الثالث قبل الميلاد

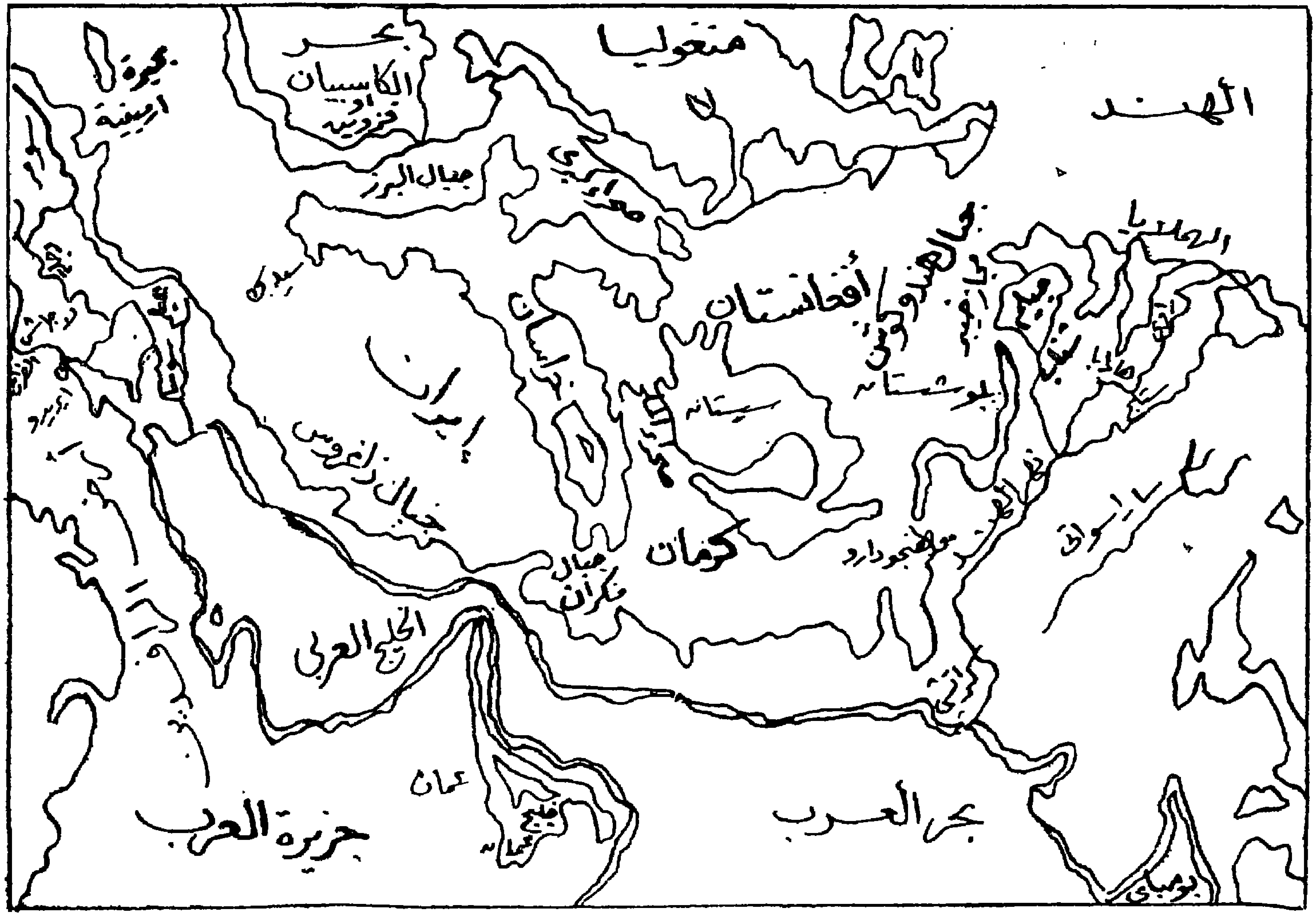

الهند

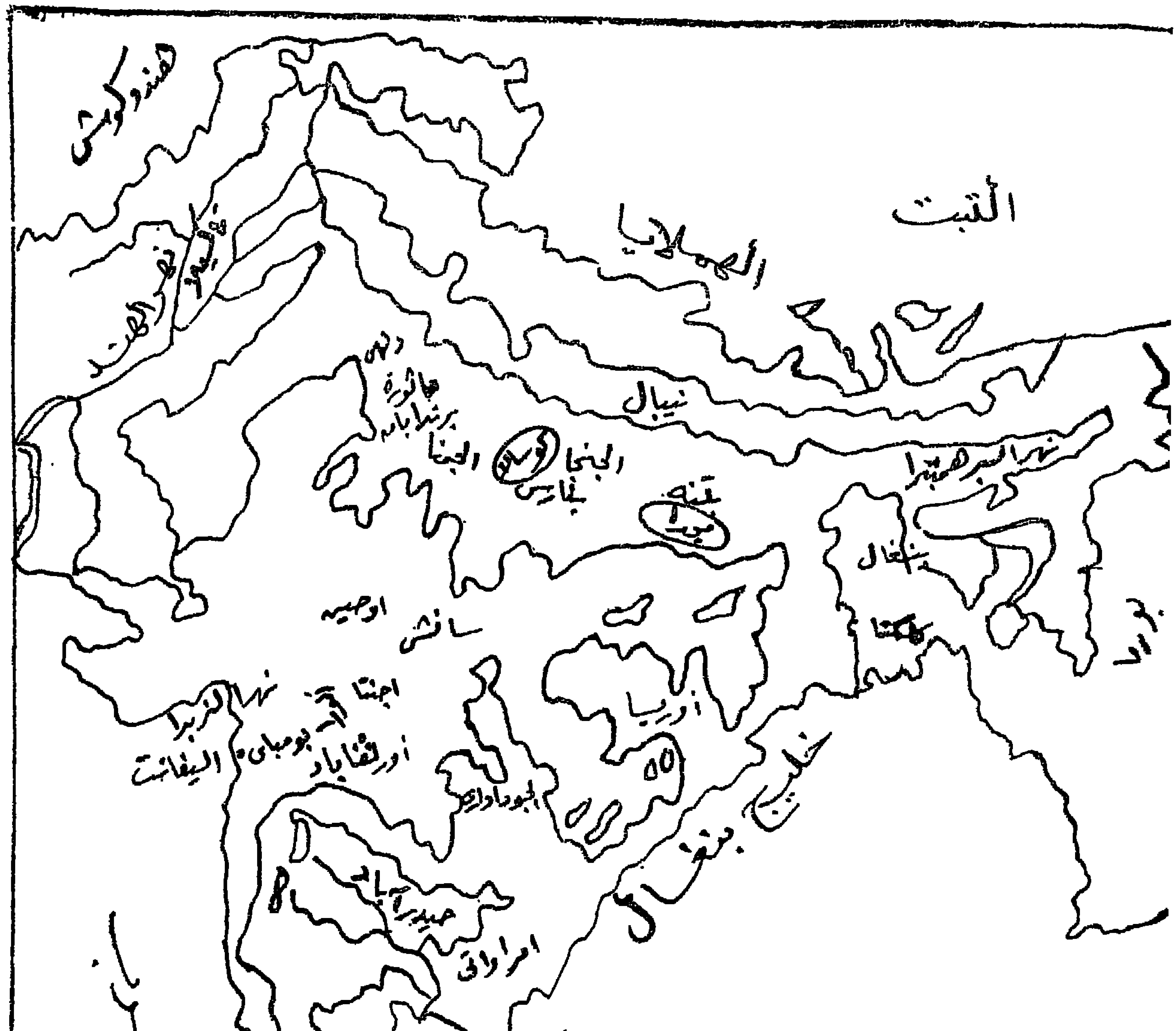

هندوكوش
التبت
الهملايا
نيبال
الجمنا
الجنجا
بنارس
أوريسا
كلكتا
سانشي
اجنتا
بومباي
حيدرآباد
مدراس
ماهابالي بورام
خليج البنغال

الهند والإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا أول كتاب عن « الهند القديمة : حضاراتها ودياناتها وثقافاتها وتقاليدها ولغاتها وشعوبها » يؤلفه مسلم بعد أبي الريحان البيروني (٣٦٢/٤٤٠هـ ٩٧٣/١٠٤٨م) – العالم العربي الفذ – بهذه الروح السمحة والعقل المتفتح والصدر الرحيب وبعد دراسات واسعة شاملة استغرقت عشر سنوات .

والفرق بين البيروني وهذا المؤلف ، إن البيروني كان خوارزميا ، رغب في العلوم الهندية من الفلك والرياضيات والهندسة ، فسافر إلى الهند ، وأقام فيها عشر سنوات تعلم خلالها اللغة السنسكريتية ، واتقنها وأجادها ودرس علومها ، ثم سجل انطباعاته ونتائجه كلها في كتابه الشهير « تحقيق ما للهند » .

ولكن هذا المؤلف المتواضع هندي مولدا وثقافة . وقد شاهد الديانات الهندية وتقاليدها منذ تفتحت عيناه على الدنيا ، فدرسها وعاشر أهلها ، ولم يزل له منهم الكثير من أصحابه وأصدقائه وزملائه . ولذلك لم يعسر عليه فهم طبيعة الهندوس ومزايا دياناتهم وألوان تقاليدهم والغاز فلسفتهم ، واختلاف أمزجتهم وأجناسهم وميولهم واتجاهاتهم ولغاتهم ، على الرغم من كل الصعوبات والتعقيدات والخلط والمزج التي وجدها خلال دراسته هذه الجوانب كلها .

وبهذا يقدم الكتاب الهند على طبيعتها منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي لها للقراء العرب في عرض أدبي ، دون التوغل في أعماق الفلسفة ، أو اللجوء إلى المنهج الأكاديمي . لأن المؤلف قد أصدر بحوثا عديدة عن الجيتا وشكنتلا والرامايانا والمهابهاراتا والأساطير الهندية في مجلة « تراث الإنسانية » الصادرة في القاهرة ، وكل ذلك بالأسلوب العلمي والعرض الأكاديمي . وهذه

البحوث – بالإضافة إلى بحوث عديدة عن الڤيدا واليوبانيشاد – قد جمعت فى كتاب سيصدر قريباً بعنوان « الديانة الهندوكية وتراثها الفكرى والأدبى » من المكتبة العصرية ببيروت إن شاء الله . وذلك لسد الفجوات الموجودة باللغة العربية فى المجال الأكاديمى عن الهند القديمة ودياناتها وثقافاتها .

وأما هذا الكتاب فسوف يحقق رغبة القراء العرب الذين يتشوقون إلى معرفة الهند – بلد العجائب والغرائب عندهم – ويشفى غلتهم فى هذا الصدد إن شاء الله . وكذلك سيكون مرتعا خصبا لمن يرغب فى الدراسة المقارنة فى الآداب والأديان والتاريخ والفلسفة ، وهادياً ومرشداً له ، ويدله على الهند وحضاراتها وثقافاتها ودياناتها وتقاليدها ، ويحل جميع الألغاز والغوامض والأسرار التى تعترض طريقه فى فهم الهند فهما صحيحا لكى يتمكن من رويتها فى صفاء ودون ضباب .

وسيكون هذا الكتاب وثيقة صادقة عن الهند وما فيها ، إذا قورن بكثير من الكتب المولفة فى اللغة العربية فى بعض نواحى الهند أو ترجمت من اللغات الأجنبية إلى العربية .

وإنى أشكر الله سبحانه إذا وفقنى فى أن أضيف إلى المكتبة العربية هذا السفر الطيب الجميل بهذه الصورة المشرقة والمشوقة المغرية ، وخدمة اللغة العربية وثقافتها ، كما وفقنى أن أقدم عظمة الهند القديمة إلى القراء العرب بقلب صاف رحيب . والله ولى التوفيق .

مصر الجديدة فى ١٩٦٩/٧/٢٨ — المؤلف

الفصل الأول

ملامح الهند الطبيعية والجغرافية

وجه الهند من الجو

إذا ألقينا نظرة على الهند من متن إحدى الطائرات نراها أشبه ما تكون بثمرة الكمثرى : أو أشبه بجزيرة بمعنى أدق . إن الهند جزيرة من بعض النواحي ، لأن البحر يفصلها عن غيرها فى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى والجبال التى يكاد يتعذر اختراقها تفصلها عن العالم فى الشمال ، والشمال الشرقى والشمال الغربى ، وبهذا تكاد تكون جزيرة .

تقسيم الهند الجغرافى

إن نظرة عابرة على الخريطة الهندية تهدينا إلى إنها منقسمة إلى ثلاثة أقاليم رئيسية : (١) الهند الشمالية . (٢) الهضاب الشرقية والغربية . (٣) والأرض الجنوبية وهذا تقسيم جغرافى طبيعى . وتحد الهند الشمالية بجبال الهملايا العالية الشامخة من الشمال والشمال الشرقى والشمال الغربى كذلك . ومن الجنوب بنهر ، وبسلسلة جبلية . أما النهر فهو نهر النربدا ، وأما الجبال فهى الفندياشل . وأما الهضاب فتقع إلى الجنوب من نهر النربدا ، وإلى الشمال من النهرين اللذين يبدوان فى الخريطة وكأنهما يلتقيان ، وهما التونجابادرا والكرشنا . وأما الأراضى الجنوبية فهى كل الأرض للجنوب مبتدئة من هذين النهرين ومنتهية إلى حدود سيلان .

صورة الهملايا من الجو

وإذا قمنا بجولة سريعة فى سماء الهند على متن الطائرة نرى سلسلة جبلية عالية فى الشمال هى سلسلة جبال الهملايا ، وسلسلتين جبليتين أقل ارتفاعا

تقعان على الساحلين البحريين الشرقى والغربى . ونلحظ بين هاتين السلسلتين الجبليتين مناطق منبسطة من الحقول المزروعة مع عدد كبير من الأنهار تجرى بينها ، ثم صحراوين واسعتين وغابات كثيفة مليئة بالأشجار .

موقع الهملايا والمناطق الشهيرة فى احضانها

وفى محاذاة نهر الجنجا والشمال الشرقى تقع سلسلة جبال الهملايا أعظم سلسلة جبلية فى العالم ، وتقع منابع نهر الجنجا فى جبال الهملايا حيث تبقى الثلوج دائما مغطية للقمم البيض التى يعجز الإنسان عن تسلقها ، وأعظم أمنيات كل هندوكى أن يقوم بهذه الرحلة الصعبة إلى منابع نهر الجنجا المقدس وسط الثلوج ومقابلة رجال الدين المفكرين الذين يقيمون دورهم على حافات منطقة الثلوج . ويحقق الكثيرون أمنياتهم هذه بأن يقطعوا رحلة الجنجا الطويلة الخطيرة هذه سيرا على الأقدام .

وتمتد الهملايا شمالا إلى الحدود بين روسيا والهند . ومن الطرف الجنوبى الشمالى إلى كشمير .

نهر الهند

يعتبر نهر الهند (River Indus) من أكبر الأنهار الهندية التى تتفجر ينابيعها من الهملايا . وفى الصيف حينما تذوب الثلوج فى الهملايا تحدث فيضانات عنيفة فى هذا النهر .وكان السكان فى القديم يستغلون هذه الفيضانات لرىّ أراضيهم الزراعية ، مع أن هذه الفيضانات كانت تسبب فى نفس الوقت دمارا شديدا فى أموال هؤلاء السكان وفى أنفسهم . وكذلك عرفوا طرقا عديدة لتخزين هذه الميـــاه ، كما توصلوا إلى إنشاء شبكات كثيرة لتوزيعها .

وعلى ضفاف هذا النهر قامت أقدم حضارة هندية كما سنذكرها قريباً .

كشمير

تقع ولاية كشمير كالعش على الطرف الشمالى للهملايا . وهى جنة الحدائق وأرض الأحلام التى تقطعها الأنهار والقنوات والجبال ، وتغطيها الأزهار فى فصل الربيع حتى تبدو الأرض كبساط سندسى مزركش ، وتعلوها الثلوج فى فصل الشتاء ، وتنبت أرض كشمير فاكهة المناطق المعتدلة كالتفاح والكرز .

ولايتا السند وبنجاب .

حينما يصب نهر الهند فى اتجاه الجنوب الغربى من أرض كشمير تنبع منه خمسة روافد شهيرة وهى : جيلم ، شناب ، راڤى ، بياس ، ستلج . وهذه الروافد بالإضافة إلى حوض نهر الهنـــد تكون المنطقة الرئيسية لباكستان الغربية .

ومن أكبر مدن باكستان الغربية كراتشى ، عاصمة ولاية السند وكلها الآن فى باكستان ، ولاهور عاصمة بنجاب . وجزء آخر من بنجاب يقع فى الهند وأشهر مدنها امرتسر .

المناطق الجبلية المتاخمة لحدود ولاية السند

وعلى الشاطىء الجنوبى لنهر الهند تقع الصحراء الهندية ، وتقع فى الشمال والشمال الغربى سلسلة جبال هندوكش . وهى ليست شاهقة الارتفاع كجبال الهملايا ، إلا أنها وعرة ، وفيها عدد قليل من الممرات الهامة التى تساعد على العبور إلى الهند .

وهذه الممرات والمناطق الجبلية لعبت دوراً كبيراً فى حضارة وادى نهر الهند لأن سكانها الجبليين البدويين هم اللذين تدفقوا على المدن الخصبة واستولوا عليها ، وانشئوا فيها حضارات راقية . وقد قطن هؤلاء المناطق

الجبلية الممتدة من بلوشستان (وهى تقع الآن فى باكستان الغربية) وأفغانستان إلى جبال عيلم فى إيران على الحدود المتاخمة لأرض الرافدين .

ثم تدفقت أمم كثيرة قاطعة هذه الممرات الجبلية منها اليونانية ، ثم الأتراك والمغول فى العصور الإسلامية .

نهر الجنجا والبرهمبترا والمناطق الشهيرة بين شواطئيها

يعد نهرا الجانجا والبرهمبترا من أهم الظواهر الجغرافية فى الهند . ويبلغ طول نهر الجنجا ما يقرب من ٢٥٠٠ كيلو مترا ، وطول نهر البرهمبترا حوالى ٢٦٦٠ كيلو مترا . ومع أن النهرين أقصر طولا من نهر المسيسيبى ميسورى بما يقرب من ٦٤٠ كيلو متر ، إلا أننا إذا ما أدركنا أن مساحة الهند نصف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية استطعنا إدراك أهمية هذين النهرين .

ويحب الهندوس نهر الجنجا لما يمنحهم من خيره العميم . وهؤلاء يريدون دائما أن تحرق جثثهم على شاطئيه وأن يلقى بالرماد فى مياهه ، ويغتسلون فى النهر مؤمنين بأن مياهه تغسل عنهم خطاياهم وتطهرهم وتقربهم إلى الله ويطلقون على النهر اسم « جنجا ماتا » أى الجنجا الأم .

ولاية بنغال ومدينتها الشهيرة كلكتا

تعتبر ولاية بنغال الواقعة فى الشمال الشرقى للهند المطلة على خليج بنغال من أهم الولايات الهندية وأخطرها شأناً . وهى موطن الشاعر العظيم طاغور . وهى تنقسم الآن إلى قسمين : القسم الشرقى منها يكون باكستان الشرقية ، وعاصمتها الشهيرة دهاكه ، والقسم الغربى يدخل فى إطار جمهورية الهند كأهم ولاية فيها . وفيها تقع أكبر مدينة هندية وهى كلكتا عاصمتها ومركز الثقافة والتجارة والصناعة للهند أجمع .

ووسط حقول بنغال المنبسطة تجرى الروافد السفلية لأعظم أنهار الهند المذكورة الجنجا (Ganges) والبرهمبترا (Brahmaputra) . وأن أرض بنغال خصبة ، وكثافة السكان كبيرة جداً حتى أن القليل من الأرض هو الذى بقى غير مأهول أو غير مزروع .

ويعيش الفلاحون فيها على قطع من الأرض أصغر من أن تمنحهم المستوى الكافى للعيش والقرى تتزاحم وأينما سرنا لا نرقب غير أناس يزاحم بعضهم بعضا . فالأرض على شاطئ الجنجا خصبة جداً . ثم أن مياه النهر عميقة وسعته كبيرة مما يمكن القوارب النهرية من أن تحمل الحاصلات جيئة وذهابا .

التقاء نهرى الجنجا والجمنا فى الله آباد

وللجنجا الأم روافد كثيرة يحبها الناس بدرجة أقل من حبهم للجنجا نفسه . وعند مدينة « الله آباد » — وهى أشهر مدينة فى ولاية أتاربراديش — يتصل نهر الجمنا ثانى أنهار الهند المقدسة (١٣٦٠ كيلو مترا) بنهر الجنجا . ويملا نهرا الجنجا والجمنا وفروعهما قنوات الرى التى تروى الحقول البعيدة كما تروى الحقول التى على مقربة من شاطئيهما .

مدينتا بنارس وآغرا

تقع هاتان المدينتان الشهيرتان فى ولاية أتاربراديش . وتعتبر مدينة بنارس من أكبر المراكز الدينية للهندوس الآن . وفى مدينة آغرا يقع أجمل وأروع مبانى العالم « التاج محل » الذى يقع على شاطئ نهر الجمنا ، ويبدو أشبه ما يكون بدرة فى حديقة من زمرد .

ولاية بيهار مسقط رأس بوذا

وعلى طول نهرى الجنجا والجمنا وقعت أعظم الأحداث والمشاهد التاريخية . وفى مدينة غيا (Gaya) فى ولاية بهار التى تقع على مسافة ٥٠٩ كيلو متر تقريباً للشمال من كلكتا نشر بوذا العظيم تعاليمه الدينية والاجتماعية تلك التى

سادت الهند منذ قرون طويلة ثم أخذت طريقها إلى الصين واليابان وبورما وسيلان .

دلهى العاصمة

تقع دلهى أبعد شمالا على شاطىء نهر الجمنا وسط الحقول الخصبة . وهى عاصمة الهند منذ القرون الغابرة . وقد بنيت عاصمة جديدة على مسافه أميال قليلة من المدينة أطلق عليها اسم دهلى الجديدة (New Delhi) .

والمدينة القديمة كانت مركزا هاما بالنسبة إلى الثقافة الإسلامية . إذ أنها ظلت عاصمة المسلمين قرابة انف سنة ، ولذلك بنيت فيها آثار إسلامية رائعة مثل المسجد الجامع والقلعة الحمراء .

الهضاب الشرقية والغربية واشهر المدن حولهما

وعلى الجانب الشرقى من الهضب الغربية تبدأ أرض الدكن (أى الجنوب) وهى الأخرى هضبة خصبة تمتد من الغرب إلى الشرق لمسافة مائتى ميل ، ويبلغ ارتفاع الهضبة إلى الشرق مباشرة من الهضبات الغربية أكثر من ألفى قدم فوق مستوى سطح البحر . على أن هذا الارتفاع يقل تدريجيا مع إتجاهنا للشرق حتى يصل إلى مستوى سطح البحر عند الحافات الشرقية للمنطقة . ونجد فى أرض الدكن آلاف الأفدنة من الحقول التى تنتج القطن والحبوب مثل الجوار (Jawar) والباجرا (Bagra) والأرز ، والذرة ، كما تجود بها الفاكهة مثل البرتقال والليمون وثمار المانجو والبطيخ والبابيتا (papeeta) والكتهل (Kothal) والشريفة (Shareefa or Sitaphal) . وتنتج الأرض أيضاً خضروات كثيرة مثل البطاطس والباذنجان والقرنبيط (القنبيط) وعشرات الأنواع غيرها .

ويزرع هذه الأرض كلها فلاحون يعيشون فى قرى صغيرة يتوجهون

كل يوم إما إلى الحقول التي يمتلكونها ، وإما إلى العمل بالأجرة فى حقول أصحاب الأملاك .

اشهر مدن الهضبة الغربية

وعلى الحافة الغربية للهضبة تقع مدينة « بونا » المركز الثقافى لغرب الهند ، ويطلق على سكان تلك المنطقة « المراتا » . ويكون هولاء الآن ولاية خاصة باسم المهاراشتر ولاية أخرى مجاورة لها هى ججرات .

وإذا سافرنا من بونا من ناحية الجنوب واجتزنا الأرض التى تنبت القطن نصل إلى مدينة كبيرة أخرى هى شولابور (Sholapupe) وهى مركز لحلج القطن .

وإذا درنا حول الطرف الجنوبى للهضبة سنصل إلى ولاية صغيرة يقال لها « غوا » التى كان البرتغاليون يملكونها بعد استقلال الهند ، ثم فتحت بالغزو العسكرى أيام رياسة نهرو . وهى تتضمن مدنا أخرى مثل : دامن وديو ، وتقع على ساحل البحر . وفى جبالها يوجد المنجنيز والحديد . وفى الأرض المنخفضة على ساحل بحر العرب وعلى شواطىء الأنهار ومجارى المياه توجد أحراش أشجار النخيل التى تتماوج تحت أشعة الشمس .

وتقع غوا على حافة واحدة من غابات الهند المليئة بالأشجار العالية والنباتات المتعرشة والمستنقعات حيث لا يمكن لأحد أن يغامر باختراقها ، وتنتشر هذه الأحراش هنا وهناك فى الهند ، ولكنها تختلف عن الغابات الصديقة الودود للإنسان والحانية عليه . وفى العصور القديمة أقام الإنسان المدارس فى الغابات كما أقام أماكن يلجأ إليها بعيداً عن الضوضاء الصاخبة لدنيا العمل والعمال . ومن هذه المدارس التى أنشئت فى العصور القديمة برز أعظم مفكرى الهند .

بومبـــاى

وهذه المدينة ثانى كبرى المدن الهندية بعد كالكتا . وحينما نجتاز جبال هندوكش ونمر بسماء كراتشى نصل إلى بومباى مدينة تجارية وصناعية كبرى وهذة المدينة غزيرة الأمطار من يونيو إلى سبتمبر . وقد ينهمر المطر غزيرا ليوم كامل ، أو لبضع ساعات قليلة ، ثم تشرق الشمس وتغمر الأرض بأشعتها ، ولكن لا تلبث الأمطار أن تتساقط من جديد ، ويستمر إنهمارها لأسبوع كامل قبل أن تعود الشمس للظهور ثانية ، فتطل على الأرض من خلال السحب الكثيفة . وعندما ينقطع سقوط المطر تدب الحياة فى الحشائش والأزهار ، فتنمو وتتفتح ، وينسى المرء المطر ، وسط جمال الحدائق والبساتين التى تحيط بالفنادق والمساكن الرحيبة .

وعلى شاطىء « شوباتى » فى طرف المدينة الغربى يستلقى الناس على الرمال الفسيحة تحت أشعة الشمس الدافئة ، وتصل إليهم أمواج البحر وتحيط بهم مياهه . ويبدو النخيل كأنه يتمايل على جانبى الطريق ويحول دون وصول الرمال إلى المبانى .

ونرى الأطفال فى هذا الشاطىء بصحبة آبائهم ورفاقهم ، ويزدحم بهم الشاطىء وهم يستمتعون بكل جميل فيه ، ويعرض الباعة ما لديهم من الفشار والفول السودانى والحلوى واللعب التى يبتاعها الأطفال كما قد يكون بين الجمع مروض دب مستأنس يؤدى رقصاته مقابل ما يتناوله صاحبه من قروش .

الأرض الجنوبية واشهر مدنها

وبين الهضاب الشرقية والغربية متجهة إلى الجنوب تقع مدينة حيدرآباد أشهر مدينة علمية بجنوب الهند . وقد كانت ولاية إسلامية مستقلة حتى نهاية الاحتلال الإنجليزى ، ثم ضمتها جمهورية الهند إلى المركز عن طريق الغزو

العسكرى . وهى لم تزل تعد أشهر مدينة تطبع الكتب العربية النادرة وتوزعها على العالم الإسلامى كله . وفيها تقع مؤسسة دائرة المعارف العثمانية . وتعتبر هذه المدينة الآن عاصمة ولاية اندرابراديش .

مدراس

وهذه أكبر مدينة فى جنوب الهند وتعتبر ثالث مدينة بعد كلكتا وبومباى وتقع على الساحل الشرقى لخليج بنغال . ومن ميناء مدراس البحرى أو من « بلاجها » العالمى الشهير « ميرينا » نستطيع رؤية جامعة مدراس . وعلى أرصفة الميناء نستطيع مراقبة سفن النقل وهى تحمل الصادرات من هذا الجزء من أرض الهند ، فتنقل آلاف الأطنان من الفول السودانى والأرز والبصل والقطن والكروم والمنجنيز الخام والميكا والقماش القطنى .

وتقع فى هذه الولاية أشهر المعابد الهندوكية التى تمثل روائع الفن المعمارى الهندوكى . وأشهر هذه المعابد تقع فى مدينة « مادورى » (Msdura) التى تعتبر أحد أهم المراكز الدينية للهندوس . وفى نظر الرحالة الأفرنيج تبدو هذه المدينة أشبه ما تكون بمدن الكاتدرائية فى أوربا حيث يكثر وجود الهياكل والمعابد .

ميسور

فإذا اتجهنا غربا من مدراس دخلنا الولاية الناهضة المتقدمة ميسورمجتازين الجبال المغطاة بالغابات حيث لا تزال الفيلة تتجول وسط الأشجار ونجد هذه الغابات ممتلئة بالوحوش المخيفة .

وأن عاصمتها بنغلور تعتبر من أهم المدن الهندية ومصيف شهير لسكان الجنوب .

كيرالا

وتقع ولاية كيرالا فى أقصى الجنوب الغربى على ساحل بحر الهند . وفيها عدد من المدن تتميز بخصوبتها وخضرتها مثل كوشين وتراونكور . ويلاحظ

وجود شجرة من أشجار جوز الهند عند مدخل فناء كل دار . وتزين ثمار جوز الهند كل صحاف الطعام التى تعدها النساء ، وتعتبر الأنهار والقنوات والثياب البيضاء التى يرتديها السكان من المظاهر البارزة فى كل الأراضى الجنوبية .

وفيها ميناء شهير يسمى كاليكوت وهو الذى لعب دوراً كبيراً فى التجارة العالمية مع الشعوب العربية منذ القدم . وإن المنطقة التى يقع فيها هذا الميناء تسمى مالابار ، تلك التى توافد عليها التجار العرب منذ القدم وأنشئوا فيها جالياتهم قبل الإسلام ، وزاد نشاطهم بصورة مذهلة بعد الإسلام .

وتعتبر « رأس كمارى » أبعد نقطة إلى الجنوب من أرض الهند ، وتقع عندها كل مناطق الوثوب إلى جزيرة سيلان . وهذه هى التى تقص الأساطير إنها قد وجدت فقط للملكة سيتا — زوجة راما ، الشخصية الأسطورية للملحمة الراماياناـ تلك التى اختطفت من زوجها فى إحدى جبال جنوب الهند واخفيت فى جزيرة سيلان .

بين الهنود والهنود الحمر

وقد يشتبه الأمر على بعض الناس من وجود كلمتى الهنود والهنود الحمر . ويظنون إنهما يطلقان على الشعب الهندى . وهذا غلط فاحش لأن كولومبس ذلك الذى اكتشف أمريكا ، وكان فى الحقيقة فى طريقه إلى الهند قد أطلق خطأ على الشعب الأمريكى الأصيل ذى اللون الأحمر لقب الهنود الحمر . وبهذا تكون تلك التسمية خاطئة وغير دقيقة بالمرة : وهى تطلق حتى الآن على السكان الأصليين لأمريكا .

الفصل الثانى

أوائل الحضارات الهندية المعاصرة للحضارات السومرية فى أرض الرافدين ، والفرعونية فى وادى النيل : « موهنجودارو وهارابا »

كان تاريخ الهند قبل عام ١٨٠٠ ق . م مجهولا تماما حتى أوائل القرن العشرين الميلادى . ثم بدأت الحفريات فى السند على شواطىء نهر الهند فى عام ١٩٢٢ م ، ونتيجة لذلك ظهر أول كتاب (وهو عبارة عن نتائج أعمال الأحفار فى وادى نهر الهند) وذلك فى لندن فى عام ١٩٣٢ بعنوان « موهنجودارو وحضارة نهر الهند(١) » . ثم تتابعت عمليات الحفر والتنقيب وظهرت نتائج هامة وسجلت فى عام ١٩٥٠ م فى كتاب « الهند فيما قبل التاريخ(٢) » . وهذه البحوث والاكتشافات فتحت آفاقا جديدة فى تاريخ الهند ، وأدخلت الهند فى طور جديد من الحضارة البشرية لتلتقى مع أقدم الحضارات الإنسانية فى الشرق الأوسط مع الحضارة السومرية فى أرض الرافدين والحضارة الفرعونية فى مصر وذلك خلال عام ٣٢٠٠ ق . م .

ومن جراء عملية الحفر والتنقيب أكتشفت مدينتان فى وادى نهر الهند وهما « موهنجودارو (Mohenjo Doro) و «شانهودارو» (Chanhudaro) ومدينة ثالثة فى وادى نهر راوى — وهو من روافد نهر الهند الكبير — وهى « هارابا » (Harappa) ، ولكن هذه المدينة الثالثة تبعد عن الأخرتين بمسافة ٤٠٠ ميل تقريبا .

وحينما ننظر إلى هذه المدن وحضارتها المندثرة — وإن كان ظهورها متفاوتا فى الزمن — نجد ملامح متشابهة فى أمور كثيرة . إذ كانت طريقة الحياة متماثلة إلى حد بعيد . وبسبب حاجتهم القصوى إلى المياه للشئون الزراعية وعدم

---

1) Mohenjo Daro And The Indus civilisation by Marshall Mac Khary and others.

2) Prehistoric India by Piggoth. London.

توافر الأمطار فى جميع الآونة استخدموا أساليب صناعية كثيرة لرى الأراضى ، وكلها متشابهة إلى حد بعيد .

وكذلك كانت طريقة تفكيرهم وصناعتهم ونحتهم وهندسة مبانيهم وفنونهم متشابهة كذلك إلى أقصى الحدود . وقد استخدموا نفس الأسلحة والأوانى الفخارية والأدوات والحلى . ومن الجدير بالذكر أن بعض هذه الظواهر متشابهة فى بعض النواحى مع الحضارة السومرية فى أرض الرافدين .

وكانت حياتهم جميعاً تعتمد على الزراعة . ولذلك استخدموا نفس الوسائل فى الرى والإنتاج .

ولقد وجدت فى بلادهم حيوانات الغابات بكمية كبيرة كالأسد والفيل والكركدن . وكذلك حيوانات البلاد السومرية فى أرض الرافدين .

إن المبانى والعمارات فى موهنجودارو لم تنشأ على السهول فقط ، بل شيدت كذلك فى المناطق المرتفعة على الجبال الصغيرة . وبهذا امتدت المساكن إلى مدى بعيد وزاد سكان البلاد زيادة كبيرة .

وقد بلغت شئون التنظيم والإدارة فى مصلحة البلديات حينذاك أقصى درجة من الاتقان والنضج . كانت العمارات تنشأ وفق مشروعات وضعت قواعدها وأصولها بعد دراسات علمية واسعة شاملة . ومن هنا نظمت الشوارع تنظيما رائعاً . وكانت الشوارع واسعة ونظيفة ومنظمة ومنسقة إلى درجة كبيرة . وكذلك العمارات والقلاع قد شيدت بمنتهى التنسيق والتنظيم ورصفت رصفاً دقيقاً . لقد نجح السير جون مارشال (Sir John Marshall) والبروفيسور بيجوت (piggoth) فى اكتشاف هذه العمارات والشوارع والمبانى فى عام ١٩٢٢ فى المنطقة التى تقع الآن فى « لانكاشير » (Lanceshire) — مركز المصانع القطنية — وكذلك شيدت مبان فخمة فى فناء الدار مجهزة بالسلالم والطرق الخلفية والحمامات وسلال المهملات ،

حضارة الشرق الأوسط : ارض الرافدين وفلسطين ومصر

لقد بدأت بوادر الحضارة فى كل من « جارمو »(Jarmo)و«حاسونا» (Hassuna)فى شمال العراق منذ العصر الحجرى الثانى ، وبدأت فيهما الزراعة فى صورة بدائية . وقد صنع هؤلاء الأوانى الفخارية البدائية . ومن المحتمل أن مثل هذه الحضارات قد ظهرت كذلك فى مناطق أخرى من الشرق الأوسط . ولقد كان عدد السكان فى هذه الآونة قليلا للغاية . ولذلك لم تمتد آثار هذه الحضارات إلى مدى بعيد فى أقطار الدنيا النائية الواسعة .

لقد ظهرت حضارة أولية بدائية فى فلسطين فى منطقة جيريكو (Jericho) أواخر فى العصر الحجرى الثانى . وقد استطاع الإنسان فى هذه الحضارة معرفة صناعة الأوانى الفخارية قبل أن يعرف طريقة إيجاد النار وإشعالها . وكذلك بنى البيوت الحصينة من الأحجار ، وأحاطها بالجدران الطويلة الممتدة المبنية بالأحجار كذلك . وكذلك صنع مخابىء للاختفاء عن أنظار الأعـداء واستخدم الجماجم الإنسانية لصناعة تماثيل إنسانية تشبه صورة حية الإنسان لخداع الأعداء وتضليلهم دفاعاً عن النفس . وعلى الرغم من كل هذا التقدم فقد كانت حياتهم شبيهة بالبدوية لأن الآثار المدنية لم تظهر بعد . لأن مطالب الحياة لم تتطور ، وكانت الحياة محصورة فى الزراعة والصناعة البدائية والدفاع عن النفس ، والاختفاء عن أنظار الأعداء بشتى الطرق والوسائل .

إن الحضارة الإنسانية الحقيقية قد بدأت فى الحقيقة بعد ألفى سنة من هذه الحضارات البدائية ، وذلك فى « تل — حلف »(Tell - Helf) فى شمال العراق منذ عام ٣٧٠٠ ق.م . وقد صنع سكان هذه المنطقة أول أوان فخارية مزينة ، أخذت طريقها فيما بعد إلى أنحاء وربوع أرض الرافدين (أى العراق) . وكذلك ظهرت فى هذه الآونة أوان فخارية مستقلة من نوع جديد فى « عيلم » فى « سوسا » التى كانت تقع فى المناطق الجبلية لإيران وعلى مقربة من أرض

الرافدين . ومن المعروف أن الجنس البشرى لهذه المنطقة الجبلية يمتد إلى بلوشستان فى الهند بنفس المميزات والملامح . وهذه الأمة لعبت دوراً كبيراً فى حضارة الهند وأرض الرافدين كما سنذكر قريباً .

ثم ظهرت الحضارة العبيدية فى أرض الرافدين وازدهرت خلال السنوات ٣٥٠٠ — ٣٠٠٠ ق . م وحضارة جمدت نصر خلال السنوات ٣٠٠٠ — ٢٩٠٠ ق . م ، واخيراً حضارة السومريين العظيمة (٣٩٠٠ — ٢٥٠٠ ق . م) .

وأما فى وادى النيل فقد ظهرت أوائل الحضارات فى الفيوم ومرمدة حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م ، وتاسا والبدارى حوالى عام ٤٥٠٠ ق.م وحضارة الأسرة الأولى عام ٣١٠٠ واستمرت حتى عام ٢٧٠٠ ق .م وهذه الحضارة الأخيرة كانت معاصرة لكل من السومريين فى العراق وسكان وادى نهر الهند .

اسباب ظهور هذه الحضارات

طالما كان الإنسان يعتمد على فيض السماء وأمطارها الغزيرة ، ويتكل عليها كل التوكل ، ولم يطلب المزيد عاش فى طور بدائى من الحياة ولم يشم رائحة الحضارة خلال هذه الفترة الراكدة . ولكنه حينما كسر أغلال الجمود وثار على حياة التوكل وخرج ليسخر الطبيعة لسيطرته ونفوذه بواسطة قواته الهائلة الكامنة فى نفسه ، واستخدم الوسائل الصناعية للاستغناء عن الأمطار إلى حد ما . فقد دخل فى طور جديد من الحياة . ومن هنا تحولت الحياة من الطور البدائى إلى الطور المدنى الأول (Urban civilization) . وهذه الثورة الإنسانية الأولى قد قامت فى وادى نهر الهند وأرض الرافدين ووادى النيل خلال عام ٣٢٠٠ ق.م تقريباً .

مناطق الشرق الأوسط الأخرى

تتضمن كلمة الشرق الأوسط البلاد الآتية : مصر ، والأناضول ،

وسوريا ، ولبنان ، وفلسطين والعراق . وإيران ، والجزيرة العربية كلها .

كانت الأناضول مناطق هامة فى تلك الأيام . لأن جبالها الشامخة الشرقية كانت غنية بالمعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد . وإذا كانت هذه البلاد متصلة بسوريا من ناحية الجنوب فإنها كانت ملحقة بأوربا من ناحية الشرق ، وبروسيا من جهة البحر الأسود .

سبب وجود الملامح المتشابهه بين سكان الهند والعراق

ومن المعروف أن حضارة نهر الهند والتى يرجع تاريخها إلى الفترة قبل عام ٣٠٠٠ ق.م ، كانت متقدمة جداً فى جميع الحالات . شأنها فى ذلك شأن الحضارة السومرية العراقية فى هذه الآونة . وهذا يدل بوضوح على أنها مرت بمراحل عديدة وقطعت مدارج كثيرة . ولكن الأحفار لم تكشف لنا بعد عن الخيوط الأولى للصورة البدائية من هذه الحضارات لكى نقف على حقيقة ملامحها الأولى فنكشف ذاتها وتفاعلها مع حضارات الشرق الأوسط .

ومن ناحية أخرى فإن وجود ملامح متشابهة بين وجوه السومريين وسكان وادى نهر الهند دعا كثيراً من علماء الأحفار إلى القول بأن السومريين كانوا من الأصل الهندى . وقد نزحوا من المناطق الجبلية للهند والتى تسمى ببلوشستان واستولوا على مقاليد الحكم فى أرض الرافدين وسموا بالسومريين. وقد الفت كتب ومقالات باللغات الأفرنجية فى هذا الموضوع .

ولكننا نرى — على ضوء هذه البحوث والنتائج الحفرية — أن سكان المناطق الجبلية الممتدة من بلوشستان (وهى الواقعة الآن فى باكستان الغربية فى الحدود المتاخمة لأفغانستان) وأفغانستان ومكران وعيلم (إيران القديمة) كانوا كلهم من أصل واحد ، واتسموا بملامح متشابهة ولهجاتهم متقاربة وألوانهم متماثلة . وكانت حياتهم تعتمد على خيرات الجبال ، ولذلك اشتهروا بالقوة والعنف والهمجية . وبما أن موارد الحياة فى تلك المناطق القفراء

المتوحشة كانت قليلة للغاية فقد اضطروا بين حين وآخر إلى الزحف إلى المناطق السهلية الخصبة على ضفاف الأنهار . وكان نهرا دجلة والفرات يقعان فى الغرب ،وفى الشرق نهر الهند وروافده. ولذلك اتجهت القبائل القريبة من نهر الهندإلى وادى نهر الهند وروافده ، والقبائل القاطنة على جبال عيام إلى أرض الرافدين ، واستولت على مقاليد الأمور فى تلك البلدان الغنية الخصبة بما أعطيت من القوة والبطش والبسطة فى الجسم بسبب إقامتها فى الجبال . وصورة مماثلة قد حدثت فى نفس العصر تقريبا حينما نزحت الأمة الهندية الأوربية الساكنة فى جهة بحرى قزوين والأسود إلى المناطق الأوربية الخصبة والأناضول ، وكذلك حينما نزحت الأمة السامية أو العربية القاطنة فى الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين وبلاد الشام

اوجه التشابه الأخرى بين الهند والعراق

إن وادى نهر الهند مشابه لوادى أرض الرافدين ووادى النيل إلى حد بعيد . لأن أرضها هى الأخرى سهلية خصبة ، تعتمد أساساً على فيض السماء ، وتتأثر إذا تضاءلت الأمطار ، وتتحول البلاد إلى المجاعة إذا نفدت الأمطار . ولذلك اعتمد سكان هذه المناطق على الوسائل الصناعية (كالعراقيين والمصريين) فى رى الأراضى بمياه الأنهار . كان نهر الهند وروافده (جيلم شناب راوى بياس ستلج) تروى هذه المناطق الممتدة المتسعة والتى تبلغ مساحتها بالنسبه إلى مصر مرتين ، وأربع مرات بالنسبة إلى أرض السومريين والأكاديين . وهذه الروافد الخمسة فى الغرب ، ونهر ساراسودى فى الشرق والمناطق المحيطة بهما تقع – وفق جغرافيتنا الحديثة – ولايتا السند وبنجاب . فالسند الآن – كما قلنا – تدخل فى إطار باكستان الغربية ، وأما بنجاب فنصفها فى باكستان والنصف الآخر فى الهند . وحينما ننظر الآن إلى بلاد السومريين نراها صحراوية قفراء قاحلة ، لا ظلال فيها ولا أشجار . وأما السند وبنجاب فيبدوان شبه صحراء من جهة ، ومستنقع من جهة أخرى .

لوحة (١)

تمثال حجري لرجل من موهنجو دارو

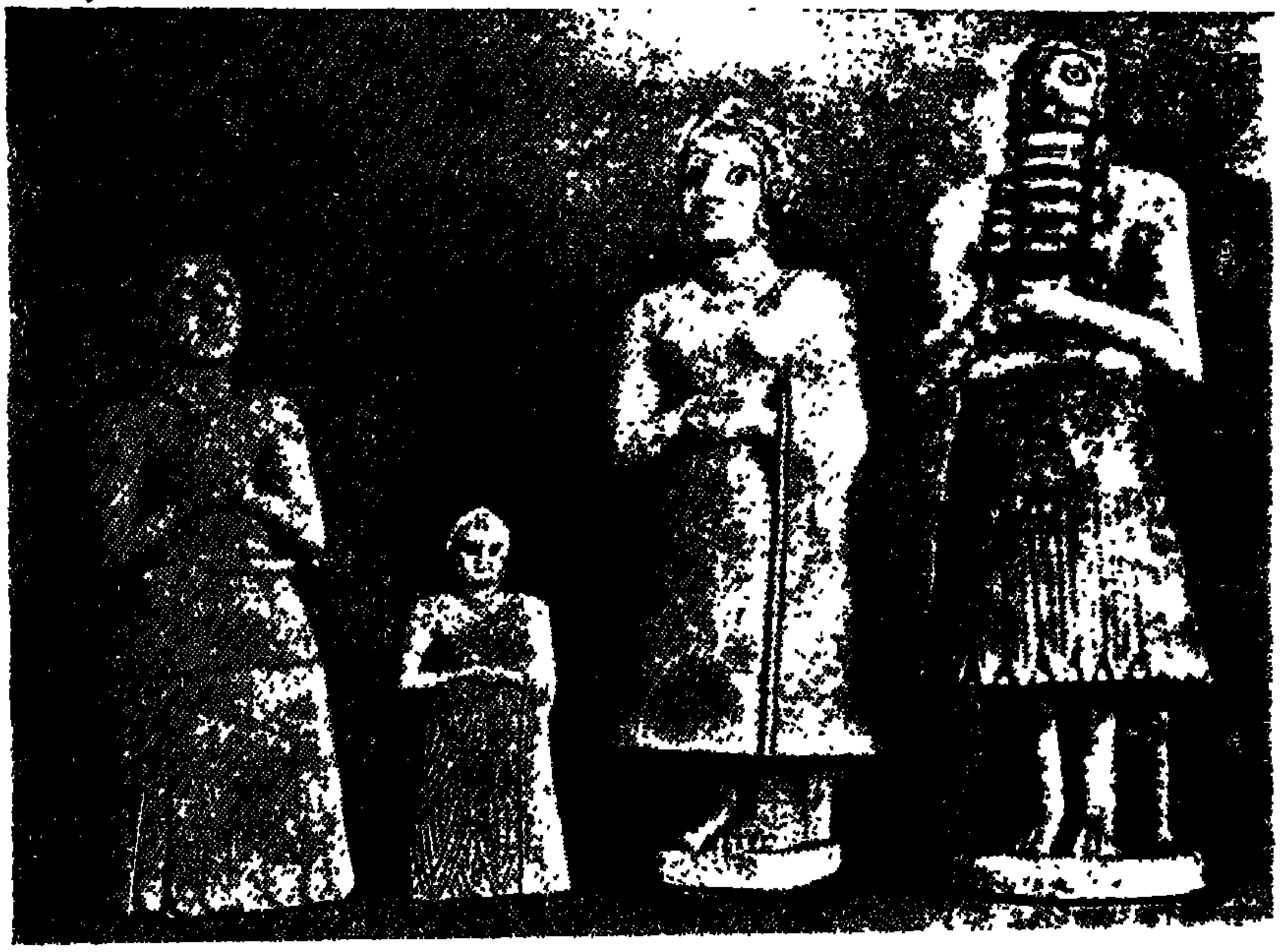

لوحة (٢)
تماثيل للسومريين من أرض الرافدين

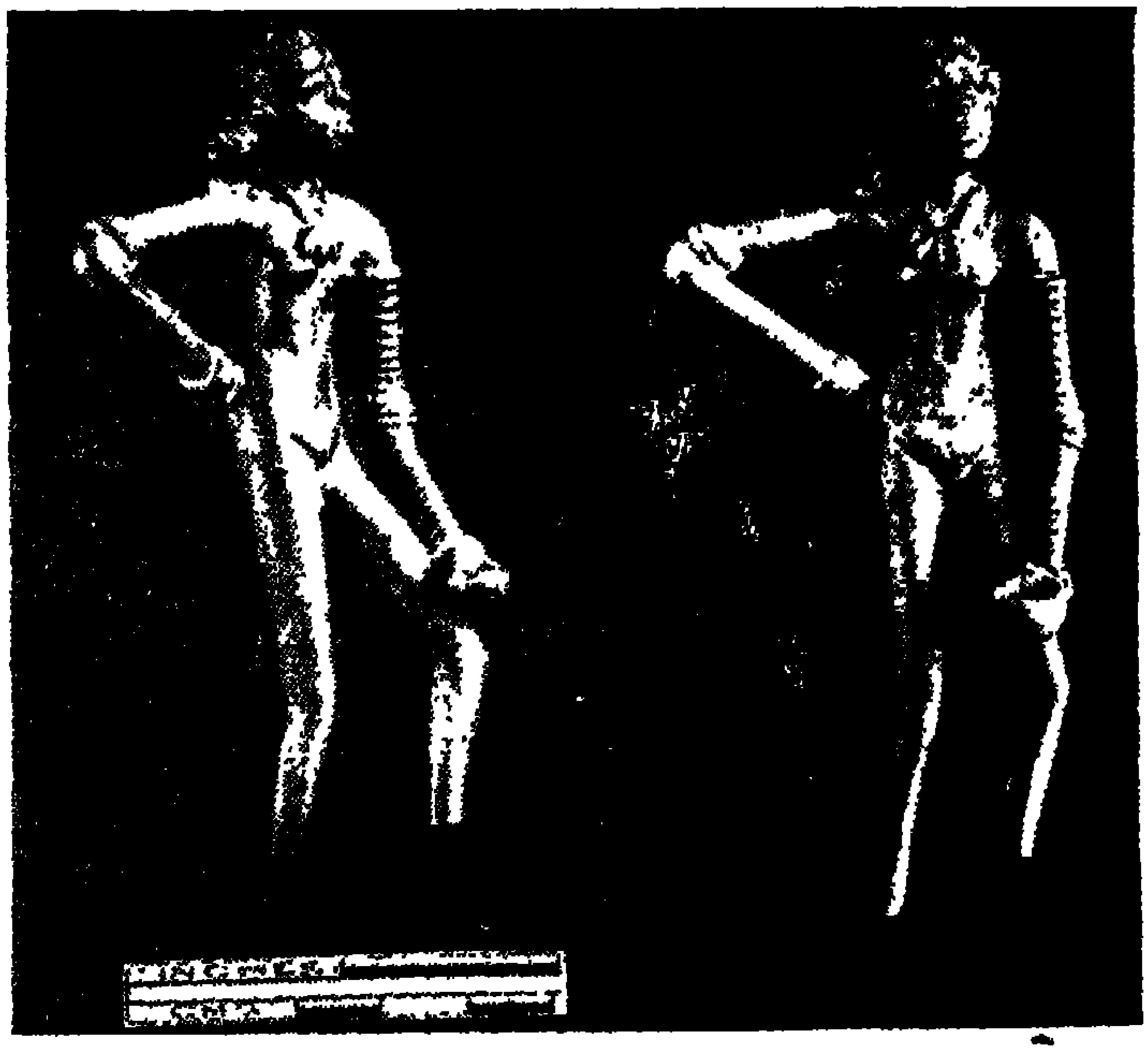

لوحة (٣)
تماثيل نحاسية لراقصات من هارابا

والسهول المنخفضة حيث لم تصل اليها المياه بسبب وجود السدود قد تحولت إلى غابات كثيفة . أما حيث كانت تتسرب فيها بعض المياه فقد نبتت فيها أشجار خفيفة ، وكذلك ساعدها وجود الطبقة الأرضية الواقعة تحت التربة . وقد ارتفعت هذه الطبقة الأرضية من عشرة إلى خمسة عشر قدما من السطح الأرضى العام . وأما السطح العام للسهول ووادى الروافد فلم يحدث فيها تغيير .

ومن ناحية أخرى فإن الهند وأرض الرافدين تبدوان منطقة متحضرة ممتدة متلاحقة فى سلسلة واحدة حينما نلقى نظرة على خريطة هذا العصر . وذلك لأنه يتوسط كلا من أرض الرافدين ووادى السند مناطق شاسعة تحاول امتصاص هاتين الحضارتين لتبلغ مستواهما أو لتكون حلقة متصلة بينهما . وهى تبدأ من بلوشستان وأفغانستان وإيران وتمتد حتى جبال زاجروس (Zaqros) فى أرض الرافدين .

بين الهند والعراق ومصر

ومع أن هذه الحضارات الثلاث قد نبعت مستقلة وتطورت ، وبلغت أقصى درجات المجد والازدهار محتفظة بروح الاستقلال والذاتية ، إلا أننا نجد بين الثلاث ملامح متشابهة فى أمور كثيرة . كانت الزراعة أهم عماد الدولة فى الحضارات الثلاث . كانت تزرع الحبوب الغذائية والأشجار وتروض المواشى والأغنام ، وتستغل المعادن كل الاستغلال لصناعة أدوات كثيرة مهمة ، كما وجدت مصانع النسيج وصناعة الآجر والقدور ، بالإضافة إلى أعمالهم فى شق الأحجار والصخور للعثور على الخرز والفصوص والأحجار الثمينة الأخرى مثل الياقوت الأزرق (ليبس لازولى) ونانيس وما إلى ذلك . وعلى الرغم من كل هذا التشابه فقد كان الاعتقاد السائد فى كل هذه البلاد أن هذه الجوانب مختصة بها دون غيرها .

وفى بعض قلاع هارابا (فى وادى نهر الهند) وأطلاله المطمورة تحت

الأرض قد عثرت على قطع فخاريه صنعت بالعجلة ، لم تكن لها علاقة بالهند بتاتاً . وهي تشير إلى كون أهلها أميين ينتمون إلى شمال بلوشستان ، ويرجع تاريخهم إلى عصر ما قبل حضارة هارابا . وكذلك حفريات أوان فخارية كثيرة في مناطق عديدة من وادى نهر الهند وفى قرية أمرى(Amri) بالذات فى بلدة ماجوندار (Majundar) ، تشير كلها إلى أنها صنعت قبل ظهور حضارة وادى نهر الهند ، وإنها بدائية للغاية ، صنعت بالعجلة ، وأشكالها وزخارفها مختلفة غامقة اللون ومزخرفة بالأنماط الجبرية ، زوايا الشكل ، متصلة الحلقات ، وتحمل فاسين ، أو ذات إظلاع أربعة متساوية ، وزاويتين حادتين متفرقتين ، أو مربعة الشكل المغطية ، ومرسومة بخطوط سوداء ، أو حمراء رمادية . ومع إنها تشير إلى بداية عهد وادى نهر الهند وحضارته ، إلا إنها كانت منتشرة ومعروفة فى أرض الرافدين فى حضارة يوروك (Uruk) خلال السنين ٣٢٠٠—٣٠٠٠ ق.م وهذه الظاهرة تذهب بنا إلى الظن باستيراد الهند لهذه الأدوات من أرض الرافدين . ولكنها ليست قوية . والمرجع أن الهند حاولت محاكاة أرض الرافدين فى أدواتها الحضارية فى العصرين يوروك وجمدت نصر ، ونجحت فى هذه المحاولة وصنعها على أنماط أرض الرافدين . وبهذا تم تبادل الخبرات الفنية بين البلدين كما تم تبادل السلع التجارية والحضارية من قبل .

ومن الجدير بالذكر أن نهاية حضارة وادى نهر السند تتجلى أمامنا بكل وضوح ، فى حين نرى بدايتها فى ظلام حالك . لقد وجد فى بعض العمارات الفخمة للطبقة البورجوازية إن الآجر المستعمل قد أعيد استعماله وكانت هذه العمارات مزدحمة ومتقاربة جداً حتى ضاقت بها الشوارع . وفيما يبدو لنا إن سلطات البلديات لم تكن تملك سلطة منع هذا النظام الفوضوى .

معالم الحضارة فى وادى نهر الهند

لقد عثر علماء الأحفار على أدوات كثيرة تدل على وجود حضارة عريقة

أصيلة في وادى نهر الهند . وتحتل الأوانى الفخارية والأختام والكتابات القديمة الدرجة الأولى من الوثائق الأثرية لعرض هذه الحضارة فى صورتها الأصلية وشرحها شرحا وافيا .

الاوانى الفخارية

وقد فاق وادى نهر الهند أرض الرافدين فى صناعة الأوانى الفخارية الممتازة . كان هؤلاء يصنعون أوانى فخارية مزينة مزخرفة ممتازة . لقد استخدم الخزافون هنا عجلة سريعة فى صناعة هذه الأدات . وكانت الأوانى فى معظم الأحيان شاحبة اللون ، أو باللون القرنفلى المائل إلى الأحمر . وهذا اللون كان يستمر على الرغم من شدة اشتعال الوقود ، ويتحول بعد الاستعمال إلى لون شبه النسيج الرمادى . وكانت هذه الصناعة تشبه ما وجد فى يورك فى العراق . ولإيجاد النعومة للإناء استخدموا أدوات خاصة وسدادة ، تستعمل حتى الآن لنفس الأغراض فى تلك المنطقة . وهذه الظاهرة قدوجدت أيضاً فى حضارة جمدت نصر فى أرض الرافدين .

إن الجرة ضيقة العنق كانت نادرة جداً . وأما طويلة العنق فلم توجد بالمرة . وأما الطست مرتفع القد فقد وجد بكثرة ، وهو مزخرف باللون الأحمر والرمادى . وقد عثر على هذه الأوانى فى المقابر بكثرة ، كما عثر عليها فى بلاد السومريين . كما وجدت جرة أسطونية بجانب ذلك .

ولقد زخرفت الزهرية ببصمات مدورة . وهى تميل إلى اللون الأصفر الشاحب ، مفروكة فوقها بشيء من الخشونة ، وكذلك وجدت مثل هذه الزهرية فى البلاد السومرية ، وعليها عقود ، ومزخرفة بأبدع أنواع الزخرفة ، ومصبوغة باللون الأسود أو الأحمر الغامق . وكذلك وجدت أدوات كثيرة مزخرفة بأبدع الألوان ، منها الأحمر والأصفر ، وصبغت بالألوان بعد إحراقها فى التنور .

إن الزخارف المدهونة باللونين الأسود والأحمر تدل على وحدة الصناعة فى وادى نهر الهند فى مدنها المختلفة ، لأنها وجدت على نفس الأنماط وبكثرة فى جميع أطوار الحضارة مبتديا من موهنجودارو ومنتهيا إلى هارابا .

وكذلك صنعوا بكثرة مادة تسمى « فاينس » (Fayence) ، استخدمت فى الأسارر والتماثيل والطوابع والخرز ، كما استخدمت فى صناعة الزهرية لتتخذ مظهراً فخارياً صناعياً . وأن بعض القطع من الأوانى الفخارية تبدو وكأنها زجاجات لامعة حقيقية . كانت الزهرية المصنوعة من الأحجار نادرة جداً . إن الدلالات تشير إلى أن الزهرية الحجرية قداستوردت من أرض الرافدين .

الأختام

تحتل الأختام مكانة هامة بعد الأوانى الفخارية فى الحضارة الهندية . وقد وجدت أختام كثيرة كأقراص مربعة الأشكال ، تشبه الأحجار الصابونية وعلى ظهرها حدبة ، ووجهها محفور ، ولما تقطعت صارت مصقولة لامعة . وقد حفرت عليها أساطير بحروف واضحة مفهومة كما نرى فى تصميمها صور الحيوانات تعبر عن مفاهيم وهى كاحادى القران (وهو حيوان خيالى) ، والثور ذى القرن القصير ، والثور البرهمانى (نوع من الثور) ، والفيل ، والكركدن ، والأسد ، والجاموس ، والتمساح ، والظبى (بقر وحشى) . ونفس هذه النقوش وجدت محفورة على أقراص نحاسية مسطحة ، كما وجدت على وجهها الثانى كتابات . وكذلك وجدت أختام ضيقة المثلث الزاويا ، مخرومة ومثقوبة فى طولها ، ولا نجد فيها غير الكتابات .

ومما يؤسف له أن علماء الأحفار لم يذكروا لنا طبيعة هذه النقوش والكتابات . ولذا لا نستطيع مقارنتها بالحروف السومرية المسمارية . وعلى كل حال — وفيما يبدو لنا — إنها كانت حروفا مستقلة ، لا علاقة لها بالمسمارية

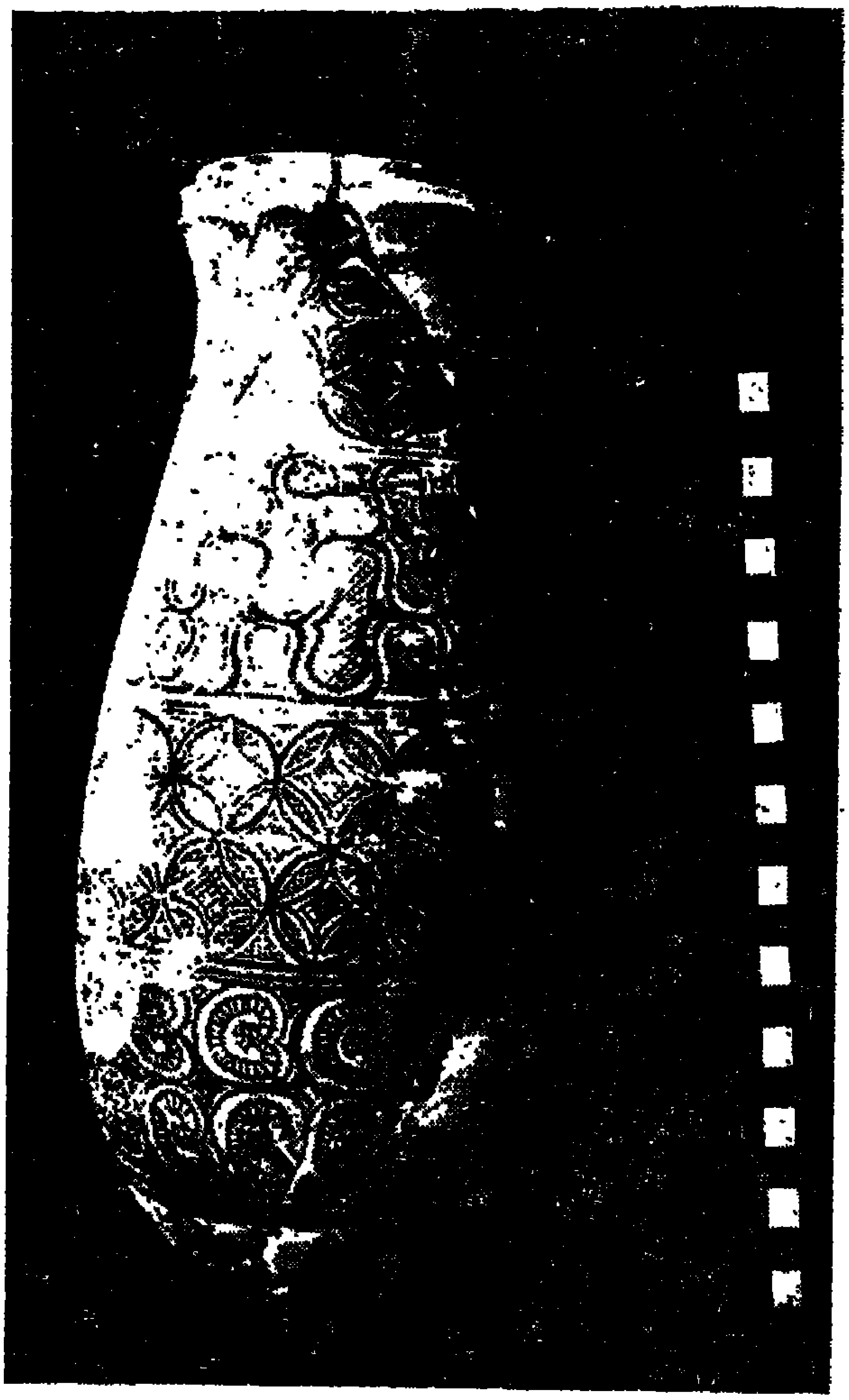

لوحة (٤)
زهرة مرسومة من موهنجو دارو

السومرية . وهذا يدل على استقلال الهند بالأبجدية والكتابة منذ بداية حضارتها في وادي نهر الهند .

وكذلك وجدت أختام مستطيلة مثل الأزرار ، تشبه الطوابع ، مصنوعة من الأحجار الصابونية . وهي تحمل زخارف هندية جيرية رائعة ، وعليها نقوش تشبه الصليب المعقوف .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الأختام - على الرغم من وجودها بكثرة وبصورة رائعة بديعة ، ودلالتها على تقدم هذه الصناعة في الهند - فإننا لانجد ما يشير إلى استخدام هذه الأختام في الشئون الإدارية أو الحكومية ، في حين أنها استخدمت في الشئون الرسمية في كل من أرض الرافدين ومصر .

ومن جهة أخرى فإننا نجد إشارات خفيفة إلى استخدامها في الشئون الرسمية ، وذلك من خلال رؤيتنا أختاما صغيرة عليها بصمات أو انطباعات ولكنها غير واضحة تماماً . ومن هنا نعتقد أن هذه الأختام كلها قد استخدمت في الشئون الطقوسية والمراسيم والحفلات الخاصة .

وكذلك وجدت أحجار مصقولة تشير إلى وجود العاب عندهم ، بعضها يشبه العاب أرض الرافدين مثل لعبة النرد ، مكعبة الشكل . وكذلك توجد إشارات أخرى بوجود تشابه بين الهند والعراق .

إن هذه الأدوات والوثائق الأخرى تدل على أن الحضارة قد بلغت أقصى درجة من التقدم والأزدهار في جميع المجالات ، وتوافرت فيها جميع المظاهر الحضارية ، واستكملت صورتها في شتى مرافق الحياة والميادين .

التجارة والبضائع التجارية

تقدمت التجارة تقدما ملحوظا . فقد توافرت الوسائل لاستيراد وتصدير

البضائع التجارية داخل الهند وخارجها . وكانت المواد الغذائية تأتى بسهولة من المناطق الساحلية النائية ، كما كانت تستورد أنواع من المعادن من أقاصى مناطق الهند مثل : راجبوتانا وباوشستان . كانت الأصداف البحرية تستورد من جنوب الهند وأنواع الأحجار الثمينة كانت تجلب من كجرات . ولبيس لازولى (نوع من الياقوت الأزرق) من بدخشان ، ويشم (حجر ثمين)من الصين أو بورما. وكذلك أتت الأحجار الكريمة من مدراس من جبلها الشهير نيلغرى بجنوب الهند . وقد عثر فى هذه الفترة من الزمان على كثير من الأدوات الهندية التى أخذت طريقها إلى أرض الرافدين . وقد عثر فيها بصفة خاصة على الأوانى الفخارية المدورة المزخرفة وهى من صناعة الهند ، وذلك خلال الألف الثالث قبل الميلاد . وبعكس ذلك فقد عثر فى وادى نهر الهند على الأدوات العراقية مثل الأختام الأسطوانية وأدوات الزينة . وهذا يدل على وجود روابط تجارية وثيقة بين البلدين ، واتصالهما تجاريا وحضاريا .

وسائل المواصلات

لقد أصبحت المدن مراكز التجارة فى هذه الآونة . وقد أدى ذلك إلى توافر وسائل المواصلات لتشجيعها وتنشيطها فى داخل البلاد وخارجها . كانت العربات ذات العجلات والسفن العادية من أهم المواصلات فى الداخل والخارج . كانت العجلات تصنع من ثلاثة ألواح خشبية صلبة ، شبيهة بما وجد فى أرض الرافدين ، وعيلم ، وهذا النوع لم يزل يوجد فى السند . وقد صنع محور فى وسط الأخشاب لمساعدة العربة على سرعة السير . وقد عثر على نقوش ختمية طينية وبرونزية تشير إلى ثلاثة أمور : أولها : إلى وجود عربات ذات العجلتين ، وهذه العربات لم تزل توجد فى الهند بكثرة . وثانيها : عربات صغيرة ذات عجلتين يسوقها ثور ، وهى تسمى الآن — « الإكا » (Ekka) ، وتسوقها الخيول . وثالثها المركبة ذات العجلات الأربعة ، وهى شبيهة بمركبة أرض الرافدين . وكانت لها حاجبة بين العجلات

للوقاية . كان الثور حيوانا مختاراً عند هذا الشعب . وأما السفن فهى تشبه سفن حضارة يوررك فى العراق .

المبانى : طرازها ومواد بنائها ومحتوياتها

وقد شيدت المبانى فى المدن الكبرى بالآجر المحترق . ولم تستعمل الآجر الغير محروق فى موهنجودارو على الإطلاق ، إلا فى حالات خاصة ، وفى ملء بعض الفراغ فى البناء بالذات . وأما فى هارابا فقد استعمل كل من الآجر المحروق والطينى على السواء . وفى الطراز القديم من العمارات استعمل الآجر مع الأخشاب . وهذا الطراز يمكننا أن نسميه بالطراز الطينى ، ولكنه لم يستمر على مدى بعيد . ولذلك لا نجد أثره فيما بعد . كانت صناعة الطوب والآجر بسيطة للغاية . ولكنها فيما بعد قد صنعت بإضافة مادة سائلة جديدة ولكنها انتشرت لدرجة كبيرة فى عصر البوذيين ، ولم يزل له أثر فى الهند الحديثة . كانت تجلب أنواع من الأخشاب من الغابات والهملايا بالذات . ومثل هذه الأشجار لم تتوافر حينذاك إلا فى الهند كسيسو وديوداز وغيرها . وأخشابها قد اتسمت بالصلابة والقوة . ولم تستعمل الأحجار فى الشئون المعمارية ، شأنها فى ذلك شأن أرض الرافدين . ولكنها استعملت فى صناعة أبواب مجوفة . ولعل ذلك للصيانة والحفظ من الأعداء واللصوص خشية دخولهم المنازل . كانت المنازل تتضمن الحمامات والآبار . ولكن المراحيض المخصوصة لم تعرف فى هذه الآونة ، بل عرفت فيما بعد .

وفى هذا المكان الذى يقع فيه الآن معبد بوذى على ربوة قد اكتشف « السير جون مارشال » حوضا كبيراً لحضارة وادى نهر الهند . وكان هذا الحوض عبارة عن حمام كبير يتدفق عليه الناس من أقاصى أرض الهند لمعالجة الأمراض الجلدية . لأن مياهه كانت تحتوى على أملاح تشفى كثيراً من الأمراض . ومثل هذه الحمامات توجد فى معظم بلاد العالم حتى الآن ، كما توجد فى حلوان بمصر .

وكان هذا الحوض يقع فى قلعة كبيرة . وكانت المساحة المحيطة به مقدسة لدى السكان . وقد احتل هذه المكانة المقدسة على مرور السنين والأزمنة .

وبالقرب من هذا الحوض الكبير يقع مكان تودى فيه المراسيم الدينية . وعلى أطراف الحوض وبجواره بنيت ثمانى غرف صغيرة تابعة لدير ، وفوق كل غرفة تقع صومعة . وهذه الظاهرة تشير إلى أن هذه الغرف كلها مختصة بالكهان الذين كانوا يقومون بأداء مراسيم الاستحمام المقدس . وكان يتجمع جمع غفير من الناس أمام الحوض . وكان على الكهان أن يشرفوا على أداء الطقوس الدينية عن طريق الاستحمام فى هذا الحوض الكبير . ولذلك تحتم عليهم وجود إقامة مستمرة فى الغرف المجاورة للحوض لأدائها فى أوقات محددة لها .

ومن الجدير بالملاحظة أن الاستحمام كطقس من الطقوس يرجع تاريخه إلى ديانة وادى نهر السند . وهذا الطقس هو الذى اتخذ ألوانا وأنواعا فى الديانة الآرية فيما بعد . وعلى هذا الأساس نجد الهندوس حتى هذه اللحظة يعتبرون الاستحمام فى الأنهار المقدسة مثل الجنجا والجمنا طقوسا دينية مقدسة ، ينبغى أداؤها على كل فرد منهم . ومن أجل ذلك نجد الناس يتهافتون على هذين النهرين وروافدهما فى شتى أنحاء الهند الشمالية ، ويستحمون بشتى الطرق رجالا ونساء على اعتبار أنه من المراسيم الدينية المقدسة .

الملابس والحلي

كان الرجال يلبسون الشال ويغطون به جسمهم ويربطونه حول الاكتاف . وأما النساء فكن يلبسن كساء منسوجا ويربطنه بما يشبه الدبابيس . كانت الأساور من أهم مميزات الحلى الهندية فى هذه الآونة بخلاف مصر وأرض الرافدين . وكانت هذه الأساور تصنع من الفخار المصقول اللامع أو من المعادن أو الصدف . وكانت هذه الأساور تزين بضلع لولبى من ناحية طرفها . وكانت النساء يربطن الشعر بمنديل فيه شرائط ذهبية . ومثل هذه المناديل كانت معروفة فى أرض الرافدين أيضاً . وكن يلبسن أنواعا من العقود

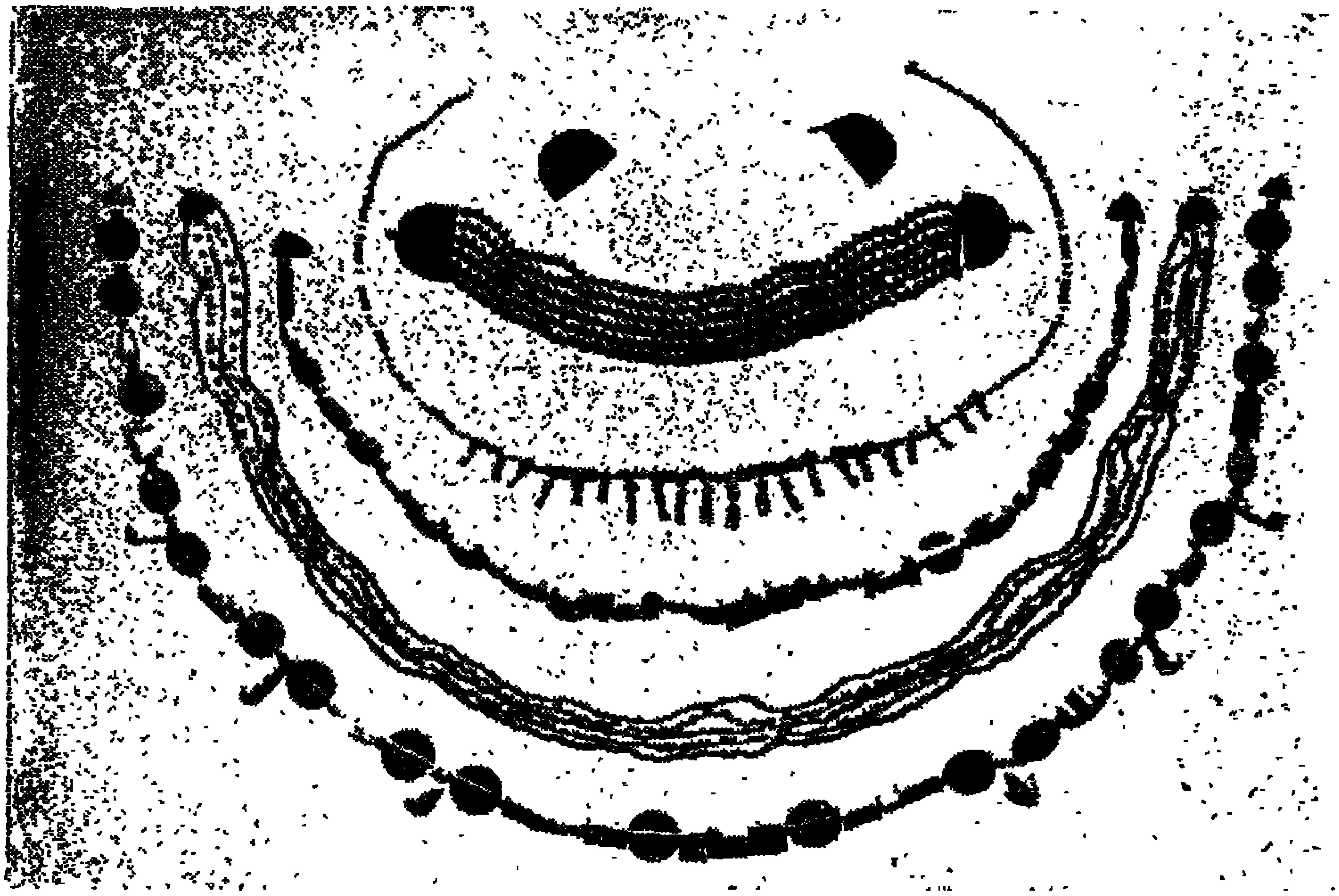

لوحة (٥)
حلى من موهنجو دارو

لوحة (٦)
حمام عظيم من حضارة موهنجودارو

والقلائد تتدلى على أعناقهن وتغطيها ، وبهذا يزداد جمالهن . وكانت الأطباق الذهبية شبه دائرة فى شكلها . وهذا النوع قد وجد أيضاً فى مصر وفى بيبلوس (فى لبنان) فى هذه الآونة . وهذه الصناعة قد وجدت فى عيلم أيضاً كما تتمثل فى كسرة من إناء خزفى عثر عليها . وبالإضافة إلى الأقراص الذهبية قد وجدت صناعة الخرز أيضاً ، وهى موجودة كذلك فى بلاد السومريين ومصر وفى « تراى » فى آسيا الصغرى .

ووجد كذلك خرز على هيئة قطعة دائرية وذلك فى هارابا فى القرون الأخيرة .

وأما الخرز المصقول اللامع فكان نادراً جداً . ولكن صناع هذه البلاد حاولوا محاكاة أرض الرافدين فى هذا المجال ، ولذلك جربوه على عجينة ، وصنعوا منه أدوات مدورة جامدة مصقولة لامعة . وهذه الأدوات كذلك وجدت فى مقابر الملوك فى « يور » فى العراق . وكذلك وجدت أسطوانة سمينة غالية لامعة تشبه العقيق ، وذلك فى مقبرة الملكة شوباد . وأما الخرزة الدقيقة المخصوصة بالهند فكانت تشبه أسطوانة صغيرة مفلولة فى جوانبها . كانت التمائم قليلة للغاية . كذلك وجدت رسوم للحيوانات مثل الكبش والخروف ، كما وجدت فى أرض الرافدين . وأيضاً وجدت تميمة واحدة مصنوعة من العظم أو العاج ، وهى نادرة جدا فى الهند ، ولعلهم صنعوها فى محاكاة لمصر أو بلاد السومريين .

وكذلك وجدت حلى مختصة بالمعابد ، وهى تشبه الزرّ أو المشط المحدب فى شكلها ومصنوعة من الحجر الصابونى ، وفيها ثقبان من الوسط .

الأدوات المنزلية

كانت العمارات تبلط وتجصص كما قلنا سابقاً . وكانت تتضمن غرفاً عديدة . ولكن محال الخلاء المخصوصة لم تكن موجودة . وكانت الحمامات موجودة . وكذلك خصصت غرفة للبئر ووضعت فيها جرة كبيرة على خشبة

تشبه الطاولة . وهذه الظاهرة لم نزل نراها فى معظم أنحاء الهند فى صورة مشابهة لها . وكذلك العربات والسفن فى تلك الآونة شبيهة بما نجده الآن فى الهند . وقد صنعوا أنواعاً من الأرائك أو السرر من الطين ، وهى لم تزل موجودة ، كما وجدت فى نفس الآونة فى أشور بالعراق وسوسا فى إيران . وإن صناعة الخزف القروية فى السند توحى الينا بأن الخزافين قد توارثوها منذ أقدم العصور ، ولم يطرأ عليها تغيير . كانت النساء فى ولع شديد بالاساور والحلى الأخرى ، ولم تعرف الدبابيس عندهن . وهذه الحلى كلها هندية أصيلة . وكذلك استعملن الكحل فى العيون . وكان هذا الكحل يوضع فى قارورات أو دوارق ويستعملن عوداً نحاسيا حين وضعه فى العين . وهذه الظاهرة هى الأخرى هندية صميمة . وكن يستعملن أمشاطاً مصنوعة بالعاج. وهى شبيهة جداً بالأمشاط الخشبية التى تصنع حتى الآن فى قرى الهند . وقد عثر على مفرك حجرى فى موهنجودارو يشير إلى أنه كان من جملة أدوات الزينة والحمام فى تلك الآونة . وبعض هذه الأدوات شبيهة جداً بما وجد فى أرض الرافدين فى حضارة كش .

الحيوانات

كانت تربى وتروض أنواع من الحيوانات والمواشى فى وادى نهر الهند . كانت الأغنام والأبقار والثيران من أهم الحيوانات التى كانت تساعد الفلاح فى رى الأرض وفى الأكل . وبالإضافة إلى ذلك كانت تربى كذلك المعيز والخرفان والفراخ والديوك والجواميس والفيلة . وهذه الحيوانات كلها كانت تعتبر منزلية ، وكذلك للتجارة . ولذلك حرصوا على تربيتها وترويضها والعيش عليها . وبالإضافة إليها لم توجد أية إشارة إلى وجود خنازير ، ولأن الخنازير لم تكن من الحيوانات المنزلية ، بل كانت تعتبر وحشية . وفى موهنجودارو بالذات نرى أيضاً الخيول والإبل ، ولكنها دخلت متأخرا . ولم تكن من الحيوانات الأصلية للهند .

لوحة (٧)
اختام وتمائم من موهنجودارو

نظام الرى

كان وادى نهر الهند يعتمد على نظام الرى فى الزراعة . شأنه فى ذلك شأن مصر وأرض الرافدين . وكانت تزرع فيه من الحبوب مثل القمح والشعير والبسلة والبلح والسمسم . وهناك إشارات بوجود الأرز أيضاً ، كما يدل على ذلك وجود بعض الموازين . ولكن هذا الأمر غير مؤكد . وبالقياس إلى مصر قد حل فيها القطن محل الكتان . وهذا يدل على أن التمطن قد عرف فى الهند مبكرا ، وقبل مصر بمئات السنين .

المعادن

قد وجدت أنواع من المعادن الهامة بكمية كبيرة . فقد عرفو استعمال وإذابة الذهب والفضة والنحاس والرصاص . وقد صاغوا منها أدوات ضرورية كثيرة . وكذلك عرفوا – كالعراقيين إستعمال القصدير . وكان النحاسون يخلطون القصدير بمقدار ٣٠٤ و ٤.٤ فى المائة من الزرنيخ ومسامير برشامية وأشياء أخرى . ولكنهم – فيما يبدو – لم يعرفوا تحويلها إلى النحاس أو سبيكة حامية .

وفى هارابا استعمل أصحاب المعادن أفراناً تشبه القدور فى شكلها ، يبلغ قطرها ما يقرب من ثلاثة أقدام وأربع بوصات وسمكها ثلاثة أقدام وثمانى بوصات . ويدخل فيها تيار هوائى جارف بقوة هائلة عن طريق أنابيب مائلة إلى أسفل . وكانت هذه الأنابيب تعمل بقوة المنافيخ .

الأسلحة

وقد عرفوا صناعة أسلحة هامة ، شأنهم فى ذلك شأن العراقيين والمصريين . وهناك تشابه كامل بين أسلحة هذه المناطق الحضارية الثلاثة ، وإن كانت أرض الرافدين فاقت الهند بمراحل فى هذا المجال . والأسلحة التى نجد فيها أوجه التشابه مع أرض الرافدين هى : أزميل وفاس والمنشار الصغير وهو يشبه بما وجد فى مصر فى هذه الآونة ، وخنجر مسطح ، ورمح وحربة ومطرة وموسى ، وضارة شكلها كالبرقوق ، ومهماز ومنجل .

الدين

إن ديانة وادى نهر الهند تعطى صورة واضحة لملامح الهند وتصور بدقة جذور عقائدها . إن كثيراً من الأدوات الحضارية ، وإن كانت فى بعض الأحيان غير واضحة تماماً ، تفسر الحضارة الهندية العريقة وديانتها تفسيراً جلياً . وأن الصور الطينية التى تشرح هذه الظواهر ليست على نمط واحد فى جميع المناطق ، بل تختلف فى صورها وأشكالها . ومعظم الأدوات التى تعبر عن العقائد والديانات تضم الآلهة الأنثى أكثر بكثير من آلهة الذكور . ولذلك نجد الإلهات مزينة بالحلى الجميلة أو فى بعض الأحيان تحمل الأطفال فى بطنها ، أو ترضع الأطفال .وهناك تماثيل للآلهة تعبر عن تقديم الناس النذور إليها أو الطلبات أو ما شابه ذلك من الحاجات.وكذلك نجد من بين الآلهة عندهم كثيراً من الحيوانات ، كما تصورها بعض التماثيل الحيوانية . وقد نال الثور مكانا بارزاً بين تلك الآلهة . شأنه فى ذلك شأن أرض الرافدين وسوريا ومصر . لأن مثل هذه الظاهرة وجدت فى تلك المناطق أيضاً . وكان رأس هذا الثور متحركاً دائماً ، وكذلك وجدت دمى وعرائس صغيرة وسرائر وأرائك وأرغفة وزهريات إلى جانب هذه الآلهة . وكانت أيضاً من بين تلك الآلهة والتماثيل أصنام ، وصخر طويل عريض ، وأجراس متحركة مستمرة .

وظاهرة غريبة نلمسها فى تلك الآونة هى أن فروج الإنسان لكل من الذكر والأنثى كانت ترمز إلى خصوبة الأرض ، وبعث الحياة ، ولذلك نالت القديس والعبادة .

وإن الأدوات الحضارية مثل الأختام واللوحات الطينية والنقوش النحاسية والفانيس المصوغ (نوع من المعدن) تعتبر من أهم مظاهر الحضارة الهندية فى هذه الآونة . وقد وجدت ختمة فى موهنجودارو تحمل صورة إله ذى قرن ، وثلاثة وجوه . وهو جالس واضعاً رجلا له على الأخرى ، وكأنه فى عبادة أو استغراق يرافقه جميع وحوش الغابات . وهناك لوحات طينية

عديدة تشير إلى وجود الإله سيفا (Siva) الإله العظيم لدى سكان هذه المنطقة ، وله ثلاثة وجوه ، ويوصف بأنه إله وحوش الغابات وأمير النساك والرهبان ، ولذلك عرض فى صورة قائد عسكرى كبير . وكذلك تشير لوحات عديدة إلى آلهة كثيرين . وهناك لوحة تصف تدفق النهرين من رحم الآلهة . وفى لوحة أخرى رسمت آلهة الأشجار بوضوح . وهذه الآلهة كلها رسمها الهنود بكل براعة ودون غموض . وهى تختلف بطبيعتها وصفاتها وملامحها عن آلهة أرض الرافدين كل الاختلاف وكذلك عن آلهة مصر . وكذلك نرى من بين آلهتهم بطلين عظيمين ، واحد منهما يصارع الأسود بكل شجاعة ، والآخر نصف جسمه يشبه إنسانا والنصف الآخر يشبه حيوانا متوحشا بشعاً — يمسك بيديه ثوراً وأسداً . وهو يشبه انكيدو البطل السومرى فى أرض الرافدين من بعض الوجوه كما تصفه أسطورة الطوفان السومرية . وهناك رموز دينية وسحرية كثيرة مثل الصليب والتقاء الكتفين نقشت على الطوابع والأدوات المعدنية شأنها فى ذلك شأن رموز بابل وعيلم .

وقد عبدوا كذلك — إلى جانب الإلاهات الكثيرات — الاها رسم بقرن وثلاثة وجوه . وهناك صورة تصوره جالساً على طاولة على الطريقة اليوجية بكل كبرياء وافتخار ، وكعبا رجليه متلاصقان ، وكأنه فى تأمل أو فى تفكير واستغراق . وفى بعض الأختام وجد هذا الإله بصحبة الحيوانات كالغزال والظبى والكركدن والفيل والأسد والجاموس وحيوان يشبه الجاموس أو الثور وبين قرنيه ما يشبه المروحة . وهذا الإله هو الذى سمى لدى الآريين بسيفا . وهو إله عظيم جليل القدر ، ملك الغابات والوحوش ، له عدة وجوه . ومما لاشك فيه أنه من أقدم الآلهة الهندية ، وقد وجد فى وادى نهر الهند منذ القدم . وهو يملك سلطات واسعة فى الكون . فإنه يشبه براهما — إله الخلق — فى الشكل ؛ وكذلك الإله فشنو (vishnu) — الحارس المحافظ — . وقد اجتمعت فيه صفات كثير من الآلهة ، شأنه فى ذلك شأن الإله رع — إله الشمس — فى مصر . ومع أنه كان يتخلق

بصفات هدامة مثل الهدم والتخريب ، فقد تجلى أيضاً بصفات بناءة مثل منح الحياة وجلب الخصوبة فى الكون سواء أكان بين بنى آدم أو الحيوانات والطيور والنبات . ولذلك كان يرمز له بفروج الذكر والأنثى ، لأنهما علامة الحياة والخصوبة وفق عقيدتهم . وقد نال هذا الرمز قبولا حسناً ، وتلقاه الناس على مدى العصور بالرضا وكذلك أدخله الآريون فى عقائدهم . فبعد تعديل بسيط قد دخل هذا الإله إلى الديانة الآرية واحتل فيها مكاناً بارزاً . ومن ثم شيدت له المعابد ، ووضعت فيها تماثيله مع رمزه المذكور . ولم تزل هذه الظاهرة معروفة وموجودة فى معابد الهندوس فى شتى أنحاء أرض الهند . لقد وجدت أحجار كثيرة تشبه الكوز والختمة فى شكلها فى كل من موهنجودارو وهارابا ، تشير إلى أنها (أى آلهة الفروج) قد قدسها هؤلاء ، اعتقاداً منهم بأنها رمز الحياة والخصوبة فى الكائنات .

وكانت العبادة تؤدى لكل من الإله سيفا ورمزه الفروج جنباً إلى جنب . وبهذا تكون الإلهة الثلاثة أى : الآلهة الأم ، الإله سيفا ، وآلهة الفروج من أهم آلهة سكان وادى نهر الهند . وهذه الآلهة وطقوسها قد تركت آثاراً بعيدة المدى فى الديانات الهندية كلها عبر القرون ، وتمثلت بصورة واضحة فى كثير من التقاليد الهندوكية حتى هذه الآونة ، الأمر الذى يدل على رسوخ قدمها وخلودها وحياتها الطويلة فى أرض الهند .

مراسيم الدفن

وقد وجدت آثار عديدة فى مقابر هارابا تدل على مراسيم الدفن عند الهنود القدامى . وكانت هذه المراسيم غريبة وبدائية تماما . إذ كانوا يحفرون حفرة طويلة عريضة ، ويدفنون فيها الجثة مع أدواتها اللازمة فى الحياة مثل الأوانى والأدوات الشخصية وما يتعلق بالزينة والحمام . ولم يفسر لنا أحد حتى الآن سبب هذه الظاهرة . ومن الجائز جداً أنهم قد آمنوا بحياة أخرى بعد الموت على طريقة السومريين . وظنوا أن هذه الأدوات اللازمة سوف تساعد

الموتى بعد مواراتها التراب وحينما تدخل فى حياة جديدة عند آلهة الأرض السفلى وذلك لأن الهنود فى هذه الآونة قد تجاوبوا مع كثير من افكار السومريين الدينية كما سنشير إلى بعضها قريبا .

وكانت الجثة توضع فى صندوق خشبي ملفوفة بالقصب . وفى المناطق الساحلية ، وبالقرب من « تارو » (Taro) وجدت غرف حجرية تبلغ مساحتها عشرة اقدام طولا ؛ وثلاثة اقدام عرضا ؛ وقدمين عمقا . وتشير الدلائل إلى أنها استخدمت مقابر فى هارابا فى بعض الأزمنة القديمة . ومن الناحية الأخرى فى مناطق عديدة تمت فيها عملية الاحفار وجدت جرة كبيرة تشير إلى وضع الجثث فيها فرادى أو جماعية . وكذلك عثر على جماجم بشكل انفرادى أو جماعى فى بعض البيوت أو فى الممرات الضيقة والأزقة . ولكن دفن الأموات فى الأزقة يكاد يكون نادرا ؛ وكذلك أمره مشكوك فيه فى بعض الأحيان ، لأنه ليس هناك دليل واضح يشير إلى وجود أية تقاليد بدائية لدفن الأموات فى الممرات الضيقة . ولعل سببه — كما يبدو لنا — أن بعض الموتى قد دفن فيها من نتيجة الحوادث أو الأمراض الوبائية الخطيرة .

إن الهند تمتاز بشخصيتها الأصيلة فى هذه النواحى كلها : ولها اصالتها وذاتيتها ، ولا نجد أنها تجاوبت فى تقاليدها مع أرض الرافدين ومصر . وكذلك جميع النواحى الحضارية تتميز بذاتيتها واصالتها .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحضارة الأولى قد تركت آثارا بعيدة المدى فى الحضارات الهندية كلها تلك التى استمرت عبر القرون وحتى هذه اللحظة . وقد ترسخت جذورها فى طبيعة الهند إلى أقصى الحدود . ولم تستطع أية حضارة جاءت بعدها من القضاء عليها . وهذه الظواهر واضحة المعالم فى جميع المرافق الحضارية مثل التقاليد والعبادات والعمارات وما إلى ذلك.

إن مراسيم الدفن وتقاليده تشير بوضوح إلى أن احراق الجثث التى

اتخذتها الهند أساسا فيما بعد لم يكن لها وجود فى هذه الآونة ، بل سارت على تقاليد حضارات أرض الرافدين ومصر .

دور حضارة وادى نهر الهند فى تكييف التقاليد الهندية وديانتها عبر القرون

إن حضارة وادى نهر الهند هى التى أصبحت أساسا قويا متينا وعاملا هاما لتكييف الحياة الهندية على مدى القرون من ناحية التقاليد والحضارة . كانت هذه الحضارة الأصيلة تنمو وتزدهر حتى تجلت بأبدع مظاهرها فى الحضارة الهندية الآرية ، وما تلاها من الحضارات فيما بعد ، وانتقلت روحها ومميزاتها إلى طبيعة الهنود على اختلاف العصور والأزمنة والاقطار والمناطق واللغات والألوان .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحضارة تختلف وتتغاير عن الحضارتين العظيمتين المعاصرتين لها وهى السومرية والمصرية فى كل الأنواع والأشكال إلا أننا نلحظ ملامح متشابهة بين هذه الحضارات الثلاث ، وذلك من ناحية الأهداف الأصلية والاختراعات والاكتشافات والإبداعات .

وعلى الرغم من أن الآريين الذين استولوا على مقاليد الحكم فى الهند منذ عام ١٥٠٠ ق.م. قد جلبوا معهم آلهتهم وديانتهم ، وحاربوا السكان الأصليين ، وحاولوا التخلص من جميع آثارهم الدينية والعقائديه بشتى الوسائل إلا أنهم تشربوا من حضارة وادى نهر الهند واقتبسوا معظم مزاياها الدينية ، كما أدخلوا كثيرا من آلهتهم فى صميم عقائدهم الدينية . وكان ذلك أمرا طبيعيا ، لأن كل حضارة أجنبية جديدة إذا فرضت سيطرتها على حضارة أصيلة أقوى منها — ولو كانت منهارة ومترنحة وصائرة إلى الزوال — فإنها تضطر إلى التجاوب معها وأدخال عناصرها الفعالة فى صميم حضارتها ، وبهذا تظهر حضارة ممزوجة ، وإن كانت معظم عناصرها جديدة ودخيلة أجنبية .

ومن هنا تركت ديانة وادى نهر الهند وحضارته آثارا بعيدة المدى فى

الديانة الآرية وحضارتها . فلقد اقتبس الآريون معظم عقائد أهل نهر الهند وصبغوها بالصبغة الآرية بحيث لا تنمحى آثارها ولا تقتلع جذووها مع أنها امتزجت امتزاجا قويا لا يمكن فكها الآن . ومن هنا يعتقد الباحثون أن حضارة وادى نهر الهند وديانته وتقاليده هى الأصل والأساس للهند على مر القرون وحتى هذه اللحظة . وعلى هذه الدعامة قامت جميع الحضارات الهندية ، كما أن ملامحها واضحة المعالم فى شعوب الهند بأكملها وفى الأقاليم المختلفة والولايات .

ومن الجدير بالذكر أن كتاب الڤيدا — وهو أول سجل آرى منذ نزوحهم إلى الهند — لا يذكر هذه الحضارة العريقة . ولا نعرف سببه على وجه التأكيد . ولكن من المحتمل أن الآريين — بسبب حداثة اقامتهم فى الهند اثناء تأليف هذا الكتاب — اكتفوا بتسجيل أحاسيسهم وعواطفهم وانطباعاتهم وتقاليدهم وانتصاراتهم وفرحتهم وبهجتهم .

إن الآله سيڤا الذى دخل إلى الحضارة الأرية من وادى نهر الهند قد وجد له لوحات وتماثيل بكثرة فى موداهنجودارو وهاربا . ومن هنا يعتقد أنه إله هندى قديم أصيل . وكانت سيطرته ونفوذه قويين فى الشعب الهندى . ولذلك لم يستطع الآريون التخلى عنه وإبعاده من الهند واضطروا إلى قبوله وإدخاله فى عقيدتهم بعد تعديلات طفيفة فى وظيفته وسيطرته . فقد كان سيڤا الإله الأعظم عند سكان وادى نهر الهند . ولكنه التقى لدى الآريين مع إله آرى وهو « براجاباباتى » (prajapati) ذلك الذى كان من الدرجة الثانية وأصبح فى صحبته دائما وأبدا . وبهذا قللوا من أهمية سيڤا ، وسلبوا منه سلطاته الواسعة التى كان يتمتع بها فى حضارة وادى نهر الهند .

وكان من أهم مظاهر الحياة الدينية لدى سكان وادى نهر الهند أنهم اتخذوا آلهة لهم ، وكذلك عبدوا الهات كثيرات ولكن معظم هذه المعالم قد اندثرت تقريبا فى الڤيدا — أول كتاب آرى — وكذلك تقديس الفروج لم يذكره الڤيدا بتاتا . ولكن هذه الآلهة والتقاليد قد أخذت طريقها إلى

قلوب الهندوس بعد مرور الزمن . ولعل شدة الصراع والعراك بين الآريين — فى بداية نزوحهم وزحفهم إلى الهند — والسكان الأصليين جعلت الآريين يمتنعون عن قبول أى أثر للهند القديمة . ولكنهم اضطروا فيما بعد إلى التجاوب كما قلنا ، ولذلك نجدهم قد اتخذوا الأشجار والأشياء الصغيرة التافهة والحيوانات آلهة لهم . كما أن تقديس فروج الإنسان — كرمز لخصوبة الأراضى الزراعية ومظهر الحياة الإنسانية — أصبح من أهم معالم الهند حتى هذه اللحظة .

الهند تتجاوب مع العراق فى بعض النواحى

لقد أوردنا تفاصيل تجارب الهند والعراق فى هذه الآونة من التاريخ . وبما أن العراق كانت أرضا أصلية لرسالات السماء فقد كان مستحيلا أن لا تترك بعض آثارها الوثنية فى حضارة الهند فى وادى نهر الهند . ومن هنا نجد بعض الملامح متشابهة بينهما .

إن معبد وادى نهر الهند المذكور والدلائل الأخرى تشير بوضوح إلى أن النظام فى وادى نهر الهند لم يكن — على حد زعم بعض الباحثين — ديمقراطيا يتسم بالأمن والسلام ، كما لم يكن حولها أسوار أو بروج للمعابد ، أو معسكرات للجيش ، أو لم يكن هناك تخطيط اقتصادى أو دينى . ولكن هذا الكلام لا يبنى على أدلة . لأن سكان وادى نهر الهند قد اتخذوا إجراءات دفاعية قوية ضد الغزو الأجنبى لبلادهم . ولذلك شيدوا أسوارا حول المدن لمنع مثل هذه الغارات وويلاتها . ولكنهم مع ذلك لم يصلوا فى قوة الدفاع والشئون العسكرية إلى مستوى السومريين ، ثم الأكاديين ، بل كانت إجراءاتهم فى هذا المجال تشبه إجراءات المصريين ولا تتجاوزها .

كان سكان نهر الهند يعتقدون أن الدولة ملك الله سبحانه فالملك يحكمها بالنيابة عن الله كما كان الشأن فى أرض الرافدين . وقد عثر « السير مورتيمر ويلر (Sir Mortimer Wheeler) على شواهد وأدلة على وجود

لوحة (٨)

الاله سيفا من حضارة موهنجو دارو

نظام القلاع والحصون فى أنحاء بلادهم بصورة مشابهة للسومريين وإن لم تكن على مستواهم . وكذلك اتخذوا إجراءات حاسمة للأمن والدفاع . وكانت الدولة تسير على نظام دكتاتورى ، لأن الملوك حكموا البلاد الموحدة فى تلك المنطقة (أى فى المملكة الشمالية الجنوبية الممتدة من موهنجودارو إلى هارابا) بكل حزم وقوة باعتبار أنهم خلفاء الله فى الأرض . فالله هو الذى منحهم هذه السلطات الواسعة والسيطرة التامة على الشعب لينفذوا أوامر الله على الشعب ويحكموا بالنيابة عنه وعلى ذلك يدل وجود توحيد البلاد والتنظيم الدقيق المربوط فى المدن ، والقوانين المدنية والشئون الدينية ومراسيمها وطقوسهم ، ونظام المعابد والحصون ، وتنفيذ كل القوانين على أنها صادرة من الله سبحانه ، وبهذا لا نجد خطا فاصلا بين أرض الرافدين ووادى نهر الهند .

ومن الجدير بالملاحظة أنه إذا كانت هذه الملاحظات والنتائج المرتبة عليها صحيحة — ونحن لا نعارضه فى هذا الصدد — فالأمر يدل بوضوح على أن الهند قد التقت التقاء خصبا مع أرض الرافدين فى عقيدتها ، بأن الملك لله سبحانه . وأن الملوك خلفاء الله فى الأرض ونوابه ، ومهمتهم ما هى إلا تنفيذ أوامر الله سبحانه بين عباده . وكذلك تجاوبت الهند إلى أقصى الحدود مع أرض الرافدين فى شئون الدولة وتنظيمها وإدارتها .

ومن المعروف أن عقيدة خليفة الله فى الأرض نبعت من تراب أرض الرافدين بوصفها مهبط آدم ومسرح طوفان نوح ، ومهد رسالات سماوية . ومن هنا تكون الهند تابعة للعراق ، ومتجاوبة معها إلى أقصى الحدود فى هذه العقيدة ، وإن تجلت فى كل من الهند والعراق بصورة وثنية لأسباب عديدة كما ذكرناها فى كتابنا عن « الاعلام والأمم فى القرآن الكريم على ضوء البحوث الأثرية الحديثة لمنطقة الشرق الأوسط) » .

وكذلك نجد تشابها بين آلهة الهند وأرض الرافدين من بعض الوجوه . لأن سكان وادى نهر الهند قد عبدوا آلهة كانت تعتبر أم الآلهة جميعا ،

وكذلك احتلت الإلهة الأم فى أرض الرافدين مكانة مشابهة لها فى الهند . وقد شيد الهنود لهذه الآلهة معابد كثيرة فى أنحاء بلادهم ، واعتبروها على قمة الآلهة جميعا . قد وجد تمثال فخارى أو صنم لهذه الإلهة فى كل بيت من البيوت . وقد اعتقد الناس أنها هى التى تمنح الحياة والخصوبة ، ثم أضفوا عليها صفات الإنسان ومشاعره وأحاسيسه . وهذه الألهة هى التى سميت فى الهندوكية فيما بعد بالسكتى (Sakti) .

امتداد الحضارة فى وادى نهر الهند وحياتها

هل كانت هذه الحضارة الهندية العظيمة شاملة جميع المناطق الهندية ؟ والإجابة على ذلك : أن لا . لأن هذه الحضارة العريقة كانت أراضيها ومساحتها ومناطقها محدودة لم تتجاوز — وفق الحدود الآن — منطقة باكستان الغربية كلها وولاية بنجاب شاملة . وقد عثر على بعض آثار فى الآونة الأخيرة تشير إلى أنها امتدت إلى وادى نهر الستلج فى جيسالمير (Jaisalmer) من أعمال راجستان ، وهى من أهم الولايات الهندية الآن . وكذلك اتسع نطاقها إلى أبعد من ذلك جنوبا حتى « لوتال » (Lothal) الواقعة على مقربة من أحمد آباد بالقرب من بومباى . وبهذا تكون هذه الحضارة قد انتشرت شرقا وجنوبا وشملت ثلث شبه القارة الهندية فقط .

وإذا كانت هذه سعة حضارة وادى نهر الهند ، فكيف كانت المناطق الأخرى ، وهى تشكل ثلثى مساحة الهند ؟ والإجابة على ذلك أن معظم تلك الأراضى كانت خالية من السكان ، وبعضها يقطنها البدويون والهمجيون الذين عاشوا فى الغابات والأدغال والجبال ، ومارسوا الحياة البدائية الأولى تحددت ألوانهم وفق جغرافية المناطق . وفى المناطق الواقعة بعيدة عن خط الاستواء كانت ألوانهم بيضاء سمراء ، وفى الجنوب المتوغل سوداء حالكة ومع هذا فإن ملامحهم كانت متشابهة إلى درجة كبيرة ، ومختلفة عن الأفريقيين رغم سمر وسود بشرتهم .

لقد وجدنا سكان نهر الهند من قبل قد استوردوا احجارا ثمينة من جبال نيلغرى من مدراس بجنوب الهند . وهذا يدل على وصول سكان الهند إلى تلك المناطق النائية فى الجنوب . ولكن تاريخ هؤلاء السكان مجهول للغاية ، الأمر الذى يدل على أنهم مارسوا حياة بدوية أولية فى القرى والجبال والأدغال .

وهناك آثار لهؤلاء السكان الاصليين حتى هذه الآونة . لأن حياتهم لم تزل بدائية ومتنقلة ، ولم يزل يعيشون فى الغابات والادغال والجبال ، يتكلون على موارد الطبيعة من ثمار الغابات والحيوانات والطيور المصطادة ، ويأكلونها بعد احراقها بالنار ، دون طبخها ولو على أبسط طريقة قروية . وليس لهم دين معين ولا تقاليد معروفة ، بل هم على كل حال وثنيون ، يعبدون مظاهر الطبيعة كلها ، ويسكنون فى الخيام المتنقلة ، ويمارسون احيانا بعض اعمال بدائية مثل صناعة الحصير والسلال أو بيع الابر والقلائد والعقاقير والاعشاب وما إلى ذلك . وهؤلاء كثيرون فى مناطق الجبال والغابات بجنوب الهند . ولم نزل نشاهدهم وهم يمرون بمدننا وقرانا لبيع بعض سلعهم وادواتهم المذكورة أو طيورهم المصطادة .

ويسمى هؤلاء الآن بأسماء عديدة فى مناطق عديدة وفق لغاتهم ولهجاتهم مثل : الموندرا (Mundras) وموشار (Mushar) وشامر (Chamars) وغوند (Chonds) وسنثال (Santhal) وكاسى (Khassi) وباسيس (pases) وكثرى (Kathari) وشاندال (Chandals) وناجا (Naga) .

وهناك سؤال هام : لماذا لم يتمكن علماء الأحفار من تتبع تاريخ الهند قبل قيام حضارة وادى نهر الهند ؟ والاجابة على ذلك كثيرة ، منها أنه لم تتوافر الادلة الاثرية لهذا الجانب من تاريخ الهند . وكذلك لم يتمكن علماء الأحفار حتى الآن من فك كثير من الغاز لغة وادى نهر الهند بسبب صعوبة تناولها ، وتعقيدها وغموضها ، فى حين استطاعوا بعد ارهاق وتعب فى فك الغاز اللغات الفرعونية والمسمارية العراقية وتتبعوا تاريخ هذه الاقطار إلى اقصى الحدود .

ومن هنا استصعب فهم المراحل البدائية الأولى لهذه الحضارة ، مع أنها قد مرت بمراحل بدائية عديدة ، شأنها فى ذلك شأن حضارات الشرق الأوسط . وفيما يتعلق بالشرق الأوسط فقد أصبح من الميسور تتبع هذه الأطوار ، ولذلك استطاع علماء الأحفار تنسيقها وترتيبها بكل دقة .

متاعب هذه الحضارة وأسباب اضمحلالها

كانت الفيضانات التى تتناوب عدة مرات فى كل سنة ، وفى الصيف بالذات حينما تذوب الثلوج بالهملايا قد أثرت تأثيرا قويا فى شعوب هذه المناطق ، وزادت من مخاوفهم فيما يتعلق بالمستقبل . وكلما طغى الفيضان ، دمر المبانى وشل الحياة المدنية فى البلاد ، فكانوا يضطرون من جراء ذلك إلى اعادة بناء ما دمرته الفيضانات . وكذلك يعيدون بناء العمارات . ولقد كانت المناطق الشاسعة على ضفاف نهر الهند وروافده سهلية جرداء ، لم تحطها الجبال ، ولم تتوسطها الغابات الكثيفة ، ولذلك تتعرض للفيضانات بشدة ، وتنهار معالمها الحضارية بسرعة من عنف الفيضانات وطغيانها .

وبالاضافة إلى ذلك فكلما اتسم الملوك بالقوة والمقدرة والسيطرة الكاملة كانت تسير الأمور فى مجراها الطبيعى ، وإذا طرأ تغيير أو تساهل أو استرخى عنان الحكم سادت الفوضى والاضطراب ، واقتربت البلاد من الهاوية واندثرت معالمها الحضارية .

وناهيك بالهجمات والغارات التى كان يشنها سكان جبال بلوشستان بين حين وآخر فيخربون البلاد ويدمرون المبانى والمعالم الحضارية فيها .

لقد دبت عوامل الاضمحلال فى حضارة وادى نهر الهند منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م. بعد أن ازدهرت ازدهارا كبيرا ، وأصبحت مماثلة لحضارتى أرض الرافدين وعيلم من ناحية ، ومصر الفرعونية من ناحية أخرى ، وإن لم نعثر على دليل واضح حتى الآن يثبت التقاء الهند مع مصر فى هذه الآونة . ومع ذلك فقد استمرت هذه الحضارة مترنحة تميل إلى

السقوط والاضمحلال دون تجديد أو تنشيط أو التقاط انفاس . لقد استمرت كذلك حتى سنة ١٥٠٠ ق.م.

ولعل سببه فيما نرى أن حضارة وادى نهر الهند التى أقامها السكان الجبليون القاطنون من جبال بلوشستان حتى عيلم بالقرب من ارض الرافدين قد دبت فيها عوامل الانهيار والضعف والسقوط . وفى هذه الآونة ازداد سلطان السكان الاصليين للهند وهم الدراوديون الذين اتسموا باللون الاسمر . وقد حاول هؤلاء مواصلة انقاذ الحضارة المتقدمة فى هذه البلاد دون بعث روح جديدة فيها أو دفعها إلى الأمام بخلاف سكان ارض الرافدين الذين أوصلوا حضارتها إلى القمة فى ظل الاكاديين والاموريين ، ثم الاشوريين منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م حتى سنة ١٥٠٠ ق.م وعلى هذا سار الأمر حتى سنة ١٠٠٠ ق.م .

لقد قلنا آنفا إن حضارة وادى السند بدأت تفقد سماتها وحيويتها منذ سنة ٢٥٠٠ ق.م وهذا يدل على ظهور صراع بين أصحاب هذه الحضارة وعناصر أخرى ، تلك التى استطاعت القضاء عليها فى حدود سنة ٢٠٠٠ ق.م تقريبا . وهذه هى الأمة الدراودية .

من هم الدراوديون ؟

وهذا هو الشعب الهندى الاصلى الذى كان يقطن المناطق الهندية الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، ويتسم باللون الاسمر والأسود على حسب المناطق التى سكنها . لأن شمال الهند كان بعيدا عن خط الأستواء ، ولذلك اتسم سكانه باللون الاسمر المائل إلى الأبيض والاشقر ، على حين كان سكان جنوب الهند بسبب قربهم من خط الاستواء قد أسود لونهم ، وإن لم يكن غارقا فى السواد. ولم نعثر بعد على آثار حضارية لهذا الشعب الاصلى منذ ظهور الانسان على أرضها حتى عام ٢٠٠٠ ق.م ومنذ عام ٢٠٠٠ ق.م تقريبا ، فإننا عثرنا على مخلفاتهم الحضارية فى التماثيل والأدوات الحضارية الأخرى المحفورة . لأن

الشعب الذى تغلب على مقاليد الحكم فى هذه الآونة كان أسود اللون ، مما يدل على انقراض الجنس الأبيض الذى لم نتعرف على أصله على وجه التأكيد ، وإن كان من المرجح عند كثير من المؤرخين – كما قلنا – إنه كان ينتمى إلى المناطق الجبلية لبلوشستان وأفغانستان . ولذلك كان هؤلاء مشابهين للسومريين إلى حد بعيد فى ملامحهم العامة ، لأنهم جميعا ينتمون إلى نفس المناطق الجبلية .

وهذه الأمة الهندية الأصلية السوداء اللون قد سميت بالدراودية . وهى التى استولت على مقاليد بلاد السند وبنجاب ، وأنشأت فيهما حضارتها العريقة ، وظلت فيها على ذلك حتى نزوح الآريين واستيطانهم تلك الأرض واستيلائهم عليها رويداً رويداً منذ فترة ١٨٠٠ ق.م حتى سنة ١٥٠٠ ق.م .

ولم تظهر الأمة الدراودية على مسرح السياسة فى وادى نهر الهند فى عام ٢٠٠٠ ق.م فجأة وبدون سوابق . بل بدأت محاولاتها للاستيلاء على الحكم فيها منذ ظهور حضارة وادى نهر الهند ، وذلك حينما عاشت فى كنفها كرعايا لها . شأنها فى ذلك شأن كل أمة مغلوبة على أمرها ، حينما تستولى عليها أمة قوية أخرى .

ويعتقد بعض الباحثين(١) الافرنج أن الدراوديين قد جاءوا من الشمال الغربى بين سنة ٤٠٠٠ وسنة ٣٠٠٠ ق.م . وعلى حد قولهم إن هذه المجموعة المجهولة الاسم جاءت من خليط من الشعوب التى تعيش فى مناطق تقع

---

١ – اعنى بالضبط « مانوراما موداك » مؤلف كتاب « الهند : شعبها وارضها » ، ترجمة العميد محمد عبد الفتاح ابراهيم الى العربية (س ص ٤٢ – ٥٠) . ومن الجدير بالذكر ان هذا المؤلف ارتكب اخطاء فاحشة فى تحديد اصل الشعوب الهندية ونسلها . وجل معلوماته فى هذا الصدد عامية ، مما تناقلته السنة الناس ، فهو بدوره نقلها بدون تحقيق . وفى الحقيقة فان كتابه هذا يعد رحلة ادبية اسطورية ممتعة ، ولكنه لا علاقة له بالعلم والتحقيق .

شمال وجنوب البحر المتوسط . ومن ثم يمكن أن نقول عنهم : سكان البحر المتوسط ، ويكونون فرعاً من الجنس الأبيض الذى كان يعيش فى شمال هذا البحر ، والذى امتزج بزنوج أفريقية » .

وهذا كلام بعيد عن الحقائق التاريخية ، لأن سكان البحر المتوسط لم يزحفوا اطلاقاً على الهند طوال الحضارة الهندية فى موهنجودارو وهارابا . وكذلك الأفريقيون السود لم يكن لهم شأن يذكر فى التاريخ فى هذه الفترة التى تكونت فيها أولى الحضارات الإنسانية . بل الدراوديون كانوا من سكان الهند الأصليين ، كما تشير إلى ذلك ملامحهم وسود بشرتهم ، وطبيعتهم وتقاليدهم كلها .

ولكن هذه الامة الأصيلة التى واصلت جهود أصحاب حضارة وادى نهر الهند قرونا طويلة دبت إليها عوامل الضعف والاضمحلال ، ولذلك لم تستطع فى الآونة الأخيرة من حياتها أن تصمد فى وجه هجمات القبائل الجبلية البربرية التى تدفقت مرة أخرى من جبال بلوشستان وأفغانستان مارة بثغور هندوكش وتوغلت فى البلاد ، وشنت هجماتها الوحشية على معالم الحضارة فى البلاد وإحالتها إلى خراب ودمار . وهؤلاء هم الذين فتحوا الطريق فيما بعد لزحف الآريين على الهند من نفس الطريق واستيلائهم على الهند .

وقد اتخذ الدراوديون بدورهم الاله سيفا إلهاً لهم ، وكذلك عبدوا معظم آلهة نهر الهند . وبالإضافة إلى تلك الآلهة نجد لهم آلهة خاصة لم نجد لها أثراً فى وادى نهر الهند مثلا الإلهة كالى . وهى سوداء اللون ، قبيحة المنظر — كما تصفها الأساطير — وشعرها مخيف طويل ، مشعث ، وذات أربعة أيد فى واحد منها تحمل السيف ، وفى الأخرى تحمل رأس العفاريت المفصولة . وبيدها الثالثة والرابعة تشجع عبادها الذين يعبدونها . وهى تلبس حلقتين فى أذنيها ، وتعلق فى عنقها قلادة من الجماجم ، ولسانها معلق وعيونها

حمراء ، ووجهها وقلبها مثل كرة من النار . وحينما تقوم تضع رجلها على قدم الإله سيفا ورجلها الأخرى على عنقه .

وهذه الظاهرة تشير إلى سيطرة الإلهة كالى على الإله سيفا ، بسبب سيطرة الدراوديين على تلك الحضارة مع أن سيفا لم يندثر على الإطلاق ، بل عرض فى المكانة الثانية ، فى حين كان يحتل المكانة الأولى من قبل .

لقد مارس الدراوديون نفس الحياة الحضارية فى جميع مرافق الحياة ، كما أن مراسيم الدفن لم تختلف عندهم .

نهاية الحضارة الدراويدية

إن الخراب والدمار اللذين أحلهما الجبليون الهمجيون بالحضارة الدراودية فى نهر الهند يظهر بكل وضوح فى بعض مخلفاتها التى تركتها فى هذه الآونة . فلقد وجدت فى بعض المقابر مخلفات من حضارتها تتضمن أنواعاً من الأدوات الفخارية غير مألوفة فى هذه المنطقة بتاتاً ، الأمر الذى يدل على أنهم دخلوا البلاد بالقوة وبالبطش الشديد فى هذه الآونة من التاريخ . وكذلك طريقة دفن الجثث تختلف عما ألفته الهند . لأن هؤلاء الزاحفين وضعوا الجثث فى القبور بصورة ممددة متسعة أو منثنية .

وبالإضافة إلى ذلك فإننا نعثر فى « شانهو دارو » فى ولاية السند على علامات غامضة فى بعض النقوش الختمية لحضارة بربرية حلت محل الحضارة المتقدمة فيها . وبالمقارنة من جميع هذه الأدوات المختلفة المتغايرة فى الأشكال والألوان والأنماط نخرج بنتائج هامة وهى أن صناع الأوانى والأدوات الفخارية قد واجهوا ضغوطاً شديدة من قبل الحكام الجدد ، واضطروا إلى صناعة أدوات جديدة على أنماط يريدونها .

وقد اتسمت الأدوات الفخارية لهؤلاء الدخلاء المستولين على الحضارة الهندية بخصائص جديدة . لقد عثر لهؤلاء على أختام بصورة الزر وفيها ثقب شكله مثل الفاس . وهذا النمط يشير إلى أن هؤلاء القوم زحفوا على الهند من

شمال غرب الهند . وهناك علامات تشير إلى أنهم جاءوا من إيران ، لأن الإيرانيين هم الذين أدخلوا نمط الفاس على أختامهم إلى الهند . وكذلك جاءت أفواج منها من مكران وبلوشستان .

ومن الجدير بالذكر أن بلوشستان منذ أكثر من ألف سنة تدخل فى خريطة الهند . وهى الآن ولاية فى باكستان الغربية . وأما مكران وإيران فلم يحتلهما الآريون إلا منذ عام ٨٠٠ ق.م . ولذلك كان سكانهما من المواطنين الأصليين لهذه المناطق . وهؤلاء لم يكونوا يختلفون فى أشكالهم وألوانهم عن سكان عيلم وأرض الرافدين . لأن صورهم وتماثيلهم التى اكتشفتها الحفريات تشير إلى تشابه كامل بين هؤلاء والساميين فى أرض الرافدين .

الفصل الثالث

الحضارة الآرية وديانتها

تحقيق شخصية الآريين

قبل عام ٣٠٠٠ ق.م كانت تقطن المنطقة الممتدة على طول الجبهة الشمالية من البحر الأسود المتسعة إلى جنوب روسيا — الواقعة على شمال آسيا وشرق جنوب بحر الكاسبيان (أوقزوين) — أمة سميت بالهندية الأوربية (Indo - European) وكانت هذه الأمة فى هذه الآونة من التاريخ تمارس الحياة البدوية القبائلية المرتحلة وكانت تنزح وترتحل بحثا عن الكلأ والخضراء لمواشيها من الأغنام والبقر. وقد تدفقت هذه القبائل كأمواج هائلة على أوربا وآسيا الصغرى والشرق الأوسط ثم استولت — بمرور الزمن وبعد تحول حياتها إلى مرحلة مدنية متطورة — على مقاليد الأمور فى المناطق التى نزحت إليها. فقد نزحت وتدفقت هذه الأمة البدوية البيضاء اللون إلى ناحيتين ، اتسمت فيهما بصفات مميزة بارزة. ولعل أول هجرة سجل التاريخ لها كانت فى عام ٢٠٠٠ ق.م حينما اتجهت موجة منها إلى آسيا الصغرى واستقر بها المقام هناك وهؤلاء هم الحثيون Hittites بينما شقت موجة أخرى طريقها إلى الشرق الأوسط واستوطنت العراق. ثم سجل لها التاريخ هجرات عديدة إلى منطقة الشرق الأوسط مثل : الميتانيه mitannians التى استقرت فى عوالى أرض الرافدين والميدية medas التى أقامت فى أرمينية ، والآرية التى استوطنت إيران وشمال الهند.

وأما الأمواج الأخرى التى اكتسحت أوربا كلها فهى : السلتية Celts فى فرنسا وآسيا الصغرى ، والأغريقية فى ايطاليا واليونان.

لقد شاع استعمال الكلمة الآرية لجميع هذه الموجات خطأ فى رأى بعض

المؤرخين . لأنها لاتطلق على وجه الدقة إلا على القبائل التى استوطنت ايران والهند . ومنها اشتقت كلمة ايران لعيلم سابقا .

ومما يدل على كون هذه الأمم الأوربية ، والإيرانية والهندية جميعا من أصل واحد ، وجود ملامح واسماء ووظائف متشابهة فى بعض آلهتها الأوائل كما أن هناك تشابها بين بعض الكلمات والتعبيرات بالاضافة إلى هندسة لغاتها وهيكلها العام فى التركيب والصياغة .

وإليكم بعض الكلمات المتشابهة : (Brother) الأخ ،(Mother) : الأم ، (Father) : الأب .

السنسكريتية	الفارسية	اليونانية	اللاتينية	الألمانية	الأنجليزية
Bhràtar	Bràdar	Phàràter	Bràter	Bruder	Brother
Màtar	Màtar	Mètèr	Màter	Mutter	Mother
Pitar	Pidar	Patèr	Pater	Vater	Father

وقد وصلت الموجة الآرية الأولى إلى الهند خلال عام ١٨٠٠ ق . م تقريبا .

ومن الجدير بالذكر أنهم جلبوا معهم الخيول لأول مرة إلى هذه المناطق إذ أنها لم تعرف فيها من قبل .

كان الآريون الذين سكنوا فى بلادهم فى سهول روسيا الجنوبية وشرق بحر قزوين قد تعودوا على ترويض الخيول وتربيتها . وقد استخدموها فى شئون المواصلات العامة وفى جر بعض العجلات وفى الزراعة والركوب والحرب. إن هذه المنطقة قد ساعدت على تربية الخيول والعيش عليها بشتى الطرق والوسائل :

وكذلك استخدموا فى نفس الوقت الأبقار والثيران فى المواصلات والشئون الزراعية على طريقة سكان منطقة الشرق الأوسط والهند .

وكذلك جلبوا معهم الحديد ولأول مرة الى هذه المناطق . ومن الجدير بالذكر أن جميع بلدان آسيا والشرق الأوسط كانت تعيش فى العصر البرونزى طوال هذه الآونة . ولم يدخل الحديد الى هذه المنطقة قط ، ولم يعرف الا فى بلاد الآريين

فحسب . فقد جلب الحثيون الحديد لأول مرة الى الشرق الأوسط . ومع أنهم اهتموا بالزراعة اهتماما شديدا ، وفى نفس الوقت كانوا على براعة فى استخدام الحديد وصناعة آلات عديدة منه . وأن هذا المعدن الجديد الصلب القوى هو الذى غير مجرى التاريخ لصالحهم فى كل مكان . لأن آسيا وأفريقيا لم تستخدما الحديد فى الشئون الحربية قبل مجىء الآريين ، بل كانتا تستخدمان البرونز والنحاس فى صناعة الأدوات الحربية .

معنى الآرى

سميت الأمة الهندية الأوربية بعد نزوحها الى الهند بالأمة الآرية : فكلمة « الآرى »(Aryan)تطاق على الشرفاء . وهذا يدل على أنهم اعتبروا أنفسهم منذ قدومهم الى هذه المناطق الآسيوية بالشرفاء ، والسكان الأصليون فيها بالأراذل . وعلى هذا الأصل اشتق اسم ايران كما قلنا . وبهذا يكون الآريون قد اعتبروا أنفسهم سادة البلاد والآخرين خدما وعبيدا .

حياة الآريين فى بلادهم ولغاتهم

كانت حياة الآريين تسير فى اطار اجتماعى خاص فى بلادهم . فكانوا يركعون أمام جميع مظاهر الطبيعة ويقدسونها ، واتخذوها آلهة لهم . وبهذا تكون حياتهم مختلفة تمام الاختلاف عن حياة سكان وادى نهر الهند الذين مارسوا حياة دينية شبيهة بسكان أرض الرافدين ، واعتقدوا أن الملوك خلفاء الله فى الأرض ، وعبدوا كثيرا من آلهة الذكور والأنثى ومظاهر الخصوبة والحياة .

وكانت لغتهم الأصلية التى سميت بالسنسكريتية فى الهند شبيهة بلغاتهم ولهجاتهم فى موطنهم الأصلى ، كما وجدنا بعض الإشارات والملامح المتشابهة فى بعض اللغات الهندية الأوربية من قبل . وقد تشعبت من هذه اللغة الأصلية معظم لغات أوربا ، تلك التى سميت بمجموعة « سنتوم » (Centum) التى تنسب اليها اللاتينية والأغريقية ، والكيلتية (Cecelic) والتيوتونية (Teutonia) والألمانيه والسالاڤونية (Slavenin)

اسباب اندثار حضارة وادى نهر الهند الى الأبد وانتصار الآريين

لقد قلنا : إن وادى نهر الهند قد تعرض لهجمات همجية من قبل الجماعات البربرية الساكنة فى جبال بلوشستان . وقد وصلت الحضارة فى هذه الآونة إلى أقصى درجة من الانهيار ، وكادت أن تندثر تماما . فقد شوهت المعالم وانهارت العمارات وهدمت المبانى ودمرت الشوارع . ثم تعرضت الهند لمثل هذه الهجمات الوحشة من قبل القبائل الآرية التى نسجت على نفس منوال القبائل الهمجية . وهى الأخرى قصدت هدم المعالم الحضارية كلها . وبهذا اندثرت معالم المدن وزالت الحضارة المدنية فى وادى نهر الهند ، وتحولت موهنجودارو وهارابا إلى أطلال . ولم تبن هذه المدن مرة أخرى .

وكان الآريون الزاحفون — على الرغم من كثرة أعدادهم — قد اتسموا بالبداوة والقسوة وشدة البأس والمران فى الشئون الحربية . وأما الدراوديون فقد وصلوا إلى أقصى مدارج الحضارة الراقية ، ولذلك لم يكن فى مقدورهم مواجهة الآريين بنفس الروح البدوية ، ولذلك انهزموا أمام زحفهم وغاراتهم .

ومن ناحية أخرى — كما قلنا — فإن حضارة وادى نهر الهند قد ترنحت ومالت إلى السقوط والزوال منذ سنة ٢٠٠٠ ق . م ، ولم يقدر الدراوديون على السيطرة والصمود أمام هجمات جحافل القبائل الآرية البدوية الزاحفة على مدنهم ، وبهذا ضعفت قواهم واضمحلت بلادهم واندثرت حضارتهم . فلما تدفق الآريون على الهند فى مثل هذه الظروف السيئة للغاية التى دب فيها الضعف والاضمحلال إلى جسد الدراوديين ، لم يقدروا على مواجهتهم بكل قوة . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة : أولها ، أنهم واجهوا قبائل أوربية همجية لم يكن فى مقدورهم طردهم أو السيطرة عليهم ، لأنهم تمتعوا بروح حماسية منقطعة النظير ، شأنهم فى ذلك شأن كل القبائل البدوية التى زحفت على الحضارة المتقدمة فى أى قطر

من أقطار الدنيا . وثانيهما : أن الخيول لم تعرف فى الهند من قبل . وبهذا جاءوا بأسلحة حربية جديدة أجادوا تكتيكها . وثالثها : كان الحديد أقوى أسلحة عرفها التاريخ . وكل من ملك الحديد فى هذه الآونة استطاع القضاء على أعظم الحضارات العالمية حينذاك ، كما قضى الحيثيون وشعوب البحر على حضارة الشرق الأوسط السامية فيما بعد .

وهذه الأسباب كلها مهدت السبيل للآريين أن يتبوءاوا مكانة خالدة باقية فى الهند واندمجوا مع أبناء الهند ، وتفاعلوا مع شعوبها ، واستسلموا لطبيعتها وفصولها ومواسمها ، وتجاوبوا مع أجوائها ومناخها . وبهذا ظهرت حضارة جديدة ممزوجة بالروح الهندية الأصيلة والآرية الجديدة وانبثقت ديانة تشمل كل المزايا الهندية القديمة والجديدة وفلسفة جذورها عميقة رمظاهرها بديعة أنيقة ، تحمل الطابع الآرى ، وهذه هى الفلسفة الآرية وديانتها .

لقد أثارت الدهشة بعض المؤرخين من انهيار الحضارة الهندية المتقدمة تماماً بعد زحف الآريين ، وقارنوا هذه الظاهرة بأحداث مماثلة فى أرض الرافدين ومصر ، إذ أن هاتين الحضارتين العظيمتين قد واجهتا نفس الظروف مرات عديده ، ولكنهما سرعان ما تمكنتا من استعادة مجدهما الحضارى ، وإعادة بنائهما على أحدث الطرق ، ومواصلة الجهود العلمية وتطويرها إلى أقصى الحدود . ويعلل هؤلاء مصير الحضارة الهندية بهذه النهاية السيئة : أن الزاحفين عليها كانوا أكثر عددا من السكان الأصليين ، ولذلك استطاعوا فرض سيطرتهم التامة عليهم وإبعادهم إلى أقصى الجنوب ، وإنشاء حياة قروية جديدة كما شاءوا . بينما كان الوافدون على مصر وأرض الرافدين أقل عددا من السكان الأصليين ، ولذلك تمكنت هذه المراكز الحضارية من إعادة بناء مجدها العريق .

ومن ناحية أخرى فإن حضارة نهر الهند قد كرست جهودها كلها فى تعمير المدن وتطويرها ولم تكرس جهودها فى ترسيخ أسس القرى وبنائها

لذلك لم توجد مقاومة كافية فى القرى ضد القبائل المستعمرة الجديدة ، وطغت هذه العناصر الجديدة على العناصر الأصلية وفرضت سطرتها عليها إلى الأبد .

مقار الآريين فى الهند وظهور النظام القروى وازدهاره فى عهدهم

ولما تدفقوا على الهند واستولوا عليها استوطنوا ضفاف نهر الهند ثم اتجهوا شمال شرق ضفاف نهرى الجنجا والجمنا وما جاورهما من المناطق الخصبة القابلة للزراعة ، ورعى المواشى والأغنام ، بسبب توافر الكلاء والحشائش الخضراء فيهما . وقد جلبوا معهم الخيول واستخدموها لأول مرة فى الهند فى شئون الزراعة والركوب والحرب . وكلما اتجهوا إلى ناحية طردوا سكانها إلى ناحية الجنوب واستوطنوا بلدانهم وبنوا فيها مساكنهم وعمروها . وبهذا تمت لهم السيطرة الكاملة رويدا رويدا .

وقد مارس هؤلاء فى بداية الأمر الحياة القروية ، إذ أنهم انقسموا إلى جماعات وكتل ، وانتشروا فى القرى ، واختاروا فى كل قرية زعيما لهم يسمى « راجا » أو الملك . وهو يوازى فى مصطلحنا الحديث الاقطاعى ، مع أن النظام الاقطاعى لم يظهر فى الهند فى هذه الآونة . وكان هذا الرجل يتزعم قبيلته بالوراثة .

إن هذه الحياة الريفية التى بدأها هؤلاء فى الهند لم تعرف فى الهند من قبل . وكان جل اهتمامهم فى هذه الآونة إنشاء قرى جديدة وتعميرها وإيجاد حياة بدوية جديدة والتخلى بل ومحاربة كل أنواع المدنيات . ومن أجل ذلك دمروا كل المعالم الحضارية فى وادى نهر الهند .

ومن جراء هذه المحاولات ظهرت قرى جديدة فى أنحاء وادى نهر الهند وروافده ، وانبثقت فيها حياة جديدة ، ثم امتدت هذه القرى إلى السهول الخصبة بين ضفاف نهر الجنجا والجمنا . وهذه السهول انقسمت الآن إلى ولايتين هامتين وهما : اتاربراديش وبهار .

ومن الجدير بالذكر أن ديانة وادى نهر الهند أقامت نظاماً كهنوتيا ثالوثيا شبيها بما وجد فى أرض الرافدين كما قلنا . وهذا النظام يفرض سلطة الملوك – وهم خلفاء الله فى الأرض – والكهنة ، ونواب الملوك من الحكام والموظفين الكبار على جميع الناس . ومثل هذا النظام لايسرى إلا فى ظل الحياة المدنية . وأما القرى والمناطق الصحراوية حيث يسكن فيها الأعراب والبدويون فلا يمكن تطبيق هذا النظام . وبما أن حكام وادى نهر الهند لم يبذلوا جهودهم فى إنشاء القرى ، فقد تعرض نظامهم اللاهوتى المدنى لأشد هجوم آرى ، وتحطم تماما ، ولم يكن له قواعد راسخة فى القرى حيث بنى الآريون مستعمراتهم . ولم يكن فى مقدورهم المقاومة فانمحى تماما .

وبهذا تقدمت القرى عندهم وازدهرت . وقد امتازت الحياة القروية عندهم بطابع ديمقراطى وفق مصطلحنا الحديث ، فقد منح الشعب – على الرغم من وجود نظام وراثى لتولى زعامة القبيلة – حرية تامة للتعبير عن إرادته بواسطة الجمعيات المنتخبة والمنظمات الديمقراطية القروية . وقد وردت إشارات بوجود مثل هذه المنظمات فى كتبهم المقدسة مثال الفيدا واليوبانيشاد . كما وردت إشارات كذلك عن ملوك ارتقوا عروشهم عن طريق الانتخاب . ولعل ذلك حين لم يخلف الملك وارثا له من أبنائه . وفيما يبدو لنا – من قراءة كتبهم المقدسة – فإن المجالس القروية المنتخبه قد تمتعت بسلطات عزل الملوك أو إعادة الملوك المعزولين . ولكن مثل هذه المنظمات فقدت نفوذها بعد قيام الأمبراطوريات كما سنذكر فيما بعد .

وفى النظام القروى المتبع عندهم قد تمتعت كل قرية بمجلس قروى منتخب ، ودرجت هذه المجالس على منح أفراد الشعب حرية التعبير والمناقشة الظاهرة ، وكانت لايبت فى الشئون السياسية فحسب ، بل وفى الشئون الاجتماعية والدينية أيضا .

وبسبب ازدهار القرى والأرياف دبت فيها الروح الثقافية والفكرية

وتقدمت إلى أقصى الحدود بحيث لانجد لها نظيرا فى أى بلد ، ولم يزل لها أثر . فلقد ظهر فى القرى مفكرون وأدباء وشعراء بكثرة . كان هؤلاء ينتقلون من قرية إلى قريةويتجولون فى ربوعها ينشرون مبادئهم وأفكارهم . وكان هؤلاء أكبر باعث على نشر الوعى والثقافة بين القرويين على وتيرة واحدة ، بحيث تنمحى الفروق الموجودة فيها ، ولم يتخذ هؤلاء مراكز فكرية لهم فى أية قرية . لأن النظام القروى لم يعرف الوحدة القومية ولم تتكون له عاصمة بخلاف الحياة المدنية . ولذلك اضطروا إلى ممارسة حياة التجول لنشر مبادئهم . وقد أصبحت لنظارة القرويين الهنود الفلسفية للحياة سمات هامة لهم وتكونت لهم من جراء ذلك مقدرة عظيمة على التحمل والصبر ، الأمر الذى أصبح موضع دهشة الناس ، ولاسيما المؤرخين الأفرنج .

وبسبب انتشار تعاليمهم بين أبناء القرى والأرياف اكتسب هؤلاء مقدرة التحمل والصبر والصمود . ومن المعروف أن طبيعة الهند الفياضة جعلت لهم — رغم كل خيراتها — متاعب شديدة وأخطارا بالغة مثل الفيضانات المتكررة والأمراض الوبائية المهلكة والمخاوف العديدة . ولكن القرويين اعتادوا مواجهة هذه المشكلات والمتاعب بكل صبر ولم يبدوا أى شكوى . وليس معنى ذلك أنهم اتكلوا على القضاء والقدر وسلموا زمام أمرهم إلى القدر ليتصرف كما يشاء معهم ، بل حاولوا بما أعطوا من المقدرة على التأمل والتفكير والصبر والصمود تحويل مجرى الحياة لصالحهم بطرق حكيمة هادئة ، مستخدمين كل الوسائل المادية ، مع إيمان كامل بالآلهة . وإذا واجهوا الفشل — رغم كل الجهود — لم يكونوا ثائرين على الطبيعة والآلهة ، بل كانوا يتحملون المتاعب . ولم يكن الفلاح الهندى — بسبب تفكيره وتأمله — يشكو قلة الطعام أو ندرته أيام المحن والمتاعب ، بل يستغرق فى التأمل والتفكير فى أسرار الحياة ، وفك غوامضها . ويرى بعض الباحثين أن الطبيعة والأجواء قد أملت عليه

هذه الظاهرة . لأن القروى بسبب ثقافته الدينية العالية التى كان يتلقاها من المعلمين المتجولين قد نال حظا كبيرا من القناعة والزهد ، وتدرب إلى درجة كبيرة على تحمل المشاق . وهذه الظاهرة لم تزل موجودة فى القرى والأرياف . ولم يزل القروى الهندى تتوفر عنده النظرة الفلسفية إلى الحياة . وفى مقدوره أن يتحدث عن القدر والظروف بإخلاص ونفاذ بصيرة يثير دهشة الأجنبى ، لأنه لم يألف مثل هذه الأمور . وصلاحية ذهنه المتصف بصفات الاستسلام والتسامح ستكون أكثر دهشة واستغرابا نظراً إلى فقدان التعليم فى الهند حتى يومنا هذا . والسبب فى ذلك كله — كما قلنا — جهود المعلمين المتجولين .

ومن منهج هؤلاء المعلمين من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين أنهم كانوا ينشرون تعاليمهم بين القرويين من الفلاحين والعمال وأصحاب المهن الحرة البسطاء فى الفهم فى صورة قصصية أسطورية . كانوا يقصون عليهم القصص والأساطير حافلة بتعاليم الأخلاق والدين والقيم العليا . وكانوا يشرحونها بضرب الأمثلة من خلال حياة آلهتهم وشخصياتهم الدينية الأسطورية الخالدة . ومن هنا نجد ملاحمهم وأساطيرهم حافلة بالأخلاق والمبادىء والمثل العليا ، لأنها مما صاغتها ألسنة هؤلاء المتجولين . ومن هنا تعود القرويون — منذ القدم حتى الآن — على مذاكرة ملاحمهم يوميا بعد فراغهم من مهنهم متجمعين فى مكان . وهذه الاجتماعات أو الندوات لم تزل تلعب دور المدارس بين القرويين الذين حرموا من دخول المدارس العصرية ،ولم يزل المعلمون المتجولون — وإن قل عددهم الآن إلى درجة كبيرة — يواصلون جهودهم .

لقد استوحى واحد من أبرز تلاميذ المهاتما غاندى فى العصر الحديث وهو « ونى بهاوى » من المعلمين المتجولين القدامى طريقة نشر المبادىء والمثل العليا بين أهل القرى . فهو الآخر يتنقل الآن من قرية إلى قرية مشيا على

قدميه لنشر مبادئه ومثله العليا . واليكم صورة مما أورده الصحفى المصرى الأستاذ موسى صبرى فى هذا المعلم(١) «ولكن المجتمع الهندى يمتاز بظاهرة فريدة . ان من بين أبنائه طاقات إنسانية مشعة ، تقدم المثل الأعلى والقدرة الصالحة لأجياله المتعاقبة . من بين هذه القدرات رجل نادر المثال . لا يمكن أن يظهر فى غير الهند . ويستحيل أن تنجح رسالته فى بلد آخر غير هذه الأرض . وقد حاولت عبثا أن القاه أو الحق به فى أى مكان يمكن أن نكتشف وجوده فية . أنه يجوب الهند من أقصاها إلى أقصاها سائرا على قدميه . لا يركب قطارا أو سيارة . بل ينتقل من قرية إلى قرية ، وعلى جسمه النحيل قطعة قماش أبيض رخيص من غزل الأيدى الهندية ، ويحل ضيفا على الفلاحين ، ويأكل أقل الزاد ، ويبشر بكلمة الحق والسلام ، انه معجزة جديدة بعد قداسة غاندى .

وأود أن انقل هنا للقارىء حديث الفيلسوف المفكر « أبابانت» — سفير الهند الممتاز فى القاهرة — عن هذا القديس الهندى الجديد ، قال سفير الهند : اختفى المهاتما غاندى من بيننا فى عام ١٩٤٨ ، ولكن واحدا من أتباعه الا وهو (ونى بهاوى) ، — وقد انفطر قلبه حزنا من جراء مايرى — ، أخذ ينادى بين الناس مذكرا إياهم بأن غاندى عاش ومات من أجل أن يثبت أن هذه الحلقة المفرغة ، حلقة العنف وما يجلبه فى أعقابه من عنف مضاد ، لاسبيل إلى كسرها إلا بالالتجاء إلى اللاعنف ، ثم أخذ يتساءل : أما من سبيل — والحال كذلك — للخروج من هذا الذى يجرى فى تلنجانا ؟ .

تقع تلنجانا فى حيدر آباد فى وسط الهند ، وقد قام الفلاحون فيها بثورة يتزعمها الشيوعيون ، قتل فيها حفنة من كبار الملاك ، واحتل الفلاحون أرضهم عنوة ، وكان طبيعيا أن تتدخل شرطة الولاية لوضع حد لهذه

---

(١) أنظر مقاله الصادر فى جريدة الجمهورية القاهرية فى ١١ مايو سنة ١٩٦٩ يوم الاحد ص ٥ .

لوحة (٩)

المهاتمـا غانـدى

ونى بهاوى يتوجه الى قرية

لوحة (١٠)

ونى بهاوى يشرح تعاليمه لأهل القرى

الاضطرابات . وهكذا كان الجواب على العنف الذى مارسه الشيوعيون عنفاً مضاداً تولاه رجال الشرطة وأجهزة الولاية ، وإذا كانت أجهزة الحكومة عاجزة عن تجنب العنف فما من سبيل آخر يسلكه الناس لتجنب ما يحدث ؟ وماذا يمكن أن يكون واجب الفرد فى هذه المأساة ؟ .

وانطلق «ونى بهاوى» من «بانانار» ، قريته الصغيرة فى أواسط الهند حيث ظل أربعين عاما بأعمال بناءة ويكرس نفسه لتأملاته — فسار قرابة ألف كيلو متر على قدميه حتى وصل إلى « حيدر آباد » والتقى فيها بالفلاحين والشيوعيين ، لقد أدرك ما كان يحس به الفلاحون من الحزن والألم والخوف والغضب مما دفعهم إلى الثورة ضد الاستغلال وعدم المساواة ، ثم أخذ ينتقل من قرية إلى قرية ، فيلمس الحزن والكآبة فى وجوه الفلاحين ، والخوف والريبة فى عيون كبار الملاك .

وفى يوم من الأيام ، وبينما كان يخطب فى جمع من الفلاحين وكبار الملاك سأل : وهو يكاد يخاطب نفسه : من ذا الذى لا يحب فيكم أن يشرك إخوته الفقراء فى أرضه ؟ فإذا كان لأحدكم أربعة أخوة يشاركونه فى أرضه ، أفلا يرضى أن يجعلهم خمسة ، فيقبل أخا خامساً ؟ كانت القرية التى يخطب فيها هى قرية بونشامبالى .

وما كاد ينتهى من عبارته حتى قام أحد أصحاب الأرض ليعلن تنازله عن مائة فدان من أرضه لمن لا أرض لهم من أهل القرية . واعترت الدهشة (ونوبهاوى) من أثر هذه الاستجابة السريعة وجالت بخاطره على الفور فكرة جديدة ، فكرة العمل المنزه عن العنف من أجل إعادة توزيع الملكيات ، أو على الأقل من أجل استخدامها استخداما أفضل فى أغراض اجتماعية ، فكرة جديدة ولدت على الفور .

ثم استرسل يقول : إن الأرض كالماء والهواء ، ملك لله سبحانه وتعالى . وليس من حق أحد على الاطلاق أن يزعم لنفسه ملكيتها ، ان الأرض للجماعة كلها ، وهكذا هبطت عليه فكرة جديدة أخرى كأنها عون

من السماء نزل عليه فى ومضة واحده تلك هى فكرة (بهودان) و (بهو) معناها : الأرض . و (دان) معناها : الهبة أو العطاء . وتنقل (ونوبهاوى) من قرية إلى قرية فى جميع أنحاء الهند وهو سائر على قدميه ، وهكذا ظل يمشى خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، فاستطاع أن يجمع فى السنوات القليلة الأولى خمسة ملايين من الأفدنة لمشروع عطاء الأرض الذى اضطلع به . وقد وزع جزء من هذه الأراضى على من لاأرض لهم ، ولكنه لم يقنع بذلك ، فأخذ يعلن فى الناس أن حركة عطاء الأرض هذه يجب أن تتحول إلى حركة (عطاء القرية) أو كما أسماها (جرام دان) . وقد استجابت لندائه الجديد قرى من جميع أطراف البلاد بلغ عددها ١٧ ألف قرية ، فيها من السكان أكثر من ٧٥ مليونا من الأنفس أهدوا جميعا قراهم بأجمعها إلى (ونوبهاوى) .

ثم يقول السفير الهندى : وفى هذه القرية التى شملتها حركة « جرام دان » أو « عطاء القرية » تغيرت العلاقات بين الفرد وما يملكه تغيرا كاملا ، فأصبح يستخدم ملكيته وفق حاجة المجتمع ، وفى خدمة المجتمع ، دون أن يكون من بينهم من يدعى لنفسه فى أرضه ملكية ثابتة لاتنتزع منه ، بل هو يملكها طالما أنه يستخدمها فى نطاق صالح المجتمع العام ومن أجل منفعته وخيره ، ومن ثم فهو لايستطيع أن يبيعها ولا أن يرهنها . كل مايستطيع أن يفعله هو أن ينقلها إلى أبنائه .

وهكذا أصبحت حركة (جرام دان) التى اضطلع بها (ونوبهاوى) بعد وفاة غاندى أكبر مثل لأثر الفلسفة الغاندية وأسلوب عدم العنف ودورها فى احداث تغيير ثورى فى المجتمع .

لقد أصبحت حركة (جرام دان) هذه ، أو حركة (سارفودايا) ، ومعناها (الارتفاع بالجميع) أو (خير الجميع) جزء الايتجزء من التفكير الهندى ومن أحاسيس الهند وحياتها . فالعاملون فى هذه الحركة لاينتمون إلى حزب من الأحزاب السياسية ، ولاهم يتبعون الحكومة ، ولايتقاضون من أحد أجرا لقاء عملهم .

ظهور أولى المدن والحكومات المدنية فى العصر الآرى

قد حافظ الآريون على الحياة القروية قرابة الف سنة . ولم تظهر المدن خلال هذه المدة الطويلة كما لم تظهر الحكومات المدنية . وتبعا لذلك لم تنشأ العمارات على منوال حضارة موهنجو دارو . ولم تتقدم الفنون المدنية مثل : الصناعات والحرف والفن المعمارى والنحت والتصوير وما إلى ذلك . ومن هنا تعترى الدهشة المؤرخين حينما لايجدون أثرا حضاريا لهذه المدة الطويلة من العصر الآرى ، ولوفى صورة الخرائب والأطلال على غرار ما وجدوه فى موهنجودارو ولعصر ما قبل الآريين بآلاف السنين. وهذا الظلام الحضارى قد استمر إلى سنة ٥٠٠ ق.م تقريبا .

ومن الجدير بالذكر أن الآريين حينما استولوا على وادى نهر الهند ، حاولو النزوح لاستيطان مناطق الجبال والغابات الموجودة على وديان الهملايا وسهول نهرى الجنجا والجمنا. وهذه المناطق تمتد الآن من ولاية أتاربراديش إلى أقصى حدود ولاية بهار ، وبداية حدود نيبال وشطرا من ولاية بنغال . إن وجود الغابات الكثيفة لم يمكنهم من التوغل فيها قرابة ألف سنة . ثم استطاعوا رويدا رويدا — بفضل أدواتهم الحديدية مثل الفؤوس — قطع الأشجار الكثيفة ، وانشاء القرى فيها . وقد استطاع هؤلاء التوغل فى وادى نهرى الجنجا والجمنا خلال سنة ٨٠٠ ق . م تقريبا ، ثم استطاعوا انشاء المدن خلال عام ٦٠٠ ق.م تقريبا وبفضل هذه الجهود تمكن هؤلاء من تعمير عديد من القرى والمدن الصغيرة فى ولاية اتار براديش وبهار . ولعل ولاية بهار كانت أنسب مكان لهم لإنشاء أول مدينة لأول مرة فى تاريخهم .

ونجد فى عام ٦٠٠ ق.م دولتين : واحدة منهما فى ولاية أتاربراديش وهى « كواسالا » Kosala والأخرى فى ولاية بهار وهى « مجدا magada .

ومن الجدير بالملاحظة — أنه على الرغم من وجود النظام الريفى — فقد

تقدمت علوم الفلسفة والأدب والأخلاق الى أقصى درجة من التقدم والازدهار . وفى هذا العصر ظهرت الكتب الدينية العظيمة مثل الفيدا والكتب الفلسفية مثل اليوبانيشاد ، والأساطير والملاحم الشهيرة مثل المهابهاراتا والرامايانا ، والكتاب المقدس مثل الجيتا . والسبب فى ذلك أن الحياة الريفية منحتهم طاقات هائلة من الوقود للتأمل والتفكير والوجدان ، وساعدهم على ذلك وجود المعلمين المتجولين من المفكرين والشعراء والأدباء كما قلنا .

النظام الزراعي بين عصرى حضارة وادى نهر الهند والآريين

لقد قلنا من قبل أن نهر الهند كان صالحا للزراعة ، ومارس سكانه حياة الزراعة . ومع ذلك لم يتقدموا فى الزراعة إلى الدرجة المطلوبة . لأن أراضيهم كانت صالحة جداً لإنتاج القمح والشعير فقط ، ولم تكن صالحة لزرع الأرز . ومن ناحية أخرى فكانوا يزرعون مرة واحدة فقط فى كل عام ، وذلك انتظاراً لعودة الخصوبة إلى الأرض عقب فيضانات جديدة تجلب أملاحاً وأسمدة طبيعية جديدة . ولذلك لم تتقدم الزراعة فى عهدهم إلى الغاية القصوى ، وتبعاً لذلك لم يزدهر عدد السكان . وهذا هو السبب فى أن الآريين اتجهوا إلى الشرق الشمال رويداً رويداً مخترقين غابات هذه المناطق الواقعة بين نهرى الجنجا والجمنا . ومع أن عملية الاستصلاح الزراعى لهذه المناطق السهلية الخصبة الجديدة استغرقت قرابة ألف سنة بوجود الغابات الكثيفة فيها ، إلا أنها أدخلتهم — بعد نجاحهم فى الاستصلاح — فى طور جديد من الحياة الزراعية لم يسبق له مثيل .

وبهذا تأصلت الزراعة فى نفوس أبناء الهند وتغلغلت فيها . ومن الطبيعى فإن النظام الزراعى هو الآخر يدعو الى ممارسة الحياة الريفية والنظام الريفى . وأن وجود النظام الريفى الآرى منذ البداية ساعد هذه الظاهرة إلى أقصى الحدود . وأن المجالس القروية وما كانت تتمتع به من النقاش بحرية كاملة كفلت للفلاحين مستقبلهم وساعدتهم على تطوير حياتهم ، وعدم معاناتهم ، لمتاعب الاحتكار والإقطاع .

الآلهة والطقوس من الاصل الهندى الأوربي

كان الآريون فى موطنهم الأصلى فى أوروبا يعبدون أنواعاً من الآلهة ويسجدون أمام جميع مظاهر الطبيعة التى كانت تجلب لهم النفع والضرر . ولما نزحوا إلى بلاد عديدة ومن بينها الهند حملوا معهم هذه الآلهة كلها . وكان من أشهر آلهتهم فى بلادهم الأصلية : اندرا وميترا ، وثارونا ، وناستيان ، ويوشـاس . وكذلك نقلوا إلى البلاد الجديدة معظم طقوسهم وتقاليدهم .

الاله إندرا : وهو من أعظم آلهة الآريين فى الهند وأخطرها شأنا وأكثرها مكانة وتقديراً . وهو فى نظرهم إله الآلهة الذى ظهر فى الوجود أول ما ظهر وهو الذى يعد أول من تلقى الروح ، ثم أنقذ جميع الآلهة بقواته الهائلة . وكانت ترتعش الكائنات كلها من عظمة طاقته وجبروته وجلال قدرته ومهابته. وقد تردد اسم هذا الاله مراراً وتكراراً فى كتاب (الرج ڤيدا) . وكان الهندوس يعتقدون أنه إله الأمطار . وكانت مهمته — وفق اعتقـادهم — القضاء على الإله ڤريتا ، الشيطان الذى يمنع نزول الأمطار . فقد فتح إندرا أبواب السماء لنزول الأمطار بشدة وغزارة على الأرض وكان السكان فى الأرض الخصبة يقدسون هذا الإله ويترقبون فضله وكرمه لإسقاط الأمطار ليسيطروا على الجفاف الذى طالما هدد كيان البلاد .

وقد صورته كتب الڤيدا الأخيرة أنه يشق الجبال ويخرج منها السحب التى تمطر فى العالم . وكان هذا الإله يطلق سراح الأنهار والوديان التى كان يغطيها الضباب الكثيف .

وهو الإله الوحيد الذى يظهر دائماً فى صورة الإنسان . وذلك أنه يحمل القوس ويركب العربة ، ويملك سلطات واسعة فى الكون . وهو الذى هزم المخلوقات الغريبة التى استولت على الماء وقتلها ، وحرر الماء من سيطرتها . ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الإله صاحب أعظم قوة فى الكون ، تخضع لها البحار والطبيعة الفتانة والسحاب والليل والنهار . وهو ينحدر من طبقة البراهما

ـــ أعلى طبقة هندوكية ــ ولذا لا يمت بصلة إلى الآلهة الذين ينحدرون من الطبقات الدنيا .

وهو يشبه فى سلطاته الواسعة الإله البعل فى سوريا ولبنان . كما أنه مسمى عند الأغريق بجوبيتر .

ميترا : هو من كبار آلهة الآريين ــ بعد إندرا ــ الذى جلبوه من موطنهم الأصلى . قد سمى نفسه الإله فى ايران بـ « ميتهرا » وهو يصاحب « ڤارونا » دائماً ولا يفارقه لحظة واحدة .

وهذا الإله قد اختص فيما بعد بطائفة « شترى » ــ وهى دون البراهما مكانة ــ فأصبح عندها إله الشمس . وكانت وظيفته عندهم إبرام العقود ومنع الناس من نقضها بعد توكيدها ، ومعاقبة كل مذنب بأشد العقوبات .

وتروى الأساطير أن هذا الإله يشبه إنساناً أحمر . وله ثلاثة عيون ، وأربعة أيد ، ويحمل فى يديه زهرة اللوتس ، وفى الثالثة البركات ، وفى الرابعة يشجع عباده .

وقد تزوج إله الشمس من آلهة تسمى « سانجنا » ، وأنجب منها ثلاثة أبناء . وتحكى بعض الأساطير الأخرى أن إله الشمس تزوج من الإلهة ، أوشا وهى إلهة الفجر ، الذى ينفلق صباحاً . وقد تغنت به معظم الكتب المقدسة الهندوكية . وهى ابنة السماء وأخت الليل وقريبة الإله ڤارونا ــ الذى سيأتى ذكره قريباً ــ وعشيقة إله النار . وهى تركب دائماً على عربة تسوقها الأبقار والخيول الحمراء . ويصفها الشاعر وكأنها فتاة جميلة تسحر بجمالها الرجال ، وتملك قلوبهم وتستولى على عقولهم ، وتلبس ملابس جميلة مغرية للغاية ، وتتحلى بالحلى ، وترقص بكل ما أوتيت من جمال وسحر ، وتخرج للاستحمام برقصاتها الساحره وتلبس ملابس فخمة لملاقاة زوجها وهى التى تلعب دور إلهة ربة البيت ، إذ أنها توقظ النساء فى الصباح الباكر ، وتحثهن على العمل . وكذلك توقظ جميع الكائنات الحية . وهى

لوحة (١١)
الاله اندرا يجلس على فيله

لوحة (١٢)
اغنى الهة النار

التى تدعو الناس إلى تقديم العبادات للآلهة وتعلمهم طريقتها . وتشعل الشموع فى المعابد والنيران للقرابين . وهى دائماً مع الأبرار فى كل مكان توقظهم وتساعدهم على العمل وتكره الكسالى والأشرار ، ولا تساعدهم فى أى شىء . وهى فتاة جميلة لايزول شبابها ، خالدة خلود الدهر ، تظهر كل صباح مبكرة فى أحلى مظاهرها وجمالها وسحرها على مر العصور والأجيال .

ڤارونا : وهذا الإله هوالذى كان يملك مقاليد أمور السماوات والأرض ، وهو الذى منح القوانين والمبادى الاخلاقية . وهو إله عالمى يملك سلطات واسعة لاحدود لها . وكذلك وصفوا إلها آخر يتصف بنفس هذا الصفات هو « رتا » (Rta) ، ذلك الذى يعقد الأمور ويتركنا فى خلط وحيرة فى فهم وظائفه ووظائف ڤارونا ، ولا نكاد نصل إلى نتيجة .

إن النار المقدسة تعتبر سائقة عربته ، وهى التى تجهز جواد العربة بكل الأجهزة اللازمة وتسوقها بكل قوة وانطلاق . ومن المعروف أن هذه النار هى الأخرى أصبحت إلها فيما بعد ، وهى الإله أجنى (Agni) ، ذلك الذى تقدم له جميع أنواع القرابين . لأن له صلات وثيقة بالسماء بوصف كونه سائق عربة الإله ڤارونا ويتردد على السماء بين حين وآخر . وهو الذى يصبح وسيطاً بين السماء والأرض ، وتتمثل فيه الأخلاق والمثل العليا للاله ڤارونا .

يقول الرج ڤيدا — أقدم كتاب آرى فى وصفه : وتقدم الصلوات فى غاية من السمو والعلا للاله العظيم ڤارونا ، ذلك الذى يتسم بالسمو والعلا ، ويتقبل القرابين . وهو الذى نشر الأرض بساطاً للشمس . ولذلك نشر الهواء خارج العمران ومده حتى فى الغابات . وهو الذى منح السرعة للخيول وخلق الألبان فى الأبقار ، وربط القلب بالعقل ، وخلق الإله اجنى من المياه ووضع الشمس فى السماء و « سوما » — المشروب الشهى — فى الجبال . وبهذا كان سيد الآلهة لدى الآريين فى مستهل حياتهم فى الهند .

ولكنه فيما بعد فقد سلطاته الواسعة وأصبح من آلهة الدرجة الثانية ، واختص بالطبقة الثانية من الهندوس وهى « شترى » . ولذلك لم يكن فى مقدور هذا الإله أن يتخذ شكل الإنسان ، بينما كان يتخذ جميع الأشكال بكل سهولة .

يشبه هذا الآله فى نظر بعض الباحثين أوزيرس – الإله المصرى – فى مثل هذه السلطات .

ناستيان : وهو يسمى أيضاً « آنفين » وهو ليس بإله واحد ، بل إلهين وهما توام ، وتصور كتب الفيدا أنهما المتطرعان أو الفرسان صاحبا اللون الذهبى ، وهما اللذان يأتيان حينما ينفلق الصبح ، ويعدان الطرق فى السحاب الإلهة الصبح وهى « يوشا » ، ويلعبان نفس الدور فى المساء حينما تغرب الشمس ، ومن أجل ذلك ينبغى لنا أن نسميهما إله الصبح والمساء .

وهما من ألهة الأسرة الهندية الأوربية كما قلنا ، لأنهما يشيران إلى غزاة الهند ، كما أنهما من الطبقة الآرية الارستقراطية العليا .

وان كلمة « ناس » تدل على الخدمة . وهذا يدل على أن مهام هذين الالهين هى جلب المنافع والخيرات للناس ، كما أنهما يلعبان دور الأطباء بين الآلهة ودور الأصدقاء لدى المرضى والبؤساء ، وهما يرشدان الأعمى والأعرج ويساندان الضعفاء والعجائز بكتفيهما ، وهما فى الحقيقة رمزا للمحبة والسرور .

وكان أبواهما إله الشمس وإلهة السحاب : وقد تزوجت من إله الشمس إبنة إله سارابانا الذى هو الآخر إله الكواكب من إله الشمس ، وهما اللذان يبيدان بسوطيهما الضباب الكثيف والندى ، ولهما عربة ذات عجلات ثلاث ، صنعها الاله رحى بوسى .

يوشاس : وكذلك كانت إلهة الفجر أويوشاس من الأسرة الهندية الأوربية ، لأنها تشبه فى كثير من الأحيان « الإله يوسى » الأغريقى ،

والإله « آرورا » الرومانى فى وظيفتها وخصائصها .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الآلهة الآرية القديمة قد وجدت بنفس الصفات والسلطات لدى الأمم الأوربية مثل اليونان والرومان والألمان ، ولكن أسماءها لم تبق على أصلها عندهم . وفى أساطير الرومان مثلا تسمى هذه الآلهة الرئيسية « جوبيتر » (Jupiter) ، و« مارس » (Mars) و « كويرى نوس » (Quirinus) ، وفى الألمانية : « وودين » (Woden) و « دونار » (Donar) ، و « ڤانير » (Vanir) .

المشروبات المقدسة

كان (سوما) مشروبا شهيا هاما يشربه الإله إندرا ، كما أنه عصير يعصر أثناء الطقوس . وهو أصلا نوع من الأعشاب التى كانت تنبت فى الهند ويستخدمها الهندوس كجزء أساسى فى أمور الطقوس والقرابين بين يدى الآلهة . وكذلك هو عصير كانت ثماره تعصر بين دفتى الطاحونة كما أن سوما رحيق ممتاز يشربه الآلهة للتمتع بحياة خالدة ، وهذا الرحيق كان يمنع الموت والأمراض القاتلة ويضمن حياة أبدية .

وبسبب خطورة هذا المشروب ودوره الكبير فى حياة الإنسان والآلهة أضفى عليه الهندوس أنواعا من الأساطير التى تضاعف من قيمته وترفع من مكانته . ومن أجل ذلك يستطيع سوما — كما ورد فى الأساطير — اتخاذ عدة أشكال وصور ، وهو يتمثل حينا فى نور سماوى ، وحينا آخر فى طائر سماوى ، أو جرثومة أو عفريت فى المياه أو ملكة الأشجار ، أو طاقات قدسية تشفى من الأمراض ، كما هو موطن الإنسان الأول وملك الشعراء ، وكذلك هو مصدر الوحى والإلهام ومنبع الأصول والمبادئ ؛ وانه يحب البطولة ويجازى الأبطال على أعمالهم البطولية ، كما أنه همزة الوصل بين الإنسان والآلهة فى السماء .

ومن الجدير بالذكر ان الأمم القديمة قد اتخذت بعض أنواع المشروبات

رمزا للتقديس والعبادة . وقد وجدت مشروبات شهية مقدسة فى حضارة لبنان ومصر خلال الالف الثالث قبل الميلاد . وكانت الأمة الهندية الأوربية هى الأخرى قد عرفت مشروبات دينية ، وقد سمى المشروب الآرى الهندى « سوما » فى ايران الآرية « هاوما » (Haoma) . وكذلك وجد مشروب من هذا النوع لدى اليونان وسميت بعض الأمم الأوربية القديمة مثل الأمة البولينيسية (Polgnesia) مشروبها «كاوا » .

وكذلك نجد تشابها كبيرا بين ايران والهند فى بعض الطقوس . فقد كان « حوتر » أو « راوتار » يطلق فى تراثهما على من يصب الماء فى الطقوس : وكذلك نجد تشابها واضحا فى أسماء القرابين والمرسيم الأخرى . وناهيك بالكلمات المتشابهة والجزور المماثلة بين لغات هذه الأمم كما أوردناها سابقا .

آلهة حضارة نهر الهند عند الآريين

لقد قلنا : إن أية حضارة جديدة دخيلة لا يمكنها التخلى عن جميع آلهة السكان القدماء وتقاليدهم وطقوسهم كلية . ومع أن حرب الآريين مع آلهة نهر الهند وتقاليدها كانت حامية الوطيس فى بداية الأمر ، ولكنهم حينما سيطروا على البلاد ، واستولوا على مقاليد الأمور قد أعربوا عن بعض عطفهم وتسامحهم نحو آلهة السكان القدامى وتقاليدهم .وكانوا فى حقيقة الأمر مضطرين إلى ذلك ، لأنه طالما كان السكان الأصليون موجودين لا يمكن الاستغناء عن جميع عقائدهم القديمة ، بل من الأكيد أن يتجاوبا مع بعضهما ، ويصوغاها صياغة جديدة بعد اخضاعها لسيطرة عقيدتهم . وهو نفس ماحدث بالنسبة إلى آلهة السكان القدامى . وهذا هو السبب فى ان الإله سيفا — وهو الإله القديم للسكان البيض من موهنجودارو — قد طرأت عليه تغيرات فى عصر الدراوديين ، ثم انتقل إلى الآرايين بعد تعديلات طفيفة جديدة . وكانت الإلهة كالى من صميم آلهة الدراوديين . وكذلك كان الإله ڤشنو من أبرز آلهة الدراوديين ، الذى هو الآخر اتسم باللون الأسود . وكذلك كانت الإلهة شكتى من آلهتهم البارزة .

إن الإلهة شكتى لاأثر لها فى كتب الفيدا مطلقا ، الأمر الذى يدل بوضوح عند الباحثين على أنها من الأصل الدراودى. ولما خفت الحروب الحامية ومؤثراتها بين الآريين والدراوديين ظهرت هذه الآلهة كلها بمظهر جديد لدى الآريين وأن الإلهة الأخيرة وهى شكتى تمثل عندهم حيوية الأنوثة .

وهناك إشارات فى كتب الهندوس الأخيرة تدل على حدوث الامتزاج بين آلهة الدراوديين والآريين فى القرون الأخيرة . ولقد قلنا سابقا إن « سيفا » كان من آلهة موهنجودارو ، ثم أصبح إله الدراوديين . قد أبدى الآريون نفورهم الشديد إزاء هذا الإله فى بداية الأمر . ولكنه امتزج فيما بعد بالعقيدة الآرية على الوجه التالى :

تحكى الأساطير أن الإله سيفا كانت تعبده جميع الشياطين والعفاريت . وقد اتسم هذا الإله بالشدة والعنف والخشونة . وأما الإله « داسكا » فهو من آلهة الآريين الذين خلقوا هذا الكون . ولذا كان بينهما عداء شديد . وكانت إبنة الإله داسكا وهى « ساتى » قد أحبت « سيفا » حبا شديداً . وفى حفلة الخطوبة التى عقدت لها لاختيار زوجها من بين الآلهة — وذلك وفق التقاليد الهندوكية لاختيار الزوج — لم يوجه أبوها الدعوة إلى « سيفا » لحضورها . ولما حملت ساتى أكليلا من الزهور لتضعه على عنق من تحبه إعلانا منها عن اختياره زوجا لها بحثت عن سيفا عشيقها . ولما لم تجده بين الحاضرين اتجهت إلى الآلهة فى السماء طالبة منهم العون ، وألقت الزهور فى الفضاء ، فظهر سيفا أمامها فجأة يحمل فى عنقه زهورها . وبهذا عرف أبوها سر العلاقة بينهما ، وتم الزواج أمام الجماهير . ومع ذلك فقد كان « داسكا » يكن كراهية شديدة لختنه . ثم أعلن الحرب ضده قائلا : أنه إله صاحب عيون قرد ، وتزوج من ابنته الجميلة ذات العيون الغزلانية . وأن هذا الزواج قد تم ضد إرادته . ومن المؤسف أن ابنته تزوجت رجلا متوحشا متمرداً عنيفا لايحترم القوانين والمبادىء ، وأن مهمته دائما هى

نشر الذعر والفوضى والارتباط مع العفاريت والأرواح الخبيثة . ويبدو من شكله أنه مجنون فهو عارى الرأس ، أشعث الشعر ، وعلى عنقه قلادة من الجماجم وعظام الإنسان . وهو سيد الشياطين وطبيعته شريرة .

أما « ساتى » — زوجة سيڤا — فقد كانت تحبه حبا جما ، وتبحث عن الوسائل التى تدعم هذا الحب وتضاعفه وتجعله يعبدها ويقدسها . وكانت تتخذ جميع وسائل الإغراء لهذا الغرض . وتحكى الأساطير أن الإله إندرا الآرى المذكور قام يوما بزيارة الإله سيڤا فى جبل « كايلاسى » ، وقدم له الأغانى والرقص ليبعث السرور فى نفسه . فسر به « سيڤا » غاية السرور ، وسأله عن طلباته . فقال له إندرا : طلباتى أن تمنح لى سلطاتك وطاقاتك . فمنحه إياها ، فأصبح أندرا من أقوى الآلهة بسبب هذه الطاقات الجديدة والسلطات .

كالى : لقد ذكرنا من قبل أن الإلهة كالى السوداء اللون الدميمة المنظر التى دخلت العقائد الآرية بعد تخفيف حدة التوتر بين العلاقات الآرية والدراويدية . فلما امتزجت بآلهة الآريين قد اشتركت معهم فى محاربة العفاريت الذين كانوا من أشد أعداء الآريين . وقد دارت رحى الحرب بينهما وبين (لاكتاويجا) سيد العفاريت . وقد خسر (راكتا ويجا) عسكره كله ، فاضطر أخيراً لشن حملة قاضية على (كالى) . فاضطرت كالى هى الأخرى بدورها إلى استخدام سلاحها الممنوع الاستعمال ، وضربته وقضت عليه . فكل قطرة وقعت على الأرض من دمه صارت سببا فى إيجاد آلاف من العفاريت . فتحيرت كالى من هذه الظاهرة ولكنها تغلبت أخيراً على هذه المشكلة بامتصاص دم العفاريت .

دور ڤشنو وسيڤا فى خلق نهر الجنجا المقدس

إن الأساطير الهندية تعرض الإله ڤشنو — الذى كان من الأصـــل الدراويدى وانضم إلى صفوف آلهة الآريين فيما بعد — بصورة غريبة وهى

لوحة (١٣)
الآله ڤشنو ينام على الأفعى

وصفه باللونين الأسود والأزرق . وهو يلبس ملابس صفراء ويركب على عقاب يسمى « جارودا » ويحمل فى يده الأولى صوجاناً ، وفى الثانية صدفة ، وفى الثالثة دائرة ، وفى الرابعة زهرة اللوتس . أما عرشه فى السماء فقد بنى من الذهب ، وقصوره من الأحجار الثمينة .

ان نهر الجنجا فى الحقيقة كان يجرى فى السماء ويسقط ماؤه الصافى على رأس الإله (دروفا) ، ثم على العفاريت السبعة ، وأخيراً يأخذ طريقه إلى البحر . ويجلس ڤشنو هناك على زهور اللوتس وعلى جانبه الأيمن زوجته الجميلة (لاشمى) تلك التى والدت حينما طحن الآلهة أمواج البحار . ثم صب الآلهة على رأسها ماء نهر الجنجا بواسطة ابريق ذهبى على صورة الفيل . وهو رمز الحب والجمال ومجد إله الآلهة .

وقد أرادت الآلهة إنزال الجنجا إلى الأرض ، وقد وجدت عقبة فى طريق تنفيذها هذه العملية وهى أن حجم الجنجا كان يزيد عن حجم الأرض . ولم يكن فى الإمكان أبداً أن تتسع لمياهه . فأرادت الآلهة أن يقل حجمه ، فحمله إله من الآلهة ، فسقط الجنجا على شعر الإله الكثيف المعقد ، وظل يجرى على رأسه عدة أيام جاداً فى البحث عن منفذ للنزول إلى الأرض . فقسمه الإله سيڤا إلى سبعة فروع لكى يسهل نزوله إلى الأرض وتبتلعه بدون عناء . فلما أخذ الجنجا طريقه إلى الأرض حدثت ضجة كبرى وصدر صوت مخيف . وهذا هو الرعد . وسقطت معه إلى الأرض الأسماك والسلاحف ، فخرجت الآلهة كلها لمشاهدة هذا المنظر المخيف ، راكبة على الفيلة والخيول والعربات . وقد فرحت جميع المخلوقات بهذا اليوم السعيد . فسقطت الأنوار على وجه الإله ديڤاس ومن ملابسه وحلاه ، فأنارت السماء كلها ، وهذا هو البرق . وكانت الأسماك والسلاحف فى هذه الآونه تبدو ساطعة بالأنوار وتظهر منها رغوة شديدة القوة والهيجان ، وتتحول إلى طيور بيضاء تطير فوق الماء ، وهذه هى قصة سقوط الماء من السماء على رأس الإله

سيڤا ، ثم نزوله إلى الأرض وتفرعه إلى عدة أنهار وعيون وبرك وأودية .

ومن الجدير بالذكر أن الإله ڤشنو يلعب دوراً كبيراً فى عقيدة التقمص كما سنذكر قريبا . وهذا الإله هو الذى تجسد فى شخصيات أسطورية مثل كرشنا وراما كما سنذكر قريبا .

الآلهة التى ظهرت على تراب الهند

وبالإضافة إلى الآلهة الآرية المذكورة كذلك ظهرت فوق تراب الهند آلهة كثيرة ، وتبدو معالمها لنا من قراءة أواخر كتب الڤيدا ، ومن أشهر تلك الآلهة :

١ — ڤيسا كاراما : وهو إله حاذق مرن فى الأعمال ؛ وهو الذى استخدم الشظايا التى تنتشر من أشعة الشمس ليصنع دائرة منها للإله ڤشنو ورمحا له ، وكذلك اصنع أسلحة أخرى للآلهة الآخرين ، وحراسة الخزائن .

٢ — الإله براجاباتى : وهو إله الذريات والإنسان والكائنات كلها ؛ وقد برز اسمه فى كتب الڤيدا الأخيرة . وقد تطور هذا الإله من إله الشمس « سوريا » المذكور . وقد وصفته كتب الڤيدا بالكلمات الآتية : قد نشأ هذا الإله كما تنشأ الجرثومة الذهبية . فلما ولد أصبح سيد هذا الكون . وهو الذى أبرز السماء والأرض إلى الوجود ومنح الحياة والقوة لجميع الآلهة . وبهذا يكون هذا الإله خالق الكائنات والآلهة والانسان وأعمال الانسان وصفاته والمبادىء والمثل . وقد خلق ، هذا الإله أول ماخلق الماء ، ثم الشمس والكواكب والأرض والحيوانات والإنسان ، وكثيراً من الآلهة على هذا الترتيب . وتحكى الأساطير أنه قدم نفسه قربانا لاظهار هذا الكون ، وبهذا تحلل جسده وروحه فى جميع الكائنات والآلهة والحيوانات والإنسان .

البرهما وتطور مدلولاته الى الكهنة واله الآلهة والطائفة العليا

ان كلمة « البرهمن » و (البراهما) لها مدلولات خاصة فى اللغة الآرية الأولى . لقد أطلقت كلمة (برهمن) على العبادة والصلاة فى بداية الأمر ثم على كهنوت معين وأخيراً على سيد الآلهة ، والملحق على كتب الفيدا الأربعة . وأخيراً على الطائفة المفضلة لدى الهندوس .

وبهذا تكون مادة (البرهمن) سنسكريتية أصيلة لها مدلولات خاصة . ولا علاقة لها باللغات السامية إطلاقا . وقد ظن بعض الباحثين الهندوس والمسلمين أنه نفس كلمة (إبراهيم) — أبى الأنبياء — بمجرد وجود تشابه فى مادة الكلمتين ، وظنوا أن الكلمة السامية هذه قد انتقلت إلى اللغة الآرية . ولكن هذا الرأى بعيد عن الصواب . لأن سيدنا إبراهيم قد سمى فى اللغات السامية الأولى وبالأخص بالعبرية (أبرام) ، والهاء ليست موجوهة فى أصل العبرية بالمرة ، كما تشهد بذلك التوراة حتى الآن . وأن الهاء قد دخلت فى هذه المادة فى اللغة العربية فى العصر الجاهلى . ومن ناحية أخرى فإن أول كتاب آرى وهو (الفيد) الذى وصف جميع الآلهة المذكورة آنفا وصفاتها ومسئولياتها ، كتاب وثنى ، يمثل العقائد الآرية الوثنية البدائية ، ولا نشم فيه رائحه التوحيد إطلاقا أو الفلسفة وما إلى ذلك . وبهذا يستحيل تماماً أن يكون هذا الكتاب من صحف سيدنا إبراهيم كما وهم كثير من الباحثين المذكورين .

وقد جاء فى « البراهمانان » وهو ملحق كتب الفيدا أن الإله براجاباتى هو خالق هذا الكون ، ثم يذكر أن « براهما » إله الآلهة قد ظهر فى الوجود حينما فقست بيضة ، وتكون من الشطر الأعلى لها السماء ، والشطر الأسفل الأرض . وهذا الأمر يجعلنا نقع فى خلط شديد فى تحديد الموجود الأول ، أهو براجاباتى ، أو براهما ؟ وتحكى بعض الأساطير أن براهما هو الموجود الأول . وهو الذى خلق هذه الكائنات ، وهو إله الآلهة وخالق الإنسان وكل شيء فى هذه الدنيا . إذ كان هذا العالم فى البداية عبارة عن ظلام حالك مجهول ، لاشكل له ولا حياة ، ولا وجود فيه ، ثم أنشأ

الوجود الحى الخالد بطاقاته الهائلة هذا الكون بمواد أنارته وأزالت ظلامه ولم يكن فى مقدور أحد معرفة كنه هذا الوجود الحى ، وادراكه ورؤيته إلا بالوجدان . فلما أراد هذا الوجود الحى الذى خلق هذا الكون ، خلق الماء أول ماخلق ووضع فيه بذراً أصبح مثل بيضة لامعة كضوء الشمس . وظلت البيضة على وضعها لمدة عام ، ثم انقسمت إلى شطرين ، الأمر الذى أدى إلى خلق السماء من الشطر الأعلى ، والأرض من الشطر الأسفل : ولما كانت هذه البيضة تحتوى قبل فقسها على البحار والأنهار والكائنات والشياطين والإنس ، فقد ظهرت هذه الإشياء كلها فور فقسها .

وتصف الأساطير « براهما » على أنه يحمل أربعة أوجه ، ويلبس حلة بيضاء ، ويركب حيناً الأوز وحينا آخر الطاووس ، وتارة زهرة اللوتس . وله أربعة أيد ، يحمل فى كل يد منها « القيدا » — الكتاب المقدس — ودائرة ، وقرص الكرم والإحسان .

وقد تزوج براهما من آلهة شهيرة خلقها من نفسه وأحبها من أعماق قلبه وهى « ساراسواتى » تلك التى اشتهرت بإجادة الغناء والموسيقى والتبحر فى العلوم والمعارف ، والتى أنشأت الحروف السنسكريتية . ولها هى الأخرى أربعة أيد ، فى واحدة منها تحمل إكليلا من الزهور لزوجها ، وفى الأخرى تحمل أوراق النخل ، رمزاً للعلوم والمعارف ، وفى الثالثة باقة من الزهور وفى الرابعة طبلة صغيرة وهى أيضا تجلس على زهرة اللوتس ، ويقترن اسمها دائما مع الماء ، الأمر الذى يوحى بأنها كانت من آلهة الماء .

ومن المتناقضات فيما يتعلق بقوة « براهما » وجبروته ، وصفه أحيانا بأنه خاضع لقوة هائلة تفوق قوته وجبروته . وتحكى الأساطير — على لسان براهما — : أنه فى ليلة من الليالى تصور « نارايانا » روح الكون . ونظر من خلال آلاف عيونه الساحرة إلى الكائنات ، وفكر من فوق سطح الماء الذى يحمله الثعبان على ألف قرن . فإذا هو يخر صعقا من قوة الضوء الذى يسطع نوره ، ويعمى بصره ، ويحار عقله . وذلك لأنه وجد

لوحة (١٤)
الآلهة تقوم بطحن مياه البحار

لوحة (١٥)

الآلهة لاكشمى

تفسه أمام الإله (نارايانا) اله الآلهة مباشرة . فسأله براهما : اخبرنى ، ياإله الآلهة : لماذا أنت برىء من المعصية ، فرد عليه (نارايانا) قائلا : لأنى خالق هذا الكون ، ومحطمه ، وخالق آلاف الكائنات غير هذه الدنيا . أنا الروح الخالدة الباقية التى لاتزول ولا تفنى ، وأنا الذى خلقتك من جسدى الخالد.

وتحكى الأساطير أن إله القمر قد ظهر إلى الوجود حينما قامت الآلهة بطحن المياه البحرية وأمواجها الهائجة . ان طحن مياه البحار أهم ظاهرة هندوكية . وهذا إله الذكر وله سبع وعشرون زوجة من الكواكب التى تجاوره .

آلهة الحيوانات والجمادات

وبالإضافة إلى الآلهة المذكورة فقد آمن الآريون بكثير من الحيوانات والجمادات وأضفوا عليها صفات الآلهة ، وحكوا أساطير شيقة حول كثير من الحيوانات والأشجار والأنهار فركعوا أمامها إعجابا بدورها الخالد فى حياتهم ، وتقديراً لخدماتها العظيمة من أجل سعادتهم ورفاهيتهم ومكاسبهم .

وقد جعل الهندوس الثعابين والأفاعى من أهم آلهتهم . وهؤلاء ينحدرون من سلالة الأبطال ، ويقدرون على اتخاذ أشكال الثعابين والإنسان والحيوانات الأخرى ، ويملكون طاقات هائلة . وكان (ناكشاكا) من أهم هؤلاء الآلهة ، فهو الذى يحكم الثعابين تحت الأرض .

حياة الآلهة وصفاتها مثل الانسان

ومن الجدير بالذكر ان الأساطير الهندية تضفى على آلهتها الصفات الإنسانية مثل : الزواج وإنجاب الأطفال ، والخلافات الشخصية والحروب وسكنى القصور ، كما يتقدم فن العمارة فى ملكوتها فى السماء . ومما يدل على ذلك تلك الحروب الدامية التى دارت رحاها بين الإلهة (كالى) ــ الأم السوداء ــ وبين العفاريت . وكانت قصور هذه الآلهة فى السماء تشبه كثيرا قصورنا فى الأرض . لأن الإله راكشاش ذلك الذى يعتبر همزة الوصل بين الإنسان والآلهة كان يملك مدينة جميلة رائعة هائلة . وكانت

هذه المدينة تتخذ أشكالا وألوانا فى كل وقت . وقد بناها آلهة الفن والتعمير ، لأن الآلهة تعشق الفن والبناء والتعمير والجمال والسحر .

عقائد الآريين وتجاوبهم مع الشرق الأوسط

كانت عقائد الآريين فى بداية أمرهم وثنية بسيطة ، شأنهم فى ذلك شأن كل أمة بدوية . ولذلك نجد فى كتاب الرج ڤيدا — أول وأقدم كتاب آرى — أنهم يقدمون صلواتهم ومناجاتهم وابتهالاتهم بين يدى الآلهة ، كما أنهم أعربوا عن شكرهم وامتنانهم للاله إندرا ، ذلك الذى منحهم النصر ، وحارب ضد أعدائهم ، ومكنهم فى الأرض . وكذلك يكون هذا الاله إلى جانبهم ، ينصرهم ويشد أزرهم ويغدق عليهم نعمه وفضله وكرمه .

كان الآريون يخافون من الأمراض ، ويعتقدون أن الآلهة الشريرة هى التى تجلب هذه الأمراض ، ولذلك قدموا لهذه الآلهة أنواعا من الطقوس والقرابين ، شأنهم فى ذلك شأن العراقيين والسومريين واللبنانيين فى نفس هذه الفترة من التاريخ .

ومن ناحية أخرى فقد أضفوا على آلهتهم نفس مشاعرهم الإنسانية وأحاسيسهم. ولذلك اعتقدوا بأن الآلهة تسكن فى السماء وتركب على العربات الفخمة ، وتحمل الأقواس والرماح ، ولا تخرج من مساكنها إلا حينما يحمل اليها الإله أجنى — الإله النار — القرابين والهدايا . لأن هذا الآله يعد وسطا بين الآلهة والإنسان ، وهذه الهدايا والقرابين عبارة عن أنواع من المأكل والمشروبات الشهية مثل : اللبن والزبادى والزبد والقمح والمعز والثيران وما إلى ذلك . ولا يستثنى من هذه المميزات الا بعض الآلهة التى تركب على الأحصنة ، وتأكل الأغذية لينة خفيفة مثل بوشان ، لأنه لا يملك الاسنان ، ويملك سلطات واسعة ، وبعضها أقل من ذلك . والبعض الآخر لايملك إلا سلطات بسيطة . وهذه الآلهة كلها مغرمة بشرب (سوما) .

ومن الجدير بالذكر أن السومريين والأكاديين هم أيضا قد أضفوا على آلهتهم نفس المشاعر الإنسانية وصفاتها . وبهذا يمكن الاعتقاد بأن

الآريين قد تأثروا — أثناء نزوحهم — بهذه العقائد الوثنية لسكان الشرق الأوسط .

الطقوس

وكانت طقوسهم فى هذه الفترة بسيطة جدا . وكان يساعدهم فى أداء هذه الطقوس أربعة من الكهنة ، ومن بينهم (البراهما) ، ذلك الذى ارتفع شأنه فيما بعد ، ولم تكن لهم المعابد فى هذه الآونة ، ولذلك كانت الطقوس تؤدى فى كل بيت وفى كل قرية ، وكان الكهنة — نظرا إلى هذه الظروف — ينتقلون من مكان إلى مكان ، ومن بيت إلى بيت لأداء هذه الطقوس .

كانت التقدمة توضع على النار ، وهى تتكون من الخضروات أو الحيوانات أو شجرة سوما التى كان تعصر ثمارها ، تلك التى تسبب النشوة والسكر . وكان هدف هذه الطقوس كلها هو التقرب الى الآلهة والبلوغ إلى مكان عال عند الآلهة . ولم تكن تتم الصلوات دون هذه الطقوس والمراسيم ؟

تجاوب الآريين مع بعض عقائد الشرق الأوسط

وحينما نزح الآريون من بلادهم فى حدود عام ١٨٠٠ ق.م ، وصلوا إلى الهند مارين بمنطقة الشرق الأوسط . كان الحثيون يحكمون آسيا الصغرى فى هذه الآونة . ومن المعروف أن هؤلاء كانوا فرعاً من الأمة الهندية الأوربية كما قلنا ، ويحكم العراق الاكاديون وهم الساميون . وهو نفس العصر الذى ولد فيه سيدنا إبراهيم فى العراق ، ثم نشر رسالته فى فلسطين ، ومن هنا لا تستبعد ظنون بعض الباحثين أن الآريين ربما اطلعوا على دعوته ورسالته . ولكن الأمر لم يكن كذلك . لأن المناطق الحضارية فى الشرق الأوسط كانت غارقة فى النظام الوثنى الثالوثى إلى الأذقان : وهو أن الملوك — خلفاء الله فى الأرض — ، والكهنة ، والحكام — المنفذون لأوامر الملوك . ولذلك

تأثر الآريين ببعض العقائد الوثنية المنتشرة فى هذه المناطق. وقد نقلوا من هذه المنطقة قصة طوفان نوح المشوهة إلى بلادهم ، وأضفوا عليها بعض خيالهم وصبغوها بصبغة جديدة .

وتحكى أساطيرهم أن « مانو » الذى كان بطل هذه الأسطورة أول إنسان خلق على وجه هذه الأرض . كما أنه أول من قدم القرابين للآلهة . وقد خلق مانو من نفس الشمس . فلهذا يركب على الحيوانات ويتحكم فيها. وقد حدث مرة أن « مانو » كان يستحم فى بركة أو شاطىء نهر فإذا بسمكة صغيرة فى يده تطلب منه السماح بتركها للعيش. فأشفق عليها ووضعها فى جرة ورباها حتى كبرت وقويت . وفى اليوم الثانى لم يكن فى الجرة سعة لتعيش فيها السمكة فحملها مانو إلى بركة فضاقت هى الأخرى بحجمها . فطلبت منه السمكة أن يرميها فى البحر حيث تعيش فى راحة . وهنا تكهنت له السمكة بمجىء طوفان عارم يغرق البشرية كلها . وأرسلت لمانو سفينة كبرى وأمرته بوضع زوج من كل شىء فى الأرض وكذا بذور الأشجار لإنقاذ كل ذلك من الطوفان .

ولم يكد مانو يستمع إلى نصحها حتى طغت مياه البحار وصحبها طوفان عارم وأغرق كل شىء . ولم يكن فى الأرض بصيص من النور وأظلمت الدنيا كلها . وحينئذ ظهر الإله ڤشنوا المتجسد فى السمكة ،وعلى رأسه قرن طويل، وفيه بروج ذهبية كثيرة فشيد مانو سفينته من قرون ڤشنو ، واستخدم الثعابين والأفاعى لربطها كالحبال . وبهذا استطاع انقاذ البشرية والحيوانات والنباتات كلها من الهلاك .

وقد دفنت الأرض تحت ماء البحار بسبب الطوفان واستولت عليها الشياطين فتجسد « ڤشنو » فى صورة حلوف وحشى عنيد تخطى السماء ودخل فى أغوار المياه ، وهجم على الشياطين وسجنها . ثم شد الارض بأنيابه وأتى بها إلى مكانها فوق سطح الماء .

الآخرة

لم تظهر بعد عقيدة التناسخ فى الديانة الآرية ، وكذلك لم يدخل الإله ڤشنو

الذى يتجسد فى الإنسان فى بداية العصر الآرى أو فى عصرا الفيدا على أصح تعبير . لأن ڤشنو كان فى الحقيقة من آلهة الدراودين، ومن أشد أعداء الآريين . ومن هنا نعتقد أن تجسد ڤشنو فى السمكة فى قصة الطوفان المذكورة ، شطرها يرجع إلى عصر حضارة نهر الهند، والشطر الآخر إلى العصر الآرى ، وامتزجت كلتا الأسطورتين ، وتجلتا فى مظهر جديد كما وصفناها آنفاً .

وأما عقيدة الآخرة فى عصر الفيدا فكانت تشبه عقيدة سكان الشرق الأوسط . لأن الأرواح الطيبة — كما جاء فى كتب الفيدا الأولى — كانت تتمتع بالسعادة ، والشريرة تعانى أشد أنواع العذاب . وكانت السعادة هى الجنة حيث كانت الأرواح تنعم بأنواع من المتع وأسباب الراحة والنعيم . وكان هذا النعيم يشبه نعيم الدنيا فى صوره وأنواعه وأشكاله وأمزجته المادية . لأن المأكولات والمشروبات فيها تشبه ما فى الدنيا مثل اللبن والزبد والسمن والعسل وما إلى ذلك . وكذلك يوجد فيها الحب والغناء والموسيقى وشجرة الخلد تلك التى تشبه التين .

وأما العصاة والمجرمون فيدخلون جهنم ، وهى فى الطبقة السفلى الثالثة تحت الأرض حيث يعذب على يدى الإلهين سوما وأندرا اللذين يرميان العصاة فى أعماق جهنم . وهذا المكان الحافل بالاخطار مظلم حالك ، لاتعيش فيه إلا الأرواح الخبيثة والعفاريت .

وهذه الظاهرة تشير بوضوح إلى أن عقيدة التناسخ وهى انتقال الروح من جسد إلى جسد آخر بعد مفارقتها حياة الإنسان — وفق أعمال الانسان الصالحة والسيئة — لم تظهر بعد فى العقيدة الآرية : وهى متأخرة جداً بالنسبة إلى عقيدتهم .

والشىء الوحيد الذى نجده من أبرز معالم العقيدة الآرية فى هذه الآونة هو إحراق الجثث . فقد وجد هذا التقليد منذ بداية أمرهم فى الهند ، الأمر الذى يدل على أنهم قد اتبعوا هذه التقاليد فى موطنهم الأصلى . لأن الهند فى

حضارة نهر الهند كانت تدفن الأموات على طريقة الساميين فى الشرق الأوسط .

ولكن الإحراق فى هذه الآونة لم يتخذ طابعا عاما عندهم ، بل دفن الموتى كذلك كان متبعاً بين السكان الأصليين .

طبيعة ديانة الفيدا

وبهذا تكون طبيعة الديانة الآرية الأولى – كما يصورها الرج فيدا – بدائية وبسيطة للغاية ، لم يتوغل أهلها قط فى أعماق الفلسفة ، ولم يستغرقوا فى التأمل والوجدان ، بل عبدوا كل مظاهر الطبيعة ، وركعوا أمامها خاضعين لها . وكذلك لم تظهر الطبقات فى هذه الآونة ، وكما أن رجال الدين لم تكن فى أيديهم أية سلطة .

كتب الفيدا وقيمتها

إن كتب الفيدا – فى الحقيقة – تتضمن انطباعات الآريين وعقائدهم ومشاعرهم وأحاسيسهم منذ نزوحهم الى الهند . وهى تصور تصويراً صادقاً حياتهم البدائية وعقائدهم البسيطة وآلهتهم الساذجة ومشاعرهم الرقيقة ومخاوفهم الشديدة وبهجتهم المفعمة ، كما أنها تحكى آلهتهم وأدواتهم التى جلبوها من بلادهم مثل الحديد والخيول . وبهذا يعتبر الفيدا تاريخ الفكر الآرى منذعام ١٨٠٠ق . م ولكن هذا الكتاب لم يدون إلا منذ سنة ١٠٠٠ ق . م ، ولكنه مع ذلك كانت تتناقله ألسنة الناس من الكهنة وعامة الناس ، وتحفظه صدورهم ، شأنها فى ذلك شأن كتب اليهود ، ومن بينها التوراة . ويعتقد الباحثون إن التدوين الفنى لهذا الكتاب قد تم خلال سنة ٦٠٠ ق . م ، حينما ارتفعت البلاد إلى المستوى المدنى وقامت الدول المدنية ، وانتهت الحياة البدوية الريفية ونظمها .

وقد ألف الفيدا فى الحقيقة كثير من رجال الدين الآريين باللغة السنسكرتية وبالشعر وبهذا لم يكن للفيدا مؤلف واحد كما لا يمكننا تحديد أسماء مؤلفيه . وهذا هو شأن جميع الكتب الآرية التى سيأتى ذكرها فيما بعد .

وأن الڤيدا يتضمن — فى الحقيقة — عدة كتب ، وأولها : « الرج ڤيدا » وهو أقدم كتاب ، سجلت فيه جميع عقائد الآريين البدائية . وفيه صور واضحة للآلهة القديمة التى جلبوها من موطنهم الأصلى ، وحددوا فيه وظيفة الإله اندرا كبير آلهتهم . وبالاضافة إلى ذلك نلمس فيه أحاسيسهم وانطباعاتهم حينما انتصروا على عدوهم اللدود وهم الدراوديون . ولذلك تصف بعض أبيات الرج ڤيدا هذه الظاهرة على الصورة الآتية : إن الإله إندرا حطم القلاع والحصون وأحالها إلى حطام وأطلال ، وقضى على عدوهم الأسود اللدود .

وكذلك نجد فى الرج ڤيدا اشارات إلى نفور الآريين من تقاليد السود وطقوسهم ، ومحاولتهم القضاء عليها . وهنا اختلف الباحثون . يقول بعضهم : إن الآريين قد أعربوا عن نفورهم الشديد وكراهيتهم البغيضة ازاء ديانة الداروين وتقاليدهم ، ولذلك حاولوا القضاء عليها قضاء مبرماً . ويرى البعض الآخر أن الآريين لم يكرهوا إلا التقاليد الفاحشة فقط مثل عبادة فروج الذكر والأنثى . وأما الطقوس الأخرى فلم يمسوها بسوء . وفى نفس الوقت اضطر « الرج ڤيدا » إلى الإعتراف — فى بعض أبياته — ببعض النواحى العظيمة فى الديانة الدراودية التى توارثوها عن أصحاب حضارة نهر الهند الأصليين البيض . وهى عقيدة كون الملوك خلفاء الأرض والحياة الكهنوتية المنظمة المنسقة الفلسفية على نفس أساس ديانة السومريين :

إن كلمة « الرج » تطلق على الأشعار ، والڤيدا على المعرفة . ويقصد بكلتا الكلمتين « أناشيد المعارف الروحية » . إن هذا الكتاب قد خصصه الكهنة فيما بعد لأداء الطقوس فقط ، ولا للقراءة والفهم ، ولذلك ظلوا يحفظونه عن ظهر قلب ، ويرددون أبياته ويرتلونها فى أمور الطقوس والمراسيم دون فهم ووعى . ولم تبدأ دراسة هذا الكتاب إلا منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وذلك حينما ولع العلماء الأفرنج بدراسته وترجمته ، لأنه أقدم وأهم كتاب بالنسبة إليهم أيضاً ، إذ أنهم هم الآخرون ينتمون إلى الأصل الهندى الأوربى ، وبهذا يكون هذا الكتاب أول سجل تاريخى وفكرى للعنصر الآرى كله سواء أكان فى الهند أو فى إيران أو فى أوربا كلها .

ثم ألف « الآثرڤيدا » ، ثم « الساماڤيدا » ، (والياجورڤيدا) . وأخيرا ألحقوا إلى هذه المجموعات كلها كتابا آخر كذيل لها وهو (البرهمانان) ، وهو كتاب متأخر جدا .

تفوق طبيعة الكهنوت وظهور الطبقات

إن الديانة الآرية البسيطة التي آمنت بأنواع من الآلهة قد ظلت سائدة فى البلاد كلها منذ نزوحها حتى نهاية عام ٨٠٠ ق م ، ثم حدث تطور هام ، وهو أن طبقة الكهنوت التي ظلت تمارس أعمال الطقوس والمراسيم دون اعتراف بأى تفوق لها على الأجناس الأخرى من الناس ، قد قفزت قفزة مفاجئة إلى القمة والمجد وفرضت نفوذها على الشعب كله ، وأجبرته على الاعتراف بتفوقها وامتيازها على جميع الأجناس الأخرى من الآريين . وقد استطاعت هذه الجماعة الكهنوتية التي سميت منذ القدم بالبراهما فرض سيطرتها ونفوذها فصعد نجمها منذ ذلك الحين وأصبحت فى قمة الطبقات البشرية فى الهند ، وقد حدث ذلك خلال عام ٧٠٠ق م تقريبا .

وقد أدخلت هذه الطبقة المفضلة نظريات ومبادىء جديدة إلى العقيدة والطقوس وهى التى خلقت الاله براجاباتى المذكور ذلك الذى لم يكن له وجود من قبل . قد وصفته بأنه رئيس الآلهة وخالق الكون ، ذلك الذى قدم نفسه قربانا لبقاء هذا الكون واستمرار الإنسانية . فتقطع جسده من جراء هذا القربان إربا إربا ، وتغلغلت كل قطعة منه فى نظام هذا الكون لبقائه واستمراره . ثم ظهر « براهما » إله الآلهة المذكور . وكان ظهوره فى الحقيقة عجبا من العجائب لأن بيضة ذهبية قد فقسمت وظهر منها (براهما) وفى نفس الوقت تكون من الشطر الأعلى للبيضة السماء ومن الشطر الأسفل الأرض . وبراهما هو الذى خلق الإنسان والكائنات كلها مثل الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال .

وقد سجلوا هذه المبادىء الجديدة وأسسها كلها فى كتاب سموه (البراهمانان) ، ذلك الذى ألحقوه مؤخرا إلى أصل كتب الڤيدا كما قلنا .

وذلك خلال عام ٧٠٠ ق م تقريباً .

لقد اخترعت هذه الطبقة المفضلة طقوسا ومراسيم كثيرة ، بعضها كانت تستمر أسبوعا كاملا وبعضها شهورا وبعضها سنة كاملة مثل قرابين الخيول التي كانت تستمر طوال العام . وبهذا جعلت الناس يتقربون إليها زلفى ويحتاجون إليها فى كل الشئون ويضطرون إلى طلب عونها ومساعدتها فى كل الأعمال سواء أكانت فى الطقوس أو الزواج أو الموت وما إلى ذلك . وبهذا إنكمشت حريات الناس واتسع سلطان الطبقة الكهنوتية .

وحينما لاح تحول الحياة البدوية والنظام القروى البسيط إلى طور مدنى ، وظهور مدن صغيرة على ضفاف نهرى الجنجا والجمنا كان من الطبيعى ظهور دول اقطاعية كثيرة ، يحكمها الاقطاعيون الآريون . ومن ثم تحول الآريون — رعاة الغنم والخيول — إلى الحياة المدنية الأولى ، وسارعوا إلى ممارسة كثير من الأعمال الزراعية والصناعية فى البلاد ، تلك التى كان يشغلها السكان الأصليون حتى الآن . وفى مثل هذا التحول الكبير فى الحياة الآرية واجه الكهنة ظروفا جديدة ومطالب عصرية تتطلب المحافظة على التفوق الجنسى الآرى المتغلب الحاكم ، ووظيفة الكهنة المستقلة المستبدة الطاغية على جميع الطبقات والعناصر . ولذلك قسموا سكان البلاد إلى جماعات وفق الوظائف والمهن ، وأعطوا الأولوية للجنس الآرى الأبيض ، وقرروا المكانة السفلى للسكان الأصليين السود . فقد خصصوا للآريين الوظائف السامية تلك التى أصبحت من سماتهم البارزة فيما بعد وخصائصهم الجنسية ، وأعطتهم الدرجات فى المجتمع الآرى وفق الترتيب الآتى : البراهمة ، وهم رجال الدين والكهنة ومهمتهم إدارة شئون المعابد والآلهة وسن القوانين والإشراف على التعليم والتربية وأداء جميع المراسيم الدينية وطقوسها فى المعابد وفى خارجها . وأصبح هؤلاء فوق جميع الطبقات والمختصين بإله الآلهة وهو (براهما) ، ثم صنعوا اسطورة تثبت تفوقهم على جميع الأجناس ، زاعمين أنهم

ولدوا من رأس « براهما » . (٢) كشاترى ، وهم الفرسان وقواد الجيش والأشراف . (٣) ڤايساس : هم التجار والمزارعون وأصحاب المهن . (٤) سودار : وهم المنبوذون ، أصحاب المهن الحقيرة . مثل : الكنس والنظافة ، وغسل الملابس ، وتنظيف الجلود ، لأنهم من الجنس الدراويدى الأسود .

وقد سنت الشريعة الهندوكية المتمثلة فى كتاب « قوانين مانو » الذى ألف فى عام ٢٠٠ ق . م قوانين ثابتة لهذه الطبقات ووظائفها وأعمالها ، بحيث أصبح من المستحيل الحيدة والتنصل عن هذه القوانين واللوائح .

ووفق هذه القوانين واللوائح فرض على كل طائفة أن تعيش فى إطار جماعتها وتكون مجتمعاً منفصلا فيما بينها ، بحيث يتم الزواج والتناسل والحفلات فى نفس الإطار الطبقى . وقد طبقت هذه القوانين حرفيا وبحذافيرها بحيث لم يكن فى مقدور أحد أن يأكل أو يشرب لدى طائفة أخرى ، وكذلك خصص لكل منها طقوس ومراسيم وتقاليد ومدارس ومعابد . ومما لاشك فيه أنه حدثت فى بعض الأحيان مخالفات فى تطبيق هذه القوانين ، ولاسيما فى الطبقات الثلاث الأولى ، ولكنها لاتعد ولاتحسب بسبب ندرتها . وقد دعت الظروف فى بعض الأحيان إلى أن تخرج الطبقتان الثانية والثالثة عن الإطار المفروض لها ، وتتزوج وتتناسل فيما بينها وتشرب وتاكل وتتبادل الوظائف والمهن ، ولكنها قليلة للغاية ، ولا تدخل فى إطار قانون عام .

وإذا كان هذا النظام طبقياً بالنسبة إلى الجماعات الثلاث الأولى ، فإنه كان عنصريا بغيضا بالنسبة إلى الطبقه الرابعة — طبقة المنبوذين — التى حرمت من جميع أنواع السعادة والنعيم والحرية فى الحياة ، وخصصت لها وظائف حقيرة دنيئة بحيث لا يمكنها تجاوزها إلى الأبد .

ثم اخترع الكهنة لاستحكام هذه القوانين الصارمة الظالمة وتحصينها وتثبيتها وترسيخها عقيدة تسمى « التناسخ » تلك التى تقنع هذه الجماعات

كلها بأن هذه الطبقات ظهرت من جراء أعمالهم فى الحياة الأولى ، ونتيجة لها ، كماسنذكر مبادىء عقيدة التناسخ قريبا ان شاء الله . وقد جاء فى كتاب « قوانين مانو » المذكورة آنفا أن هذه الطبقات الأربعة كلها خرجت من جسد براهما — إله الآلهة وخالق الكون — ، بعضها من رأسه مثل البراهمة — الطبقة العليا المفضلة — ، وبعضها من أعضاء أخرى ، وخرج المنبوذون من رجله ، ولذلك اتسموا بالدناءة والحقارة والذلة والمسكنة . ونتيجة لكل هذه الأمور انتشر بين الهندوس — على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم — الزواج منذ الطفولة نظرا إلى أن الزوجين لا يمكنهما تجاوز حدود طبقتهما على أية حال ، وأن هذا مقدور من الله منذ الأزل نتيجة لأعمالهم فى الحياة الأولى .

ومع أن هذا النظام الطبقى العنصرى الذى صنعه الكهنة كان لعلو شأنهم وتوكيد سيطرتهم ونفوذهم وتحقيق مآربهم الشخصية ، إلا أن جميع الطبقات الآرية قد اقتنعت به فى بداية الأمر ، وعلى مدار الزمن — باستثناء بعض الحالات الشاذة — وذلك لأن هذه النظرية مهما كانت فيها أضرار إنسانية واجتماعية ونفسية ، فإنها تضمن لهؤلاء الآريين بالذات منافع مادية كثيرة ومصالح عنصرية عديدة : كما تحقق لهم شهوة البقاء على السيطرة والنفوذ فى اقتصاد البلاد , لأنهم هم الذين كانوا مسيطرين على مقادير البلاد ، وهم الذين كانوا يزاولون شئون التجارة والزراعة والصناعة . وأما المنبوذون فلم يكن لهم نصيب فى خيرات البلاد ومواردها ومجالاتها بل وظيفتهم لا تعدو أن تكون خدمة للجنس الآرى . وكذلك فرضت على هؤلاء ضرائب عنصرية يدفعها كل فرد منهم إلى الحكام الآريين بمجرد كونهم من الرعايا المحكومين المنبوذين من المجتمع الآرى . فى حين أعفيت من هذه الضرائب جميع الفئات الآرية .

ولكن الكهنة أو البراهمة — على الرغم من اعتقادهم بأنهم فوق جميع البشرية — لم يعترف بسلطاتهم كثير من الآريين من الطبقة الثانية والثالثة ،

بل هؤلاء الناس وهم من الطبقة الثانية والثالثة هم الذين تولوا مقاليد الأمور فى البلاد ، ومنهم كان جميع القواد والعساكر والحكام ، ولذلك انحصرت وظائف البراهمة فى الطقوس والمراسيم والمعابد فقط . ومن ناحية أخرى فإن هناك إشارات فى التاريخ الآرى لهذه الفترة إلى أن بعض الآريين لم يؤمنوا بتحديد الوظائف ، ولذلك انتقلوا من وظيفة إلى وظيفة أخرى وتبعا لذلك انتقلوا من طائفة إلى طائفة ، عدا المنبوذين الذين لم يكن لهم حول ولاقوة .

عقيدتا كارما والتناسخ وصلتهما بالنظام الطبقى

إن تغلغل الإنسان فى الوجود الحى الحقيقى جسداً وروحا — وفق نظرية وحدة الوجود — هو الهدف المنشود . ولكن هذا الأمر ليس بميسور . بل يحتاج إلى جهود ومحاولات عديدة . وينبغى للانسان قبل الوصول إلى هذه الغاية أن يقطع مراحل عديدة وينتقل من طور إلى طور ، ومن جسد إلى جسد ، وهذا مايسمى بالتناسخ . إن الروح إذا حبست فى جسد واحد إلى أمد بعيد تشعر بالملل والإرهاق ، وتحاول التحرر والانفصال لتنطلق فى آفاق فسيحة رحيبة . وذلك لكى تدخل فى جسد آخر وتولد من جديد . ولكن هذه الحياة الجديدة اما أن تكون سعيدة أو شقية ، وذلك وفق أعمالها فى الحياة السابقة . إذا كانت الأعمال حسنة فى الحياة الأولى سوف تسعد فى الحياة الثانية ، وإذا كانت سيئة ، سوف تشقى . وبهذا تكون الحياة الثانية ثماراً للحياة الأولى ، ونتيجة لأعمالها . وهذه الأعمال ومجازاتها بالخير والشر تسمى فى الهندوكية « كارما » (Kurma) وهذه العملية — أى انتقال الروح من جسد إلى جسد على أساس كارما — تتكرر ويستمر تكرارها حتى ينتهى هذا الدوران يوما من الأيام . إن كل حركة أو عمل أو كلام أو خاطرة لايذهب سدى ، بل يسجل ويحفظ ، وتترتب النتائج عليه فى المستقبل . إن كل سرور وبهجة وحزن وألم فى الحياة الراهنة يكون نتيجة الأعمال السابقة ، ثم تجنى الثمار فى المستقبل وفق الأعمال فى الحياة

الحالية . إن الإنسان لايجنى الثمار فى الحياة القادمة إلا وفق البذور التى بذرها فى الحياة الراهنة ، ولا يمكن أبداً أن يزرع الإنسان القمح ويحصد الأرز . وحينما يولد من جديد لامانع من أن يتحول إلى إنسان عظيم ؛ أوخادم أو كلب أو منبوذ .

ثم شرح كتاب « مانو سمرتى» المذكور الذى بدىء تأليفه منذ القرن الثامن قبل الميلاد نظرية التناسخ بصورة علمية على الوجه التالى :

« تترتب النتائج والثمار على الحركات والأعمال التى تصدر من الإنسان. ولا تذهب أية حركة عبثا ، ولا يذهب أى عمل سدى . وهى كلها على ثلاثة أنواع : الأعلى والأوسط والأسفل .

إن العقل لا يكون بعيدا عن كل الحركات والأعمال التى تصدر من الجسم وأعضائه ، بل هو العامل الحقيقى ، وهو الذى يحمل على الإتيان بها . إن الشهوة فى ممتلكات الناس وثرواتهم ، والتفكير بسوء فى حق أحد وحمل الناس على الأعمال السيئة هذه كلها من أسوأ الأعمال وأخذاها وهى التى يرتكبها العقل وكذلك تعتبر الشتائم والكذب وإنكار حقوق الناس وإحباط قيمة أعمالهم وجهودهم والحط من شأنها ، وغض النظر عنها ، وحياة الكسل والبطالة من الأعمال الدنيئة التى تقترفها النفس الدنيئة والقلب الأسود . وأما تعذيب مخلوقات الله بدون حق ، واغتصاب أموال الناس والتمتع من زوجات الآخرين فهى مما يرتكبه الجسم وأعضاؤه .

ونتيجة لهذه السيئات التى ترتكبها الأعضاء الثلاثة فى الإنسان يترتب مصير الإنسان فى الحياة المقبلة . إن السيئات الذهنية والعقلية الأولى مجازاتها أن يولد مذنبوها فى أسرة المنبوذين فى الحياة القادمة ، وان الذنوب النفسية والقلبية جزاؤها أن يولد مرتكبوها طيورا وحيوانات وبهائم . والذنوب الجسمانية فجزاؤها أن يولد مقترفوها جمادا لاحياة فيه مطلقا ، ولن يموت أبداً » .

ومن الجدير بالملاحظة ان الجزاء العقلى الأول قد وضعه الكهنة بدقة وبراعة ومهارة فائقة وتفكير عميق ، حتى لايحسد المنبوذون فى الكهنة والطبقات العليا من الآريين ولا يحقدون عليهم ، ولا يحاولون حتى مجرد التفكير فى النيل منهم والثورة عليهم ، بل يقتنعون بالوضع الراهن وأنه حدث من جراء أعمالهم العقلية والذهنية الفاسدة فى الحياة السابقة ويحاولون الآن تدارك الأخطاء السابقة والذنوب المرتكبة ضد الآريين التسابق فى خدمة هذه الطبقات المفضلة عليهم ومناصرتها وطاعتها لكى يصبحوا أمثالهم فى الحياة المقبلة .

فلسفة نفي الذات أو الحلول أو وحدة الوجود من خلال كتاب اليوبانيشاد

ان ظهور الاله براهما بالطريقة المذكورة وسلطاته العليا مهد السبيل لظهور نظرية وحدة الوجود فى الفكر الآرى ، وذلك لأول مرة فى التاريخ الإنسانى . ووفق نظرية وحدة الوجود فان الإنسان والحيوانات والكائنات كلها أجزاء أو شظايا لبراهما ، ذلك الذى يخلقهم جميعا .

وبهذا يكون براهما والكائنات كلاهما شيء واحد ووجود واحد ولن يتصور وجود الإنسان والكائنات خارج وجود براهما . وبهذا يكون هو سيد الكون وفق هذه النظرية ، ثم أن الله سبحانه يكون واحدا إذا تصورنا وجوده منفردا ، ويكون مركبا من أجزاء إذا أضفنا إليه الإنسان والمخلوقات والكائنات كلها .

وهذه النظرية قد اتخذت أعظم المظاهر العقائدية فى الفكر الآرى خلال عام ٦٠٠ ق . م تقريباً ، وسجلت فى كتاب شهير سمى « اليوبانيشاد » .

اصحاب نظرية وحدة الوجود

إن المفكرين والرهبان قد اتخذوا الجبال والغابات مسكنا لهم وانشئوا فيها ديارهم ليعيشون فيها بعيدين عن زخارف الدنيا وضوضائها . وهنا كرسوا

كل الجهود فى التأمل فى الله بعد أن تركوا الوثنية وملوا وتعبوا وضاقوا ذرعاً بكثرة الآلهة ، وذلك ليتوصلوا إلى المعرفة الحقيقية ويستطيعوا من خلالها فهم الله وعلاقته بالكون والإنسان ، وهدف الإنسان ومهمته فى هذا العالم ، وواجبه نحو الله سبحانه . وهذه التجارب كلها من خلال التأمل والتفكير والجهاد النفسى قد أدت إلى ظهور التصوف فى مظهر وحدة الوجود فى الفكر الآرى :

ويعتقد الباحثون أن هذا التطور الجديد فى العقيدة الهندوكية كان من جراء ردود فعل عنيفة ضد الوثنية الغارقة من جهة ، وضد سطوة الكهنة وقرابينهم وطقوسهم ومراسيمهم الفاشية من جهة أخرى . ومن أجل ذلك قاد هذه الحركة صفوة من المفكرين والرهبان الآريين الذين لم ينتموا إلى العوام ولا إلى الكهنة ، بل هجروا العالم كله ، واتخذوا الغابات والجبال ، مكان التأمل والاستغراق للوصول إلى هذه الغاية المنشودة ، ثم شيدوا فيها أديارهم ليستقر بها المقام إلى الأبد .

وهؤلاء الرهبان هم الذين سجلوا انطباعاتهم وتجاربهم الصوفية فى سجل سموه « اليوبانيشاد » ، ومعناه « الجلوس فى صحبة الأساتذة » . ويقصدون بذلك أن هذه المجموعة هى عبارة عن تجارب روحية تجمعت من خلال اجتماع الطلاب الروحانيين مع اساتذتهم المتصوفين القديسين .

الكهنة ووحدة الوجود

ولما نالت التجربة الصوفية صدى كبيرا بين الناس ، لم يرض الكهنة أن يعيشوا بعيدين عنها ويرفعوا أعلام المعارضة ضدها خشية تحطيم نفوذهم . بل حاولوا التماس العون من الرهبان وأصحاب الأديرة فى الغابات ليعيشوا بفيض معارفهم الالهية . فتجاوبوا معهم ، وآمنوا بمبادئهم واسسهم ، ثم أدخلوها فى العقيدة الآرية ، وصبغوها بصبغة جديدة تطابق روح التطور فى المجتمع الآرى من جراء حركة وحدة الوجود ، وأغراضهم الشخصية فى صيانة المعابد والحفاظ على الطقوس والمراسيم تلك التى تدر عليهم مكاسب هائلة ومنافع جمة ، ثم تحقيق

أهدافهم فى فرض سيطرتهم على الناس من جديد فى أسلوب جديد ومظهر أنيق بهيج خادع . فأعلنوا فى معابدهم أمام الجماهير أن هذه التجربة الصوفية صحيحة : ولا تعارض الوثنية ، ولا تنكر براهما وجبروته ، بل هذه التجارب بدورها تلتمس من الكهنة والمعابد ، لأن بعض أنواع الطقوس والقرابين مثل قربان الخيول تساعد على الوصول إلى وحدة الوجود فى أسرع وقت وأسهل طريق . وبهذا مزجوا العقيدة الصوفية الصافية النزيهة بالقرابين والمراسيم والمعابد بالوثنية الطاغية التى تستبد بعقول الناس وتسخرهم لأغراضها .

وقد سجلوا هذه العقيدة الجديدة فى كتاب « الشاندوبجيا يوبانيدد » والحقوها بأصل اليوبانيشاد ، كما فعلوا من قبل حينما ألحقوا كتاب « البراهمانان » إلى أصل كتب الڤيدا .

اليوجا

إن اليوجا فى الحقيقة تجربة عملية لتهذيب النفس وتدريب جسمانى لتصل الروح إلى السمو والارتفاع بعد التخلص من القيود الجسمانية وأثقالها ومتاعبها . وهى توجه عناية كبيرة إلى كل من العقل والجسم ، وتمر بأقصى مراحل التدريب العقلى والجسمانى ، وذلك — بالاضافة إلى تنمية الروح والجسد وتوفير أسباب الصحة والحيوية لهما — فى هدف التحرر من جميع القيود التى تربط الإنسان وتحجبه عن رؤية الحقيقة العليا أو « براهما » . وهذه التجربة لا تؤمن أساساً بالعلم والمعرفة ، ولا تكرس الجهود للحصول على نصيب منهما ، بل جل عنايتها حمل الناس على ممارسة تدريبات ورياضات مخصوصة لها ، وضعت فى مدارج ومستويات . ولم يتقيد اليوجا بأنواع محددة من التدريبات والتمرينات ، بل فتحت المجال لكل جديد يساعد على عمليتها ، ويسهل الطريق لبلوغ الهدف الأساسى . ومن هنا آمنت اليوجا بكثير من التجارب التى تضغط النفس ، وتقتل الطموح وتمنع الشهوات وتقضى عليها .

وقد ذكر كتاب « مانو — سمرتى » عقيدة اليوجا ، ذلك الكتاب الذى ظهر خلال القرن الثامن قبل الميلاد فى باب خصص لقوانين انكار الذات

والتدريب عليها عمليا . ووفق ماجاء فى هذا الكتاب تنقسم حياة الإنسان إلى أربع مراحل : المرحلة الأولى الطفولة والثانية الشباب ، والثالثة الكهولة ، والرابعة الشيخوخة . يدعوا الكتاب الراغبين فى اليوجا إلى ممارسة تجربة نفي الذات فى المرحلة الثالثة من الحياة ، حينما ينتهى الإنسان من أداء معظم واجباته الشخصية . وهو ينتهى قطعا فى هذه المرحلة من الزواج وإنجاب الأطفال ، وأداء الطقوس والقرابين والواجبات الدينية والذكاة والصدقات كلها . وهنا يحتاج إلى التنسك والتبتل لنيل خلود الآخرة ونعيمها بعد مفارقة الروح الجسد . وهذا الأمر ليس بسهل ، بل يحتاج من يسلك طريقه إلى ممارسة تجارب روحية شاقة وتدريبات جسمانية صعبة ، وينبغى له أن يغادر بيته وأهله وكل شيء يملكه متوجها إلى غابة ، هائما على وجهه فى وسط أدغالها وبين وحوشها ملتمسا ظلا يلتقط تحته أنفاسه ، ويعيش معتكفا ومتعاملا ومستغرقا ، يعانى جميع أنواع التعب والمشقة لتنقية الروح وتحريرها من القيود الجسمانية ومعوقاتها فى الوصول إلى الهدف المنشود . وهنا لن تكون له خيمة تظلله ولا نار تعد الطعام له ، ولامعينا يعينه بل يكون وحيدا فريدا ، بعيدا عن كل الشهوات واللذات ونعيم الدنيا وزخارفها . وإذا ضايقه الجوع يقوم ويتجه إلى أقرب قرية ليلتمس الطعام ويشبع به بطنه . ولا ينبغى له أبدا أثناء هذه التجارب أن يتمنى الموت أويشتهى الحياة ، بل يتوقف وينتظر بلوغ الهدف ، شأنه فى ذلك شأن كل موظف ينتظر مرتبه عند نهايةالشهر . إنه لن يخطو خطوة على بساط الأرض إلا على نور وضياء ، ولا يشرب قطرة من الماء إلا بعد تصفيتها بغربال من القماش الغليظ ، ولاينطق بكلمة إلا أن تكون مصفاة . ونقية ، ونابعة من أعماق القلب ، وسيكون قلبه نزيها طاهرا صافيا دائما . ويمارس هنا تعاليم اليوجا التى تطهر القلوب وتذكى النفوس ويجلس ويتأمل ويستغرق فى التفكير على طريقة اليوجا ، ولا يجلس إلى جانبه أحد

يساعده ويعينه فى شئونه ، ويمتنع عن جميع الشهوات واللذات كلية ، ولايكون همه ورغبته إلا التحرير من القيود الجسمانية للوصول إلى البغية والمعرفة الحقيقية .

ومن الجدير بالذكر أن تجارب اليوجا لم يزل يمارسها الرهبان والنساك فى الغابات والجبال على نفس الطريقة للوصول إلى نفس الغاية . ولكن أوربا قد أعجبت بها فى القرن العشرين وبدأت تمارس الحياة اليوجية من الناحية الصحية والرياضية فقط بعد تجريدها من النواحى الروحية ، تلك التى من أجلها ظهرت اليوجا على مسرح الوجود خلال عام ٨٠٠ق م تقريبا . ونجد الآن فى أوربا وفى كثير من بلدان آسيا وأفريقيا تأليف الكتب فى اليوجا ، ويتشوق إليها الناس ، ويميلون إليها ميلا شديدا ، وكل ذلك كرياضة جسمانية فحسب .

التقمص أو التجسد

إن جميع التطورات والتجديدات التى حدثت فى الديانة الآرية منذ عام ٨٠٠ ق.م إلى عام ٤٠٠ ق.م ، كان رودها المفكرون الآريون ، وهم كانوا أصحاب الفكر والتجديد فى كل عصر . ولكن طبيعة الظروف وتقدم الحضارة فى شتى المجالات ساعدت الدراوديين على تطور ثقافتهم وتنمية أفكارهم ، وإشعال مواهبهم ونبوغهم . ومن جراء ذلك ظهرت عقيدة التقمص أوالتجسد عندهم لأول مرة فى التاريخ ، وهى عبارة عن تجسد رب العالمين فى جسد إنسان ، ويتجلى فيه لهداية البشرية . وهى تسمى بالسنسكريتية واللغات الهندية « أوتار » .

قد اتفق جميع الباحثين أنها ليست آرية بالمرة ولا توجد بوادرها فى أى كتاب من من الكتب الآرية المشهورة التى ألفت حتى هذه الآونة . ولذلك اعتقد الباحثون أنها إيرانية انتقلت الى الهند . ولكن هذا الرأى لا يستند على دليل ، بل يبدو خاطئا ، لأن هذه النظرية لم تظهر فى الزرادشتية الإيرانية الا فى القرون الميلادية الأولى ، وبهذ تكون قد انتقلت إليها من الهند .

واننا نرى أنها عقيدة دراويدية بحتة لأسباب عديدة :

أولا : أن الإله ڤشنو ، هو الذى يتجسد فى الشخصيات الأسطورية . وهو كان سيد الآلهة ورب العالمين عند الدراوديين منذ القدم . وكان موجوداً حتى فى حضارة نهر الهند كما ذكرنا من قبل ، ولذلك اتسم باللون الأسود : ومن المعروف أن « براهما » كان سيد الآلهة ورب العالمين عند الآريين منذ ارتفاع سيطرة الكهنة خلال عام ٨٠٠ ق . م ، ولم يكن عندهم أى اعتبار للإله ڤشنو . وإذا نال ڤشنو مكانة براهما فجأة ، فمعناه أنه تطور مفاجىء طرأ لدى الدراوديين فى هذه الآونة كرد فعل لتسلط الآريين وأصبح ڤشنو متحديا لبراهما وسلطاته وسيطرته ؛ لأن براهما هو الذى حط من شأن الدراوديين ووضعهم فى قائمة أسفل السافلين من بنى آدم .

وثانيا : أنه قد تجسد فى بداية الأمر فى الشخصيات الدراودية مثل « ڤاسوديوا » — البطل الأسطورى الدراويدى — ، والإله نارايانا ، الإله العام الذى يجلس على رأس الأفعى . ثم تجسد فى ملحمة الرامايانا فى « راما » — بطل الملحمة — . وفى ملحمة « المهابهاراتا » فى كرشنا . ومن المعروف أن كلا من راما وكرشنا كانا من ملوك شمال الهند أصلا وشخصياتهما البارزة كما تصورهما الملحمتان ، إلا أنهما يعرضان فى نفس الوقت باللون الأسود ، الأمر الذى يجعلنا نشك فى أصلهما ، أو أن نعتقد على الأقل أن أصلهما يرجع إلى امتزاج العنصرين الآرى والدراويدي ، كما تم هذا الامتزاج — بعد تخفيف حدة الخلافات — بين الآلهة مثل سيڤا وكالى وڤشنو كما قلنا .

وثالثا : أن حركة بهاكتى التى ظهرت فى الدراوديين كرد فعل ضد الديانة الآرية الكهنوتية قد اتخذت « كرشنا » المتجسد فيه ڤشنو ، إله الآلهة والذى يلتمس منه العون والعطف والحب . وهذه الظاهرة هى الأخرى تشير إلى أن التجسد عقيدة دراودية صميمة .

وفى بداية الأمر قد تجسد ڤشنو فى كثير من الشخصيات الأسطورية

المذكورة ، وكذلك تجسد فى كثير من الحيوانات مثل السمك والتمساح والخنزير والأسد والقزم . وذلك كله لمساعدة الناس بشتى الطرق والوسائل أثناء محنهم وآلامهم لإنقاذهم من ويلاتها . وكذلك تجسد ڤشنو فى بوذا فى القرون التالية . وبهذا كثر تجسده فى الأشياء المذكورة ، ولكن هذه الكثرة قد اتحدت فيما بعد فى واحد ، وأصبح كل من راما وكرشنا ونارايانا إلها واحداً . ثم أصبح ڤشنو فى النهاية مرادفا للإله الرئيسى وهو الله .

أن عقيدة التجسد الدراويدية نالت شهرة كبيرة فى الهند ، وغطت شهرتها جميع العقائد والاتجاهات ، حتى اضطرت الكهنوتية الآرية إلى الاعتراف بها والتجاوب معها . ومنذ ذلك الحين احتل ڤشنو مكان الصدارة لدى الآريين وحل محل براهما ، كما أصبح كل من راما وكرشنا إلهين عظيمين تجسد فيهما ڤشنو . وهذه النظرية هى التى كتب لها النصر والخلود والبقاء والاستمرار فى الديانة الهندوكية التى تشكلت فيما بعد ، وهى سارية المفعول حتى الآن .

ومن الجدير بالذكر أن اليونان حينما اتصلت بالهند عقب غزوات الاسكندر على الهند ، وتوطدت العلاقات بين الهند واليونان فى شتى المجالات أخذت فكرة التجسد السائدة فى الهند آنذاك وأدخلتها فى عقيدتها . فانتقل الإله ڤشنو عندها لينال نفس التقدير والإعجاب وكذلك أصبح الإله هليودوروس (Heliodorus) رمز التجسد ، كما انتقلت كذلك هذه النظرية إلى إيران بعد زرادشت .

ومن الجدير بالملاحظة أن عقيدة التجسد ليست بدعا أو مبتكرة بل هى نفس العقيدة الوثنية التى أخذت هذا المظهر الجديد لدى الدراوديين فى هذه القرون . لأن الوثنيين فى كل عصر وزمان قد منحوا لكل صفة من صفات الله صورة إنسانية ، وأضفوا عليها صفات إنسانية وهذه هى الآلهة . إن قدرة الله ورحمته وجبروته قد تجسدت فى صورة إله فى كل أمة من الأمم ،

مثل « البعل » عند الساميين ، وإندرا عند الآريين الهنود ، وجوبيتر عند اليونانيين . وقد عرضوا هذه الآلهة فى صورة الإنسان وسيرته ، ولكن الدراوديين حينما أعجبوا ببعض الشخصيات الأسطورية الفذة أضفوا عليها صفات الألوهية ، واعتقدوا أن إلههم الأعظم « ڤشنو » تجسد فيها لمساعدتهم وشد أزرهم وإنقاذهم من كل شر . وهذه الشخصيات كراما وكرشنا .

وأخيراً انتقلت هذه النظرية إلى الرومان من اليونانيين والهنود على السواء ، فهم بدورهم عرضوا السيد المسيح مجسداً فيه الله سبحانه ومتغلغلا فيه.

وكذلك تلقت بعض الفرق الإسلامية هذه النظرية بقبول حسن وعرضت أبطالها فى صورة التجسد مثل القرامطة والإسماعيلية فى القديم ، والبهائية والقاديانية فى الحديث .

ومن ناحية أخرى فإن سيطرة الجن والعفاريت على الانسان وتغلغلهما فيه وتعذيبهما إياه أو إخضاعه ليتحدثا على لسانه ماشاءوا من الكلام كانت عقيدة شائعة فى كل عصر وزمان . ولطرد الشياطين والجن الفت التمائم والتعاويذ والكلمات السحرية فى أرض الرافدين فى حضارة بابل والهند الآرية على السواء . وهذه العقيدة هى الأخرى مهدت السبيل لظهور نظرية التجسد ، لأن الشياطين إذا استطاعوا السيطرة على الأشرار من الناس ؛ فإن الآلهة أقدر منهم على التجسد فى الناس الطيبين . ومن أجل ذلك نرى فى ملحمة الرامايانا أن ڤشنو يتجسد فى راما – بطل الأسطورة – على حين يتجسد الشيطان « حران باكسيو » فى راون عدوه اللدود ملك سيلان .

اثبات الذات أو الفلسفة الايجابية من خلال كتاب الجيتا

إن كرشنا الذى ولد بعد ظهور الفلسفات السلبية فى التاريخ الهندوكى ولا سيما اليوجية ووحدة الوجود : قد ثار عليها ، ووجه إليها نقداً لاذعا ودعا الناس إلى العمل الإيجابى والجهود المتفانية فى الحيـــاة .

وذلك لأن نظام هذا الكون مبنى على العمل ، وبدون العمل لا يكون هناك نظام ولا كون ، وبتعبير آخر فإن الكسل والثقل والسكون والجمود والبطالة نهايتها المحتومة هي الموت ، ولذلك حرض الناس على العمل الجاد ، وعارض الكسل كل المعارضة .

وفي نفس الوقت عارض الرغبات والأمانى والشهوات ، ومعنى ذلك أنه حث على العمل لخدمة البشرية لا لتحقيق الأنانية والشهوات الفردية . وهذا هو السبب فى أن كرشنا لا ينظر إلى الثمار والنتائج الرابحة فى الأعمال والجهود ، بل يدعو لمجرد الأعمال والجهود ، سواء أكان مصيرها النجاح أو الفشل . فالإنسان الذى يعمل من أجل النجاح وتحقيق أمانيه ، فإنه إذا فشل فى مهمته يتناوبه اليأس والحزن والألم ، وأما الرجل الذى يعمل ملبيا نداء الجيتا من أجل فلاح البشرية فإنه لا ييأس ولا يحزن ، ولو باءت جهوده بالفشل الذريع .

الجيتا

ومعنى « البهاجاوات جيتا » باللغة السنسكريتية « أنشودة إلهية » ، وهى تتضمن الحوار الدينى والفلسفى الطويل الذى دار بين كرشنا — ذلك الذى تجسد فيه ڤشنو ، وارجن — قريبه وبطل ملحمة المهابهاراتا — ، وهذا الكتاب فى الحقيقة يشكل جزءا من ملحمة « المهابهاراتا » (أى من باب ٢٥ إلى ٤٢) .

ويتناول هذا الكتاب جانبا حيويا من الفكر الهندوكى ، وينقد جميع التناقضات الواردة فى الفكر الهندوكى من قبل مثل الوثنية المغرقة والطقوس والمراسيم الفاشية فى كتب الڤيدا ، ونظرية وحدة الوجود السلبية المعروضة فى كتاب اليوبا نيشاد وجوانب ضارة أخرى فى الفكر الهندوكى .

الالحـــاد

ومن بين كثير من الاتجاهات والنزعات التى ظهرت بين الآريين منذ عام ٨٠٠ ق . م يحتل الإلحاد أو إنكار وجود الله سبحانه أهم نظرية تجلت

لأول مرة فى « الرامايانا » — أشهر ملحمة آرية — تلك التى ظهرت إلى الوجود خلال القرن العاشر قبل الميلاد ، وظلت تتناقلها ألسنة الناس كملحمة مقدسة ، تضيف إليها ، وتنقحها ، حتى تم تدوينها خلال القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد . وقد جاء فى هذه الملحمة أن (راما) — بطل الملحمة — لما اتخذ طريقه إلى الغابة — كما سنذكر قصته فيما بعد — التقى به راهب من نوع جديد وهو « جاڤالى » (Javali) ، ذلك الذى نصح راما بعدم مغادرة بلاده ، وحمله على العودة من الغابة ، لأنه ترك عرشه وأهله وبلاده ، وكل زخارف الحياة ، والنعيم والبهجة والسرور المتوافرة له فى عرشه ، وهذا أمر لايعقل . لأن المبادىء التى ترك من أجلها العيش ، كلها خيال وأوهام ليس فيها شىء من الصحة . لأن هذه الحياة لن تعود أبداً ، وان الميت لن يبعث حيا مرة أخرى بأى شكل كان ، ولن تنتقل روحه من جسد إلى جسد ، بل الإنسان إذا مات انتهى كل شىء ، وليست هناك عودة ولا رجوع ولا تناسخ ولا تنقل ، ولا عذاب ولا ثواب . إن المراسيم والقرابين والتقدمة التى يقدمها الإنسان بين يدى الآلهة ، لافائدة منها على الإطلاق ، وكذلك كل مايقدم لإيصال الثواب إلى الموتى من التقدمة والقرابين لمن تؤثر فى الموتى ، لأن جسده بعد إحراقه بالنار قد تناثر وتغلغل فى التراب. بل الكهنة هم الذين اخترعوا هذه المراسيم والطقوس لتحقيق مآربهم الشخصية ، وليس فيها شىء من الصحة والحقيقة . وكل هذه الطقوس قد وضع الكهنة أسسها ومبادئها ليضحكوا على عقول البسطاء والسذج من الناس ، ويستولوا على مافى جيوبهم من المال ، وينزفوا ثرواتهم ، ويبنوا بها مجدهم ، ويفرضوا نفوذهم وسيطرتهم على الناس لاستمرار سلبهم ونهبهم . إن إنكار الذات والرياضات اليوجية من أجل تنقية الروح من الاوثان وتنزيهها للوصول إلى الله والإلتقاء به والتغلغل فيه نهائيا كلها أوهام وخيال .

وقد جاهد راما – بطل الأسطورة – وكافح وناضل من أجل القضاء على هذه النزعة الإلحادية ، ولذلك أبطل مزاعم هذا الراهب الملحد بأعماله وجهوده وتضحياته ومثله العليا .

وبالاضافة إلى الإشارات المذكورة فى الرامايانا ، فإنه يبدو لنا أن هذه النظرية قد اتخذت جانب الشيوع والانتشار بين الناس فى العصر الحضارى المتقدم منذ عام ٦٠٠ ق.م ؛ لأن الحياة خلال هذه الفترة قد تحولت إلى المدنية وطلب السعادة والنعيم . ولعل هذه الطائفة الملحدة هى التى كانت تملك مقاليد الأمور فى البلاد ، وتحمل الناس على الإيمان بوجودهم فقط ، وإنكار كل شىء وراء الوجود الإنسانى المادى . وقد سميت هذه النظرية « لوكاياتا » . Lokayota وقام بنشرها خلال السنين ، ٦٠٠ ق.م فيلسوف وجودى اسمه «كارواكا» . وهذه المدرسة الفكرية لم تؤمن إلا بما ترى وتحس وتشاهد بالعين ؛ ولا تؤمن بشىء وراء هذه الطبيعة الخلابة التى تراها العيون وتحسها الأبدان وتقبلها العقول. وقد ركزت هذه المدرسة جل إيمانها على المحسوسات والحقائق الواضحة البينة فقط . وقد اشتهرت جملة نطق بها هذا الفيلسوف ، ونالت الشيوع والذيوع بين الناس وأصبحت مثلا سائراً على مدى العصور والأزمنة وهى قوله : « عش عيشة طيبة راضية ما دمت تحيا وتعيش ؛ وتبذل كل الجهود لجلب الراحة والسعادة والنعيم ، ولو كنت مضطراً للجوء إلى ديون باهظة ؛ لأن الجسد الذى أحرق فى هذه الدنيا وتحول إلى رماد متناثر لن يعود أبداً » .

ومن الجدير بالذكر أن هذه النظرية قد نالت لطمة شديدة وضربة عنيفة على يدى منشىء الديانتين العظيمتين فى هذه الآونة وهما الجينية والبوذية كما سنذكرهما فيما بعد . ومع ذلك لم تنقض هذه النظرية إلى الأبد ، بل ازدهرت فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ونشرها مفكر هندوكى يدعى « ما دا موا » وسجلها فى كتابه « ساروا – داسانا – سامجارا » .

ولم تزل هذه النظرية منتشرة بصورة فلسفية جديدة بين كثير من

المذكرين الهندوس ؛ وكان من أبرزهم فى عصرنا الحديث الزعيم الراحل جواهر لال نهرو ، وكثير من الزعماء الاشتراكيين الهندوس ، لأن هذه النظريات والتجارب كلها لا تتناقض مع المبادىء الهندوكية وديانتها كما سنذكر فيما بعد ولا يبعد أحداً عن حوزتها ولا تطرده مطلقاً .

حركة بها كتى كرد فعل ضد عقيدة التناسخ والتفرقة الطبقية العنصرية

وكان هناك طريقان للوصول إلى المعرفة الحقيقية وكنه الله فى الديانة الآرية منذ عام ٨٠٠ ق.م تقريباً . والأول : طريق العلم والمعرفة ، وهذا طريق شاق لا يمكن أن يمارسه إلا المتخصصون وأصحاب المواهب ، والثانى : طريق «كارما» الذى سن القوانين ، وفرض العقوبات ، وآمن بالتناسخ وهذا الطريق أيضاً كان شاقاً جداً . ولذلك ظهر فى أواخر القرون قبل الميلاد طريق ثالث ، وهو طريق سهل يسمى «بهاكتى» (Bhakti) ، ومعناه : الإخلاص والمحبة والعبادة . وكان هذا الطريق يعد رد فعل ضد الطريقين السابقين . وظهر فى الحقيقة بين طائفة الدراوديين . وبهذا يعد ثورة عارمة على الطريقين الآريين السابقين . فقد اعتقد أصحاب النظرية أن العلاقة بين الله وبين عباده علاقة المحبة والإخلاص والعبادة . وليس الله سبحانه قاهراً جباراً عنيفا عنيداً . يرغب فى معاقبة عباده ، وقهرهم وإذلالهم وتعذيبهم ، بل يحبهم ويعطف عليهم ، ويغدق عليهم نعمه وفضله . ولذلك ينبغى لعباده أن يعبدوه ويقدسوه ويخلصوا له ويحبوه حباً جما . وهذه النظرية قد أحدثت ثورة عارمة فى صفوف البراهمة الكهنة ، لأنها تهدف إلى القضاء على نفوذهم وسيطرتهم وتفوق جنسهم البشرى . وحينما تفاقم أمر هذه النظرية ونالت الشهرة والرواج فى الطبقات الدنيا والمغلوبين على أمرهم فى أنحاء الهند فقد اضطرت الكهنوتية البرهمنية من التجاوب معها ، وإدخال بعض أسسها وقيمها فى الديانة الآرية . وبذا لم يكن الكهنة متزمتين ومتصلبين فى موقفهم وعقيدتهم فى يوم من الأيام ؛ بل كانوا متسامحين ومتفتحين لقبول أحسن مالدى الطوائف الأخرى من التجارب والمعارف . ولقد سبق أن اعترفوا من قبل

التصوف وعقيدة وحدة الوجود والتجارب اليوجية كما ذكرنا.

وقد انتعشت حركة بهاكتى فى الهند مرة أخرى فى القرن الثامن الميلادى، وذلك بين أبناء جنوب الهند الدراوديين وحمل لواءها قد يسهم الشهير «الفار» (Albar). قد أصبح لهذه الحركة دوى كدوى النحل فى أنحاء الهند. وهذه الحركة كانت موازية لحركة التصوف الإسلامى الهندى، بل تجاوبت مع التصوف الإسلامي فى بعض النواحى فيما بعد.

أسباب ظهور الاتجاهات المتناقضة المتصارعة فى هذا العصر

يعتقد بعض الباحثين أن تحطيم معالم الحياة البدوية والنظام القروى المستمر لمدة ألف سنة، ودخول الهند فى الحياة المدنية الأولى منذ عام ٨٠٠ ق. م. أدى إلى ظهور منازعات اجتماعية وفكرية عديدة. فلما انتقلت الحياة البدوية إلى التطور المدنى، انتهت حياة ترويض الأغنام وتربيتها لدى الآريين، فأصبحوا الآن تجارا ومزارعين وملاك الأرض والشركات والمصانع وأصحاب الثروة والمخازن والمستودعات والمستولين على جميع مصادر الاقتصاد للبلاد ومواردها. ومن هنا وضعت الكهنوتية الآرية أسس النظام الطبقى العنصرى لكى يسيطر الجنس الآرى الأبيض على جميع موارد الدولة، وتأخذ هى الأخرى نصيبا أوفر منها، وتترك الجنس الأسود الأصلى فى بؤس وألم فتكون عالة على الجنس الأبيض تحت رحمته وسيطرته إلى الأبد.

ومن الناحية الروحية فقد أدى هذا الصراع المادى إلى الإقبال على زخارف الدنيا ومظاهرها، والعيش فى رفاهية، وترف وبذخ. وهذه الظاهرة هى التى تخلق المفاسد الاجتماعية الكثيرة مثل غلبة الشهوة الجنسية والاباحية وحياة الخمور والسهرات الليلية وما إلى ذلك فى كل مجتمع مدنى متقدم وفى كل عصر وزمان. ولذلك إتجهت هذه الجماعة الارستقراطية إلى إنكار الآلهة والحياة الأخرة، ورفض الجوانب الروحية، والإصرار على

الحياة المادية وما فيها من الزخارف . ومن هنا نعتقد أن الإلحاد قد ظهر فور إنتقال الحياة الريفية إلى التطور المدنى وهو أقدم وأسبق بالنسبة إلى جميع النزعات التى نشأت فيما بعد .

وإن الطبقات الفقيرة المغلوبة على أمرها تلك التى تؤمن بالله وبالمبادىء الروحية والخلقية وتقتنع بالقضاء والقدر ، لم تتحمل رؤية هذه التحولات الهائلة فى العقيدة والفكر وفى المجتمع كله ومشاهدتها ، ولذلك فضلت حياة العزلة والزهد والتنسك وسارعت إلى الغابات والجبال لتعيش فى أكنافها وتربى جوانبها الروحية وتغذى مواهبها الوجدانية . ومن هنا ظهر التصوف ووحدة الوجود والتجارب اليوجية فى الطائفة الآرية المؤمنة بالله والمخلصة للدين ، كما ظهرت البهاكتية فى الطائفة الدراويدية السوداء . وبهذا تكون وحدة الوجود واليوجية والبهاكتية قد ظهرت بعد المادية الإلحادية أو الوجودية وفق مصطلحنا العصرى . وأخيرا ظهرت فلسفة إثبات الذات وإظهار المواهب وتنميتها كرد فعل لوحدة الوجود واليوجية والبهاكتية السلبية التى تقضى على الطموح والنبوغ والمواهب .

كتب الشريعة الهندوكية

كانت الديانة الآرية تسير على مبادئ العقيدة الوثنية البسيطة إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، ولم تظهر القوانين المحددة واللوائح المنسقة لحياتهم الدينية والاجتماعية إلا خلال هذه العصور ومنذ القرن الثامن بالذات حينما توجهت النية إلى وضع التشريع والقوانين وتنسيقها وترتيبها ، وقد سميت أول مجموعة من هذا النوع « دهارما — سوتراس » (— Dharma sutras) ، وهى تتضمن أبوابا هامة مثل : المدخل لكتب الفيدا ، إنكار الذات ، القوانين العامة ، الحقوق والواجبات نحو الملوك والحكام وما إلى ذلك . ثم ظهرت مجموعة أخرى سميت (مانو — سمرتى) Manu—smrti ، وقد نظم ونسق هذه المجموعة

ناسك عاش فى قدم الزمان واسمه (مانو) ومعنى كلمة (سمرتى) (المجموعة المحفوظة) . كانت هاتان المجموعتان تحفظان وتنقلان من صدر إلى صدر اعتمادا على الذاكرة ولم تدونا فى الكتب ؛ ولم تسجلا فى الأسفار إلا فى عام ٢٠٠ الميلادى تقريبا ، كما يرى كثير من الباحثين .

إن المجموعة الثانية تعتبر من أهم الكتب ، إذ أنها تتناول أصول وقوانين التناسخ وإنكار الذات ، والقوانين العائلية والاجتماعية وشئون المرأة والملك والعقوبات ، تفوق الروح وخلق الكون ، والصدق وما إلى ذلك .

موقف الهندوكية من الرسالة السماوية

إن عقيدة التقمص أو التجسد قد حلت فى الديانات الهندية سواء أكانت آرية أو دراويدية محل الرسالة السماوية عند الشعوب السامية منذ عام ٨٠٠ ق م . تقريبا . ولذلك لم تفكر الهندوكية فى الرسالة والنبوة إطلاقا ، بل أضفت على كل مصلح أمثال كرشنا وراما ونارائنا وبوذا صفات الوهية ، واعتقدت أن فشنو — رب العالمين عندها — قد تجسد فى هذه الشخصيات لهداية البشرية إلى طريق الرشاد . فكل كلمة نطق بها هؤلاء آمن بها الهنود واعتقدوا أنها كلمات نزلت من السماء ، لأن الله هو الذى ينطق فى صورة إنسان . وهذه الفكرة هى التى انتقلت إلى اليونان ، ثم إلى الرومان أولئك الذين طبقوها على السيد المسيح حينما آمنوا به ، وكذلك إلى القرامطة والإسماعيلية والبهائية والقاديانية كما قلنا . .

وبهذا يكون الهندوس قد استغنوا عن النبوة والرسالة ، ولم يفكروا فيها مطلقا ماداموا وجدوا بديلا لها عندهم : إننا لا نجد فى كتبهم أنهم عارضوا النبوة أو أبطلوها . لأن هذا الأمر يخالف طبيعة الهندوكية المتسامحة المتجاوبة مع كل الأفكار ، بل إن عقيدة الرسالة لم تصل

إلى الهند مطلقاً قبل الإسلام من الشرق الأوسط ، بسبب عزلة الهند عن العالم كله منذ قدوم الآريين خلال عام ١٨٠٠ إلى عام ٨٠٠ ق . م . ومن ناحية أخرى فإن المفكرين والمصلحين الهنود المذكورين خلال هذه الأونة قد كفوا عن الأنبياء المرسلين فى الشرق الأوسط . لأن دعواتهم واصلاحاتهم وتعاليمهم قد أصبحت بمثابة الرسالات السماوية بما تضمنت من المعانى والسمو والمثل العليا . ومن هنا يعتقد كثير من علماء المسلمين الهنود الآن أنه لامانع من أن يكون هؤلاء أنبياء مرسلين من الله سبحانه . لأن الله يقول فى كتابه العزيز « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (فاطر ٢٤) : إلا أن هذه الشخصيات ورسالاتها العظيمة قد شوهت معالمها وحرفت فيما بعد .

وحينما دخل الإسلام الهند بقيادة القائد العربى العظيم محمد بن القاسم أعجب الهنود بشخصيته وأهدافه إلى أقصى الحدود ، فأقاموا له تمثالا وأضفوا عليه صفات الألوهية وفق عقيدة التجسد . كما أن أغلبية ساحقة منهم — عدا هؤلاء المعجبين به والمحافظين على ديانتهم — قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وهؤلاء هم الذين يشكلون الآن المناطق الشاسعة الواسعة فى باكستان الغربية . ثم قاد الموجات الأخرى من الغزوات الإسلامية ملوك مسلمون من الجنسين التركى والتتارى . ولم يكن همهم إلا السلطة والحكم ، ولذلك قام بأعباء نشر الإسلام وتعاليمه ومبادئه بين الهندوس صفوة من الصوفية . ومن المعروف أن التصوف الإسلامى هو الآخر كان مفتوحاً دائما لقبول كل التجارب الإنسانية ، ولذلك أسلم من أسلم من الهنود على أيدى الصوفية إعجابا بهم وبتجاربهم الروحية ، وبقى الآخرون — وهم الأغلب — على ديانتهم مع تقديسهم للصوفية وتجاربهم الروحية وكراماتهم ، والتفاعل مع أفكارهم ، وإدخالها إلى الفيدانتية والبهاكتية اللتان ظهرتا فى هذه الآونة . وهذا هو السبب فى أننا لم نزل نرى طائفة الهندوس تتقدم بالهدايا والنذور إلى ضرائح الأولياء والصالحين من الصوفية المسلمين أكثر بكثير بالنسبة إلى المسلمين المبتدعين :

ولهذا نستبعد مازعمه بعض المتكلمين المسلمين منذ القدم أن الهندوكية تنكر النبوة ، بل الصحيح أن الهندوكية اتخذت موقفا سلبيا نحوها ولم تبد رأيها مطلقا .

هل صنع الآريون التماثيل والأصنام ؟

يرى كثير من الباحثين أن الآريين منذ نزوحهم إلى الهند وطوال عصر الحياة القروية لم يصنعوا الأصنام والتماثيل ولم يبنوا الهياكل والمعابد . وهذا الأمر يرجع أولا وأخيراً إلى الحياة الريفية التى عاشوها قرابة ألف سنة ، منعزلين عن العالم كله ، ومنقطعين عن بلدان الشرق الأوسط وحضاراته . ولذلك لم يخترعوا الأوانى الفخارية الجديدة لهم ، ولم يتمرنوا على التصوير والنحت ، ولم يزاولوا أعمال التعمير والبناء ، ولم يسافروا إلى البلدان المتحضرة المجاورة لهم فى الشرق الأوسط ، ولم يحاولوا تبادل السلع التجارية معها أو مجرد الالتقاء بها . مع أن حضارة وادى نهر الهند فى الألف الثالث قبل الميلاد كانت متقدمة جداً فى جميع هذه المجالات ، ومتجاوبة مع الشرق الأوسط إلى أقصى الحدود . ومن الواضح أن هؤلاء الآريين قد شاهدوا تماثيل سيفا وكالى وفشنو وآلهة دراويدية أخرى أثناء نزوحهم إلى الهند ، كما وجدوا الهند متقدمة جداً فى جميع الفنون الحضارية . وكان فى امكانهم جداً أن يقوموا بتطوير هذه الفنون والصناعات ولكنهم آثروا الحياة الريفية وفضلوا تنمية الوجدان والروح والتقرب إلى الآلهة على جميع المعالم الحضارية ومتطلباتها .

هل كان الآريون نباتيين أصلا ؟

ويبرز سؤال هام فيما يتعلق بالآريين القدامى : هل كانوا نباتيين منذ البداية ؟ والإجابة على ذلك — كما يرى كثير من الباحثين — أنهم لم يكونوا نباتيين قط — لأنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات مثل الأبقار والثيران ، ويقدمونها قرابين للآلهة . وكذلك كان شأن جميع الآريين الذين استوطنوا

أوربا وإيران . ولم يحدث أى تغيير فى هذه النظرية ، ولم يطرأ شىء حتى ظهور ديانة جديدة وهى الجينية — كما سنذكرها قريبا — حرمت لأول مرة ذبح الحيوانات وأكل لحومها وتقديمها قرابين للآلهة . و هذه الديانة هى التى أثرت فى الهندوكية فى القرون الميلادية ، الأمر الذى دعا الآريين إلى أن يمتنعوا عن جميع أنواع اللحوم ، ويقدسون الأبقار كآلهة ، كما قدسوا كثيراً من الحيوانات ، وعبدوها ، ثم امتنعوا عن لحومها .

ومن الجدير بالذكر أن تقديس الأبقار واتخاذها آلهة قد ظهر كعقيدة دينية فى الديانة المصرية لأول مرة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد تقريبا ، ثم انتشرت هذه العقيدة بين بنى إسرائيل . وكذلك وجد فى ديانات الأمم السامية فى العراق والشام تقديس الثيران . وأما الآريون فلم يكونوا وحدهم فى تقديسهم الأبقار ، كما أنهم لم يعبدوا الأبقار وحدها ، بل القرود عندهم كانت تفوق الأبقار فى المكانة والقدسية والعبادة ، وذلك منذ أن ساعد « هانومان » — البطل القرد — راما — بطل ملحمة الرامايانا — فى معركته الفاصلة ضد عدوه اللدود « راون » — ملك سيلان — كما تحكى الأساطير . ولكن أمر الأبقار قد استفحل وصار مشكلة اجتماعية ودينية بالنسبة إلى جميع الأديان منذ دخول الإسلام إلى الهند : لأن الإسلام يبيح ذبح الأبقار وأكل لحومها ، وأما القرود فهى محرمة فى جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام . ولذلك لم يحدث صراع فى الهند حينما اتخذ الهندوس القرود آلهة لهم ، بل حدث نحو الأبقار فقط . لأن لحومها مباحة فى جميع الأديان العالمية ، كما أنها شهية جداً لايمكن الاستغناء عنها لأى مسلم أو مسيحى أو أوربى وآسيوى وأفريقى .

وفيما يتعلق بالهندوس فإنهم — على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم وطوائفهم — يمتنعون عن اللحوم . فنى جنوب الهند حيث يشكل الدراوديون — سكان الهند الأصليين — أغلبية ساحقة يأكلون جميع اللحوم عدا لحوم البقر ؛ وأما المنبوذون — الطبقة السفلى حتى بين الدراوديين

الجنوبين — فهم يأكلون حتى لحوم الأبقار أحياء وأمواتا ، وبهذا يفوق هؤلاء المسلمين بمراحل فى أكل لحوم الأبقار .

طبيعة الديانة الهندوكية وسر خلودها :

لقد وجدنا فى الهندوكية الآرية انها تحوى جميع أنواع العقائد والاتجاهات والميول ، وهى تؤمن بالوثنية والتوحيد ووحدة الوجود واليوجية والبهاكية والتقمص والتناسخ وإثبات الذات والإلحاد ، ومستعدة للتجاوب مع جميع الأفكار والآراء بما فيهاتوحيدالإسلام ، وتجارب التصوف الإسلامى ، كما تتمثل هذه النزعات فى حركتى البهاكتى ، والفيدانتية لشنكر آشارى (٧٨٨ — ٨٢٠ م) . وبهذا تكون الهندوكية مخزنا هائلا لجميع العقائد والاتجاهات والتجارب . وليس هناك شىء ما يمنع هـذه الديانه ، وإن كان المفضل عندها كل من التوحيد وذلك للطبقة المثقفة العليا ، والوثنية للعوام والجهلة . وهذا هو سر خلود الديانة الهندوكية واستمرارها على مدى القرون وعبر السنين دون اندثار وفناء . لأنها كانت مرنة سمحة فى كل العصور متجاوبة مع جميع الأفكار والاتجاهات والتجارب ، ولم تؤمن بشىء مايسمى بالرجعية أو التزمت أو التصلب والمحافظة ، كما أنها لم تتعصب لأية نزعة فى عصر من العصور : بل الذى حدث فى كل عصر أنها استطاعت جذب كل نظرية إلى صالحها ، أو سارعت إلى الأخـذ بأحسن ما لديها ، ثم التعديل فيها وفق رغبتها ومصالحها ، كما تأثرت وأثرت فى عقيدة وحدة الوجود واليوجية والبهاكتية منذ ظهورها . كذلك لم تشن حربا شعواء على الإلحاد والمادية والوجودية ، بل قررت هـذه النزعة هى الأخرى كتجربة إنسانية ينبغى بقاؤها واستمرارها ، وإن لم تعجبها هذه الظاهرة فى أى عصر . ولما ظهرت البوذية كرد فعل ضدها استطاعت الهندوكية الاقتراب منها ، وأخذ أحسن ما لديها ، ثم التأثير فيها بالتالى . وهذا هو السبب فى أن البوذية لم تستطع القضاء على الهندوكية فى الهند ، فى حين سيطرت على جميع أديان

الشرق الأقصى مثل الصين واليابان واندونيشيا وسيلان وبورما وسادت فى تلك المناطق .

ثم واجهت الهندكية الإسلام منذ الفتح الإسلامى للهند ، وفى هذه الآونة أيضا لم تبد أية مقاومة للإسلام ، بل اقتربت منه ، وانساقت إلى التصوف الإسلامى وتفاعلت معه . فأدخل شنكر آشارى المذكور فى حركته الإصلاحية التى تسمى « القيدانتية » أهم مميزات التوحيد الإسلامى، وتجارب الصوفية المسلمين ؛ وكذلك أخذت حركة البهاكتى معظم مزايا التصوف الإسلامى . ومن المعروف أن التصوف كان قوة هائلة فى الهند ، والصوفية هم الذين لعبوا دورا كبيرا فى نشر الإسلام ومبادئه فى أنحاء وربوع الهند . وبهذا كان التصوف عامــــلا أساسيا فى ظهور الإسلام وانتشاره فى الهند . وهكذا تمكنت الديانة الآرية الهندية من انعاش حركتها وإعادة حيويتها ومواصلة سيرها أمام كل التحديات الجديدة ، فى حين غرقت الديانة الآرية فى إيران فى سيل الإسلام العارم وانمحت إلى الأبد ، لأن الديانة الإيرانية لم تفتح قلوبها لقبول جميع التجارب الإنسانية والموافقة عليها ، والانسياق إليها والتفاعل معها ، بل كانت آفاقها ضيقة كأية ديانة فى العالم ، ولم تؤمن إلا بتجاربها الشخصية فحسب .

ثم تصدت الهندوكية لنفس التحديات فى بداية الاحتلال الانجليزى للهند فى مستهل القرن التاسع عشر . وفى هذه الآونة ايضا سارعت إلى قبول الأفكار الغربية وحضارتها وأخذ كل ما فيها من الخير دون أية معارضة أو مقاومة ضدها ، فى حين عارض المسلمون الهنود الحضارة الغربية أشد المعارضة وشنوا حربا شعواء ضدها ، واتخذوا موقفاً عدائيا سافرا منها ، مما كلفهم الكثير من الأرواح والمال والجهد والعرق دون فائدة . وهذا هو السبب فى أن المسلمين قد تأخروا فى مجاراة موكب الحضارة الإنجليزية وثقافتها وعلومها ، وأقبل الهندوس على الجامعات

العصرية التى أنشأها الانجليز ، وأكبوا على دراسة علومها وفنونها وتجاربها ، وبهذا فاق الهندوس المسلمين قرابة نصف قرن تقريبا فى المجال التعليمى العصرى ، وهذا هو السبب فى سر تفوقهم فى العلوم العصرية فى كثير من النواحى . ولولا حركة السيد أحمد خان المناوئة لموقف العلماء المسلمين الهنود والداعية إلى الإقبال على التعليم الأوربى ، لتخلف المسلمون قرونا طويلة فى مجال التعليم الحديث والعلوم الأوربية العصرية المتقدمة .

ملحمة المهابهاراتا

تصور هذه الملحمة فى الحقيقة تلك المعارك الدامية التى دارت رحاها بين فرعين من أسرة واحدة للآريين خلال القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد . ولكن هذه المعارك نالت الشهرة والذيوع ، واتخذت طابعا أسطوريا ، وبدأت السنة الناس تتناقلها بالإعجـــاب والشوق ، وأجريت فيها تعديلات جديدة ، وأضيفت إضافات عديدة متنوعة عبر القرون . وقد جرت هذه التعديلات والإضافات فى الأحداث والوقائع والمشاهد والنظريات والعقائد ، وظل الأمر على ذلك قرونا طويلة ، ولم تدون هذه الملحمة التى تضاعف أصلها وهيكلها على مر الأزمنة إلا فى القرن الخامس الميلادى : وبهذا لم يكن لهذه الملحمة السنسكريتية العظيمة التى ألفت بالشعر مؤلف معروف بل ساهم فى صياغتها وعرضها أشهر شعراء اللغة السنسكريتية فى كل عصر وزمان ، وتحكى حكايات غريبة عن مؤلفى هذه الملحمة : ومنها أن الإله « جانيسا » قد كسر أنيابه الطويلة لشدة حماسته واندفاعه ، وسجل بها « المهابهاراتا » التى أملاها عليه الإله « ڤياسا » ذلك الذى يحب العلوم والمعارف .

إن أبطال هذه الملحمة هم أولئك الآريون الذين حكمو « دهلى » العاصمة ، وما جاورها من المناطق الواسعة الشاسعة ، والذين سمعوا « كورو » . وفى الفترة التى تبدأ فيها هذه الملحمة ورث الحكم أخوان من من هذه القبيلة وهما : « باندو » و « دهيراتا راشترا » . وقد أنجب

الأول ستة من الأولاد الذكور ، ثم توفى ، فاعتلى العرش أخوه الأعمى « دهيراتا راشترا » ذلك الذى أنجب المائة من الأولاد الذكور . وبين هؤلاء الأخوة المائة وبين الستة دارت تلك المعركة التى سجلتها هذه الملحمة المقدسة .

وبما أن هذه المعركة قد دارت فى مناطق محدودة فى شمال الهند بالقرب من العاصمة الحاضرة فلم تصور الملحمة إلا مناظر ومشاهد تلك المناطق فقط ، ولا نرى فيها أثر الجنوب مطلقا .

كان سبب ظهور هذه الملحمة الخلافات والحزازات والتنافس وشهوة الاستعلاء على الحكم التى نشأت بين أولئك المائة والستة من أفراد الأسرة الملكية . ومن جراء ذلك تكونت جبهة من أولاد الأعمى المائة بقيادة ابنه الأكبر « دوريودان » كما أنشأ أنباء أخى الملك الأعمى الستة جبهة ثانية بقيادة « يودشترا » . وبين هذين الحزبين دارت جميع المعارك للوصول إلى الحكم . كان « أرجنا » من أشهر إخوة « يود شترا » ، ذلك الذى فاق الجميع فى البطولة والمغامرة ، ولم يكن يساويه أحد من أبناء عمه . ولكن إنضم إلى الحزب الأول بطل غريب وهو « كارنا » الذى لم يقل عن « أرجنا » شيئا فى الشجاعة والبطولة . ثم جرت أحداث كثيرة ، مكنت الحزب الأول من الاستيلاء على العرش ، فتولى العرش « دوريودان » أكبرهم سنا ، وأرغم الجماعة الأخرى على مغادرة البلاد والعيش فى الغابات والجبال لقضاء اثنتى عشرة سنة فيها .

لقد عاش هؤلاء الأخوة الستة فى المنفى وسط غابات كثيفة الأشجار ووارفة الظلال ، وحافلة بالمناظر الخلابة والمشاهد البديعة ، كما أنها مليئة بالحيوانات والوحوش ، ومزدحمة بالأنهار الجارية وروافدها ، فعاشوا حياة طيبة ، يعبدون الآلهة ويؤدون الطقوس . وقد رافقهم فى هذه الرحلة « كرشنا » ، ذلك الذى تجسد فيه فيما بعد فشنو كعين لهؤلاء جميعا ومرشد ومرافق . وقد زارهم خلال هذه الفترة كثيرا من الكهنة

والرهبان ، كما زارهم سيفا الاله الدراويدى الأصيل . لقد قص هؤلاء كلهم على المطرودين قصصا وحكايات تصور مآسى تشبه مآساتهم بجانب ما تحويه من العبر والمواعظ . وهذه القصص والأساطير الإضافية أصبحت مادة خصبة فى الآداب فيما بعد ، تلك التى إستوحاها الشعراء والقصاصون ومولفو المسرحيات فى أعمالهم الأدبية .

وبهذا إستكمل هؤلاء المدة المفروض عليهم قضاؤها ، ثم خرجوا من الغابة ليعيشوا سنة أخرى مختفين عن أنظار الناس ، ثم واصلوا جهودهم لاستعادة عرشهم من أيدى أبناء عمهم . ومن هنا بدأت المعارك الدامية تلك التى تصورها الملحمة .

إن هذه الملحمة تحتل مكان الصدارة بين الآداب السنسكريتية ، بل الآداب الهندية كلها . وهى آية فى الأدب والفن لغزارة مادتها الأدبية والفنية . تصور الأحداث والوقائع تصويرا دقيقا ، وتصف الشخصيات وصفا ممتازا بحيث تتميز الشخصيات من الرجال والنساء وتبرز صفاتهم الخاصة وتتجلى خصائصهم البارزة . وهذه الظاهرة لاتظهر بوضوح فى كثير من الأعمال الأدبية والفنية التى ظهرت فى اللغة السنسكرتية فيما بعد ، إذ أننا نلمس فى تلك الأعمال المتأخرة الخلط والتشابه والتجانس بين الشخصيات وصفاتهم ومميزاتهم . وهذ يدل على براعة مولفى المهابهاراتا وتفوقهم فى الأدب والشعر وطول باعهم فى الوصف والتصوير .

لقد قارن كثير من الأدباء الأفرنج بين المهابهاراتا والملحمة اليونانية الشهيرة الالياذة تلك التى ألفها هوميروس . واوجه االتشابه بين الملحمتين إن كلا من الألياذة والمها بهاراتا يصور حضارة واحدة تقريبا ، إذ أن الأبطال فى كلتا الملحمتين يحاربون على العربات ، والعربات كانت شائعة الأستعمال فى كل من الهند واليونان منذ نزوح الآريين إليهما ،

ثم استخدمت الخيول لهذا الغرض . كما نجد فى كل من الحضارتين — كما تصف هاتان الملحمتان — رعاية الغنم والأبقار ، وشن الغارات المفاجئة على العدو للاستيلاء . وكذلك نجد ثمة تشابها فى الاهتمام بالآلهة وإجراء الحديث على ألسنتها وتقديسها . وناهيك بوعورة الأسلوب فى الملحمتين وعدم الدقة فى البحور فيهما فى بعض الأحيان .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإلياذة تصور التنافس بين البطلين وهما « اخيليوس » ، و« هكتور » كما نجد التنافس فى المهابهاراتا بين « أرجنا » و« كارانا » . هذا وتمثل كل من الاليادة والمهابهاراتا حياة بلادهما وتقاليدهما وحياة شعوبهما وأحاسيسهما وعبقريتهما .. وهما بمثابة موسوعة كبرى لحياة الأمتين الآريتين العظيمتين ومعارفهما . وكما أن المهابهاراتا تمنح مادة خصبة خلفية للأساطير الهندية وقصصها ، كذلك تلعب الألياذة دورا كبيرا كإطار خلفى لكثير من الأساطير اليونانية وأعمالها الأدبية الخالدة .

ملحمة الرامايانا

لقد عاشت — بين فترتى القرن الثانى عشر والعاشر قبل الميلاد فى شمال الهند فى ولايتى بهاروااتاربراديش أسرتان كبيرتان للملوك الآريين وهما « كوسالاس » ، و« ڤيد بحاس » وكانت مدينة « أوده » عاصمة دساراتا ملك كوسالا . أما مدينة « بتنة » ، فقد كانت عاصمة ملك « ڤيد بحاس » ، ذلك الذى زوج إبنته « سيتا » لبطل الأسطورة راما — وهو الإبن الأكبر لدساراتا .

كانت الرامايانا عبارة عن الأحداث التاريخية التى وقعت فى هذه الفترة من الزمان . وقد صاغها أشهر الشعراء باللغة السنسكريتية : ولكن هذه الأشعار لم تسجل فى نفس الآونة ، بل هى الأخرى — كالمهابهاراتا — ظلت تحفظها صدور الناس ، وتتناقلها الألسن . ومرت بمراحل عديدة عبر القرون واتخذت هذا اللون الأدبى البديع فى القرن الخامس قبل الميلاد . وهذه الملحمة هى الأخرى لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد

بل شارك فى صياغتها عدد كبير من فحول الشعراء باللغة السنسكريتية . وتقول الرامايانا نفسها أن الراهب « والميكى » ذلك الذى ساعد (راما) فى محنته فى الغابة ، والذى شاهد وعاصر جميع مشاهدها البطولية هو الذى نظمها بعد عودة رامامن منفاه إلى أيودهيا .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته (سيتا) ويؤدى جميع واجباته الدينية لأنه كان راسخ الايمان بالآلهة ، إذ كان يعبدهم ويقدسهم حتى رضى عنه الرهبان والكهنة واحترموه بالغ الاحترام .

ولما بلغ (دساراتا)من عمره مبلغا كبيرا وضعفت قواه عزم على تتويج راما ، لأنه ابنه الأكبر ؛ ووارث عرشه الشرعى . وقد حدّد يوما لتنصيبه ملكا والاحتفال بمناسبة التتويج . ولكن زوجة الملك دساراتا وهى كايكيا حالت دون ذلك . لأنها لم تكن والدة راما ، لأن أباه تزوج من أربع ملكات ، وكان راما من الملكة الأولى ، وكايكيا كانت ملكة رابعة ، وتريد تتويج ابنها بدلا من راما وهو بهارت . ولذلك استخدمت الحيل ، وحطمت آمال راما ، وقررت إبعاده عن العرش ليعيش فى المنفى بين وسط الغابات والجبال بجنوب الهند لمدة أربعة عشر سنة . فخرج راما وسط مشاهد حزينة مؤلمة إلى الغابة يرافقه زوجته (سيتا) واخوه لشمن من زوجة والده الثانية .

وخلال هذه الأحداث كلها لم يكن «بهارت » ذلك الذى أرادت له أمه تولى العرش بدلا من أخيه الأكبر « راما » يعرف شيئا مما حدث ، لأنه كان فى مهمة عسكرية فى بلاد نائية . فلما عاد إلى أيودهيا — العاصمة — وجد فيها أحداثا وتطورات لم يتصورها . فقد توفى والده دساراتا حزنا على راما ، ولشمن وسيتا . فدهش لما جرى ، ورفض الجلوس على العرش الذى هيأته له أمه واتجه إلى الغابه جادا فى البحث عن أخيه لارضائه وإقناعه على العودة إلى العاصمة ليتولى العرش . وبعد أيام حافلة بالتعب والإرهاق وصل إلى أخيه راما ووجده فى دير وسط الغابات

مشيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ ؛ ويحرسه لشمن بسيفه وقوسه. فانكب بهارت على قدمى راما يقبلهما فى حب وحنان لاحد لهما ، وطلب منه العفو وألح عليه فى العودة إلى العاصمة ليتولى العرش . ولكنه أبى وقرر قضاء الأربعة عشر سنة . فعاد بهارت حزينا يائسا يحمل أحذية راما ليضعهما على العرش ويحكم أيودحيا بالنيابة عنه حتى يحل ميعاد عودته من المنفى :

ومن هنا تبدأ الملحمة الحقيقية ، لأن راما قد دخل الآن فى طور جديد من الحياة فى الغابات . لأنه اتجه إلى ناحية الجنوب وألقى عصى الترحال فى غابة مظلمة بقرب نهر « جوداوارى » بجنوب الهند ، وعلى مقربة مائة ميل تقريبا من مدينة بومباى .

وفى هذه الغابة رأى « راون » — ملك سيلان — « سيتا » — زوجة راما — وهى فى منتهى الجمال ، لأنها من الشمال ومن الطبقة الآرية ، والملك راون من الدراويديين السود ، فاشتهاها وقام بعدة حيل ناجحة لخداعها ، ثم خطفها وحملها إلى بلاده سيلان ، وأرغمها بكل الحيل ووسائل العنف على الزواج منه ، ولكنها رفضت وأصرت على رفضها ، فاعتقلها إلى حين تبدى الموافقة على الزواج منه .

ومن ناحية أخرى فإن راما حين عرف نبأ خطف زوجته المخلصة الوفية ، حزن حزنا عميقا ، وشاركه فيه أخوه لشمن كل المشاركة ؛ ولقد وصل كلاهما إلى جبال (ڤاناس) فى البحث عن سيتا ، ولقيا فيها (سوجريڤا) ملك بلاد ڤاناس ، وكان يصحبه قائده العسكرى وساعده الأيمن هانومان ذلك الذى عرضته الملحمة فى صورة قرد :

لقد شن هؤلاء جميعا غارات عنيفة على سيلان ، وقاد هانومان جيشا جرارا تكون من أبناء جنوب الهند ، وقتل راون فى المعركة الفاصلة . وتصف الملحمة أن الآلهة كلهم كانوا مع راما فى هذه الحرب يساعدونه ويشدون أزره ، ويشجعونه . ولذلك انتصر راما على راون الشرير . ثم أمر راما باحراق جثة راون ، فوضعت أكوام من الخشب والصندل والزيت والروائح

عليها ؛ وأشعلت النيران فيها حتى تحولت جثته إلى رماد . ثم سلم راما البلاد المفتوحة إلى الملك الذى ساعده فى المعركة وهو ساجريفا وقائده هانومان . وعاد هو وزوجته وأخوه إلى البلاد ، حيث تمت مراسيم التتويج وسط احتفالات رائعة .

إن هذه الملحمة تصور عصرها تصويراً دقيقاً بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها بين العقائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية ،وتوحى إلينا بأننا نعاصر حقيقة أبطال هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات حية تماثل أمامنا . وكذلك تذكر هذه الملحمة أول إتصال الآريين بسكان جنوب الهند وتوغلهم إلى أقصى حدود الجنوب حتى تم استلاؤهم على جزيرة سيلان . وبهذا اتصل الفكر الآرى والدراويدى فى الجنوب لأول مرة بهذه الروح السمحة والتعاون المتبادل والمواساة والمساعدة . ولغل هذا هو السر فى أن سكان الجنوب قد اعتبروه بطلا من أبطالهم وأضافوا عليه صفات الألوهية ، وعرضوه فى صورة إلههم المختار عندهم وهو فشنو ، ذلك الذى تجسد فيه وفق عقيدتهم .

لقد تركت هذه الملحمة أثراً قوياً فى نفوس الهندوس واحتلت مكان الصدارة بين غيرها من الملاحم . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وإيقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الاسطورية الخالدة إلى حد العبودية .

لقد قارن كثير من الباحثين الأفرنج هذه الملحمة بـ« الأوديسه »(Oayssey) الملحمة اليونانية الشهيرة التى تلى الإلياذة ، تلك التى هى الأخرى ألفها هوميروس : وتتناول كلتا الملحمتين الغربة والنفى والتشريد ، كما تشتركان فى كثير من القيم والمثل والنواحى الفنية والأدبية .

وحينما نقارنها بالملحمة الأولى وهى « المهابهاراتا » نجدها تشبهها فى أمور كثيرة مثل النفى والتشريد . وكذلك فى كثير من القيم والمثل والمبادىء . كما أنهما تمثلان الروح المعنوية والقيم الأخلاقية والروحية للهند والتضحية والوفاء والإخلاص والحب والتفانى التى عرفتها الهند دائماً وأبداً .

لوحة (١٦)
هانومان ــ البطل القرد ــ يخوض المعركة
ضد رأون ــ ملك سيلان ــ فى نصرة راما

كرشنا وراما واتخاذهما صورة الآلهة

لقد وجدنا « كرشنا » فى ملحمة « المهابهاراتا مساعداً وناصحاً ومرشداً ، لارجنا بطل الأسطورة ، كما أن القرابة كانت تربط بينهما . ونعتقد أنه قد أضيف إلى أصل الملحمة فى القرون التالية ، أى خلال القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد ، لأن هذه الملحمة قد أضيفت إليها إضافات كثيرة عبر القرون كما قلنا ، وسجلت فى القرن الخامس الميلادى . ومن المعروف أنه قد دعا إلى الفلسفة الإيجابيه وعارض السلبيه كل المعارضة ، وبهذا يكون قد ظهر بعد ظهور فلسفة وحدة الوجود واليوجية ، وحاول اصلاح النواحى الضارة فيها .

ووفق ماجاء فى الأساطير أنه ولد فى مدينة «مانورا» التى كانت تقع بين (دهلى) — العاصمة الهندية الحاضرة — «وآغرا» — موقع التاج محل الآن . وكانت أمه «ديفاكى» اخت ملك يسمى « كامسا » . وقد تنبأ بعض الكهان يوما بأن هذا الملك سوف يلاقى مصرعه على يد بعض أبناء اخته . ومن أجل ذلك كان يقتل أبناء اخته فور ولادتهم . فلما ولدت أخته « كرشنا » استطاعت اخفاءه واستبدلت به بنت راعى البقر فى إحدى القرى المجاورة . وبهذا تمكن « كرشنا » من الإفلات من بطش خاله ، وتربى وسط رعاة الغنم ، وبصحبة طائفة البراهمة .

وقد ظهرت منه معجزات وخوارق منذ ولادته . وذلك أنه كان يملك طاقات كبيرة فقد استطاع مرة أن يمسك بعربة ويقذفها بعيدا ، كما استاصل شجرتين كبيرتين وحطمهما تحطيما ، وقضى على ثعبان مائى كبير ، وساعد أخاه « بالاراما » على قتل عفريت شرير كبير .

وقد قام يوما بحيله غريبه ناجحه مع « الاله إندرا » نفسه : وذلك أن الاله إندرا قد نصح مرة الفلاحين ورعاة الغنم الذين أكرمهم والذى كان يجلب لهم الأمطار ، أن يقدسوا أيضا الجبال التى تعطيهم الأخشاب والأعشاب والحشائش الخضراء التى ترعاها أبقارهم ، بالاضافة إلى تقديس الأبقار والأغنام التى ترضيهم بما تقدم لهم من ألبانها : وحينما قام

لوحة (١٧)
سيتا وهانومان ويتوسطهما راما وتحتهم
جماعة من القرود تقدم لهم الصلوات

لوحة (١٨)
الاله سيفا فى صورة جديدة عند الآريين والد راوديين

هؤلاء بأداء عباداتهم المقدسة وطقوسهم للجبال والأبقار والأغنام تحقيقاً لرغبة الإله اندرا وقف كرشنا فوق قمم الجبال وخدع الفلاحين وأخذ ثمارهم كما ذكرنا آنفا .

وتحكي الأساطير أن الفتيات من راعيات البقر كن قد ذهبن يوما إلى بركة ماء ، وخلعن ملابسهن لكي يستحممن. فتعالت ضحكاتهن كعادتهن ، فسمعها « كرشنا » واقترب منهن وسرق ملابسهن وأخفاها بين الأعشاب بعيداً عنهن . فلما خرجن من البركة لم يجدن ملابسهن ووجدن « كرشنا » أمامهن فألححن عليه في إعادة ملابسهن ووافقن على شروطه في أن يقدمن له الطقوس والعبادات ، وتعاهدن على ذلك . ومنذ ذلك الحين بدأت فتيات الهند يقدمن له القرابين ويغنين له ويخرجن للبحث عنه وسط الغابات ويرافقنه . وقد أصبح كرشنا منذ ذلك الحين صديق الفتيات أو عشيقهن أو رفيقهن . وقد اعتادت كثير من الفتيات الهندوكيات منذ ذلك الحين أن يخرجن من بيوتهن عندما يستمعن إلى أنشودة راما أو مزاميره شوقا إليه وحبا له .

وحينما شب « كرشنا » وكبر عاد إلى بلده « ماتورا » وقضى على خاله الملك « كاسما » والأشرار الآخرين الذين التفوا حوله أو اقتفوا آثاره . ثم لعب دوره الفعال في الملحمة « المها بهاراتا » و « الجيتا » كما قلنا .

ومن معجزات كرشنا أن ملكا من ملوك الهند أنجب ولداً غريبا سماه « سي سوبالا » ، وكانت له ثلاثة عيون وأربعة أيد . وقد استولت الدهشة والخوف على والديه عند رؤيتهما هذا الطفل ، وظنا أنه عفريت ، وفكرا في التخلص منه فإذا بهما يسمعان صوتا يقول : إنه لا داعي للتخلص منه ، لأنه قد ولد من يقتله ، والقدر محتوم منذ الأزل ، فسألاه : من الذي سيقتله ؟ فأجاب الصوت بقوله : لو وقع الطفل في حضنه فستطير عينه الثالثة وتختفي يداه الزائدتان . فخرج الوالدان يحملان الطفل ويجدان في البحث عن الرجل الذي وصفه الصوت بأنه قاتله . وبذلا المستحيل في العثور عليه . وحينما يئسا من ذلك وعادا إلى القصر ظهرا أمامهما كرشنا

لوحة (١٩)
كرشنا وهو طفل يلعب على ثعبان

لوحة (٢٠)
كرشنا يسرق ملابس راعيات الغنم

مع أخيه . وما أن وقع الطفل فى حجره حتى طارت عينه الثالثة واختفت يداه الزائدتان . فركعا أمامه وقدما له الصلاة وطلبا منه أن يعفو عن ولدهما إذا ارتكب المعاصى ضده فى المستقبل . فوافق كرشنا على ذلك وترك قصرهما وعاد مع أخيه .

وقد حدث مرة أن الملك « يودشتيرا » أقام حفلا كبيراً بمناسبة تتويجه وحضره أعيان الملوك وأعظم الأبطال فى الهند ، وكان من بين هؤلاء المدعوين كل من « سى سوبالا » الذى كبر وتولى عرش أبيه ، والإله كرشنا . فتقدم الملك المضيف بقرابينه وطقوسه إلى كرشنا ، إكراما وتقديسا له . فلم تعجب هذه الظاهرة « سى سوبالا » واحتج عليه ، وأطال لسانه ضد كرشنا وأهانه إهانة شديدة . وقد حاول جميع الحاضرين تهدئته وإسكاته خوفا من غضب كرشنا ، ذلك الذى لم يزل يعفو عنه ، كما سبق أن عفا عنه أكثر من مائة مرة . ولكنه ظل على موقفه من التمرد والتفوه بالشتائم وتقديم الإهانة . ولما بلغ السيل الزبى وظهر سخط الآلهة عليه قويا حطم الغضب سكون الإله ذى اللون الأسود ، ولمعت عيناه بالنار ، وحمل دائرة وصولجانا وطارا بهما . ولما وقعا عليه سقط الملك جثة هامدة وانقسم جسده إلى قطعتين . ثم اقتربت روحه المذنبة من كرشنا وركعت أمامه وقبلت رجليه وطارت .

وحينما مات أرجن بعد كسبه المعركة المقدسة خلفه أبناؤه وأحفاده : فقد قام هؤلاء بنشر تعاليم كرشنا الموجودة فى « الجيتا » . ولهذا ترى أن كلا من ملحمة المهابهاراتا والجيتا قد انتشر فى جميع أنحاء الهند بسبب انتصار مبادىء كرشنا ونيلها الشيوع والذيوع . ولكن بعد مرور الزمن قد عرض كرشنا فى صورة إله ، لأن ڤشنو قد تجسد فيه . ومن المتناقضات أن « كرشنا » ذلك الذى تجسد فيه ڤشنو يموت موتا طبيعيا كأى رجل فى العالم . وتقول الأساطير إنه قبل أن تحين له ساعة الرحيل

من هذه الدنيا أصابته لعنة « درواسا » الكاهن : فأصاب رجله خطا رمح لصائد فى إحدى الغابات . كان كرشنا يتعبد فى ذلك الحين فى دير من الأديار . فتوفى كرشنا للاصابة القاتله ، وارتفع إلى السماء حيث رحب به جميع الآلهة ، ومنذ ذلك الحين وقع الظل على الأرض .

وكذلك وجدنا « راما » بطلا أساسيا فى ملحمة « الرامايانا » وابنا أكبر للملك دساراتا . ولكن قد أضيفت إليه فيما بعد صفات الألوهية، وتجسد فيه هو الآخر ڤشنو ، إله الآلهة عند الهنود . ومن هنا تحول « راما » من الشخصية الأسطورية إلى إله من الآلهة . ثم تحكى الأساطير أن « راون » — ملك سيلان — ذلك الذى خطف سيتا — زوجة راما — قد تجسد فيه « حران باكسو » ملك العفاريت ، ذلك الذى منحه الإله براهما سلطات واسعة وطاقات هائلة فى هذا الكون . ولكنه أساء استخدام هذا الجميل ، واستخدم طاقاته فى طرد الإله « إندرا » ونفى الآلهة الآخرين من مساكنهم ، وتجريدهم من سلطاتهم . ثم أعلن نفسه سيد هذا الكون وألغى عبادات الآلهة وفرض نفسه إله الآلهة . ولكن ابنه « برهلادا » كان على عكسه ، لأنه كان يؤمن بالإله ڤشنو ، ويقدسه ويعبده ، ويرفض الخضوع لوالده ، لينشر دين الإله ڤشنو فى أرجاء بلاده . ولما عرف والده حقيقة عقائده ثار عليه وزاد سخطه ، واتخذ جميع وسائل الإرهاب والتعذيب لإبعاده عن عقيدته ، ولكنه فشل فى كل محاولاته فشلا ذريعا ، لأن الآلهة كانوا مع ابنه ينصرونه ويمنعون عنه الأذى . وذات يوم دار بينهما نقاش حاد عن الإله ڤشنو ، وتحدى الملك الإله ڤشنو ، ورفض الاعتراف بوجوده أو جبروته فى هذا الكون وسأل ابنه : ولماذا لا يظهر ڤشنو أمامه ؟ ولماذا يختفى عن الأنظار ؟ ، ثم ركل الأعمدة المقامة فى قصره بكل قواه وحطمها تحطيما ، وإذا بالإله ڤشنو يخرج من الأعمدة ويقف أمامه فى صورة أسد ، ورأسه كرأس الإنسان ، ويقبض عليه بيده قبضا شديداً ، ويمزقه تمزيقا ، وبهذا انتهت أسطورته .

ثم تولى عرشه ابنه، ونشر مبادىء الإله ڤشنو ، وظل على ذلك حتى وافته المنية ثم جاء ابنه من بعده ، ثم حفيده ، واقتفى كل منهما آثاره .

وتقول أسطورة أخرى إن « راون » الملك الشرير الذى كان يكن عداوة شديدة نحو « راما » اعترف به أخيراً ، وقال : إنه لم يخطف سيتا وزوجته إلا لرؤية راما ، وشوقه الزائد ليلاقى مصرعه على يديه ، وذلك لينال والنجاة والخلاص بعد الموت .

الديانة الجينية

لقد ظهرت الديانة الجينية كرد فعل عنيف ضد عقيدة التناسخ الكهنوتية التى ظهرت لإيجاد التفرقة الطبقية العنصرية بين الناس ، وامتصاص دماء الشعب الدراويدى المغلوب على أمره ، واستنزاف قواه ومواهبه لصالح أغراضها الشخصية وتحقيق مآربها الفردية وتوطيد سيطرتها على الناس أجمعين . كان « ڤارادامانا » (Vardhamana) منشىء هذه الديانة . قد ولد خلال عام ٥٤٠ ق.م فى بلدة « ويسالا » . وهو كان أصلا من الطبقة الثانية من الآرية ، أى طبقة القواد والعساكر . وكان أبوه رئيساً كبيراً ، وزعيما بارزاً فى هذه الطبقة الآرية الثانية .

وقد ثار هذا الزعيم الدينى على العقيدة الكهنوتية التى أثبتت اتصال الروح بالجسد على الدوام ، ودوران انتقالها وفق مفروضات قرروها لصالحهم وتحقيق مآربهم . وقد حاول ابطال مزاعم الكهنة فى هذا الصدد قائلا : « إن الروح ما دامت تكون محبوسة ومقيدة بأغلال الجسد وسلاسله لن تصبح فى فسحة ، ولن تتحرر لتنطلق إلى آفاق غير محدودة ، ولن يتسع سلطانها ، ولن تظهر عبقريتها ولن يتحقق نبوغها . وقد اعتكف هذا الإنسان العظيم لمدة اثنتى عشرة سنة واعتزل الناس جميعا ، ومارس رياضيات روحية شاقة ، ثم وصل إلى هذه النتيجة المذكورة التى تحرر الروح من قيود الجسد ودوران التناسخ . ثم ظهر أمام الناس لينشر دعوته . وقد بلغ من عمره الان الثانية والأربعين سنة ، وأصبح مقدسا ، وصاحب رسالة جديدة فى إطار الديانة الهندوكية . ثم واصل جهوده

فى نشر هذه الدعوة وظل يدعو الناس إليها ، وينتقل من قرية إلى قرية ومن بلد إلى بلد حتى استطاع تشكيل جماعة لانصاره واتباعه . وقد سميت هذه الجماعة « الجينية » Jainism ، وهى مشتقة من كلمة « جينا » Jina ومعناها : المنتصر على العواطف والرغبات والمسيطر عليها . ولانتصار هذه الرسالة قد جاهد هذا القديس وناضل إلى أقصى الحدود . وعاش حياة بسيطة فقيرة وسط البؤساء والضعفاء . فلما توفى انقسم أتباعه إلى فرقتين متصارعتين ، وبالتالى إلى جماعتين متنازعتين واتخذ كل منهما شعارا ، مخصوصا ، فقد اكتست طائفة منها بكساء أبيض ، واكتست أخرى بكساء سماوى ، أى عاشت على الطبيعة بدون ثوب ولا كساء ، بل شبه عارية .

إننا لانعرف على وجه التحديد دعوته تفصيلا ، ولكن ديانته الجديدة قد اشتهرت بعده بالقيم والمبادى الآتية :

١ـ قد فرضت رياضيات وتدريبات جسمانية وروحية قاسية صارمة على أتباعها وأنصارها لعلو الروح لتأخذ مكانتها الطبيعية ، وتسيطر على الرغبات والعواطف والشهوات ، واتبعت طريقا خاصا للتأمل والتفكير والاستغراق فى الله .

٢ ـ الغت جميع أنواع القرابين ، بل منعت أكل اللحوم لجميع الحيوانات وذلك اشفاقا على الحيوانات ورحمة بها .

٣ ـ حرمت جميع أنواع المنكرات والفواحش مثل الكذب والسرقة والزنا بل فضلت التجرد على الحياة الزوجية للتخلى عن جميع الفواحش والعوائق التى تسببها الحياة الزوجية وتحول دون الوصول إلى الغاية المنشودة .

٤ ـ ومن لم يرض بممارسة حياة القديسين والرهبان فى هذه الديانة سمح له بممارسة الحياة الزوجية فقط ، وأما الأمور الأخرى فلم يستثن منها أحد .

٥ ـ قد خفضت الأدوات والاحتياجات التى يتطلبها الإنسان فى الحياة

اليومية إلى أدنى مستوى ، وفرضت على كل فرد ممارسة حياة بسيطة زاهدة للغاية ، ومنع من السعى وراء الحياة الفاخرة وطلب الكماليات التى تسبب جميع المشكلات فى الحياة ، وتحمل الإنسان على طلب العوالى والمفاخر وبذل كل الجهود من أجلها ، ناسيا أو تاركا كل المبادىء والقيم الإنسانية .

ونتيجة لهذه التعاليم والقيود الصارمة تطورت هذه الديانة وسارت فى اتجاه معين ، وبمرور الأيام قد انخفضت الحماسة لهذه الديانة ، وأصبح أنصارها معدودين . لقد ظل القديسون والرهبان على أمرهم ، وأما أنصار هذه الديانة واتباعها العاديون فلم يرضوا بالحياة البسيطة المتواضعة الزاهدة التى فرضتها عليهم هذه الديانة ، فأصبحوا من كبار ملاك الأرض والمصانع والشركات . وهؤلاء يشكلون الآن ربع مليون نسمة فقط من سكان الهند ، وذلك فى ولاية واحدة وهى بومباى — مركز الصناعات والتجارة — ، ومعظمهم من كبار أصحاب الأموال . ولكنهم امتنعوا كلية عن أكل اللحوم ، وتبعاً لذلك امتنعوا — منذ البداية — عن ممارسة جميع المهن التى تؤدى إلى تربية الحيوانات وترويضها ، وبيعها ، وشرائها وذبحها ، وتنظيف جلودها . ولذلك لانجد منهم أحداً يمارس مهنة الجزارة أو اصطياد الأسماك أو صنع الجلود وما إلى ذلك .

لقد قلنا من قبل إن هذه الديانة هى التى أثرت فى جميع الهندوس للامتناع عن اللحوم وذبح الحيوانات وبيع جلودها ، ثم أعطت الديانة الهندوكية الأولوية للابقار فى هذا الصدد ، وذلك كرد فعل لموقف غير النباتيين ممن لا ينتمون إلى الديانة الهندوكية . ثم خدع الكهنة الهندوكيين البساء بزعمهم أن الديانة الهندوكية تحرم ذبح الأبقار وأكل لحومها ، بل تقدس هذا الحيوان ، مع أن الديانة الهندوكية الآرية القديمه لم تنص على شىء فى هذا الأمر ، ولم تفرض أية قيود على ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، شأنها فى ذلك شأن جميع الديانات الآرية مثل ايران واليونان وأوربا كلها .

إن أتباع الديانة الجينية لايتبعون الآن فى تنظيمهم الحديث أصول هذه الديانة ومبادئها بحذافيرها ، بل لانجد عندهم الآن بتاتا البحث فى تصور الله سبحانه والسعى وراء معرفته ، ويوجهون كل الاهتمام لاستمرار العلاقة بين الروح والجسد والمادية والمعنوية ، ويسعون للوصول إلى هذا الهدف ، ويمارسون كل التجارب لتحقيق هذه الغاية ، ولكنهم فى نفس الوقت لايلتزمون بالخطوط التى رسمتها الديانة من قبل وهى مزاولة التدريبات الجسمانية والروحية الشاقة للتخلص من جميع الرغبات والشهوات .

بوذا : حياته وتعاليمه

وقد اختلف الباحثون حول عصر بوذا وتاريخ ميلاده ووفاته ، ولكن آخر نتيجة وصلوا إليها فى هذا الصدد هو أنه ولد فى عام ٥٦٠ق‌م وتوفى فى عام ٤٨٠ ق‌م وبهذا يكون بوذا معاصر المنشىء الديانة الجينية ، ولكنه نشر تعاليمه بعد جيل من وفاة صاحب الديانة الجينية . لقد ولد بوذا فى ولاية بيهار بالقرب من الهملايا ، وعلى مسافة مائة ميل فقط من « بنارس » تلك — التى تعتبر الآن مدينة مقدسة للهندوس — ، وذلك من عائلة آرية من الطبقة الثانية وهى جماعة القواد والعساكر . وكان أبوه ملكا صغيرا فى تلك المنطقة ، وبهذا يكون بوذا أميرا ، وولد فى بيت ترف ونعيم ، وتربى على النعيم وشب عليه . وقد بدأ حياته الأولى كأى أمير وتزوج فتاة جميلة كانت ابنة ملك مجاور له ، وهو لم يبلغ العشرين حينذاك ، ولكنه سرعان ما انقلب على هذه الحياة وما فيها من الترف والبذخ ، وأحس بمشكلات الناس ومتاعبهم وآلامهم ، ولاسيما طبقة البوساء والفقراء ، فقلق واضطرب ، وترك كل شىء فى قصره ، وتوجه إلى غابه فى الهملايا ، وهام فيها على وجهه سنين ، واتخذ مكانا فيها للتأمل والتفكير والاستغراق فى البحث على نور وضياء يهتدى به ، وذلك لإذهاب آلام الناس وأحزانهم . وبعد ست سنوات انشرح قلبه ولاحت له أضواء كاشفة فخرج على ضوئها ونورها من التأمل والتعبد متجها

إلى عاصمته لنشر دعوته ومبادئه التى انشرح لها قلبه ، واطمأنت بها نفسه .

وقد حيكت حكايات وقصص كثيرة حول ولادته ومعجزاته منذ صغر سنه ، وجهوده وتعبه فى الغابة أيام التأمل والتعبد . وكل هذه الأمور توحى إلينا بأنه قد انتهج طريقة وحدة الوجود واليوجيه والبهاكتية على السواء ، ومارس التدريبات على نفى الذات . فقد استفاد فى بداية عهده بالغابة من الرهبان المنعزلين والمولعين بحب الله وذاته ، وكذلك صاحبه بعض رفقته فى هذه الرحله ومارسوا نفس التجارب فى مكان آخر فى نفس الغابة ، ولكنهم ظلوا منعزلين ومتأملين ، ولم يصلوا إلى النتيجة ، ولكن بوذا وحده قد كلل بالنجاح فى رياضاته الروحيه ومتاعبه . ومن هنا تعلم بوذا عقيدة نفى الذات ، وقتل الأنانيه ، تلك التى ظل ينشرها بين الناس طوال حياته ، الأمر الذى صارت من أبرز معالمه الدينيه . ولما عاد بوذا من الغابه كان هيكلا من العظام ، ولم يبق شىء من اللحم فى جسده بسبب معاناته الجوع والعطش والمتاعب والمشاق طوال ست سنوات .

لقد اختار بوذا لنفسه ازياء اليوجيين منذ مغادرته قصره ، فلما عاد من الغابه ظل عليها ، وهى عبارة عن كساء يكتسى به جسده كله .

وقد أصبح نفى الذات محور التعاليم عنده . ولم يكن معنى ذلك أنه دعا الناس إلى مغادرة البيوت والاهل والمال ، والتوجه إلى الغابات والجبال لممارسه التجارب الصوفية واليوجيه والبهاكتية ، بل أعطى لنفى الذات معنى عمليا متحركا ، يمكن تطبيقه فى حياة كل فرد وفى كل عصر . فكانت النتيجة التى وصل إليها من خلال تجاربه أن الآلام والأحزان والمشكلات التى يعانيها كل فرد فى الحياة سواء أكان فقيرا أو عاجزا أو غنيا إنما سببها زحمة الآمال والأمانى والرغبات والشهوات التى تراود الانسان وتحتضنه دائما . وحينما يفشل الإنسان فى تحقيق هذه الغايات يألم ويحزن وييأس ، ويعانى أنواع المتاعب والإرهاق الجسدى والنفسى . ولأجل ذلك ينبغى له ممارسة الضغط على هذه الأمانى والرغبات بل والسيطرة عليها والقضاء على الذات والأنانيه وإبادته ليعيش سعيدا فرحا فى الحياة .

وقد ذكر بوذا أربعة أمور فى أول موعظة له فى مدينة بنارس وهى :

١ — ما هى حقيقة المشكلة وما هو سر كل الأمراض ؟ الولادة داء ، والعجز والشيخوخة داء ، والمرض داء ، والموت داء . وإذا مس الإنسان ما لا يرضاه يعانى مصيبة ، وكذلك تقلصه من الرغبات مصيبة ، وإذا لم تتحقق طلباته يعانى الآلام ، وبهذا يظل يعانى الآلام والمصائب والمشكلات .

٢ — إذا ما هى الحقيقة ، وما هو سر هذا الداء ؟ هى تلك الرغبات والشهوات التى تحمل على التناسخ والظهور من جديد بعد فناء هذا الجسد ، وبصورة جديدة ممتازة عالية ، ويصحب هذه الرغبة أنواع من الحـــــرص والطمع والطموح جادة فى البحث عن وسائل تحقيقها فى كل مكان . وفى عبارة أخرى : شهوة تحقيق الرغبات الجنسية وممارسة التجارب من أجل خلود الذات وبقائه ، ورغبة الموت لتحقيق هذه الغاية .

٣ — ما هو إذن العلاج إذن لمنع هذه الأمور والحيلولة دون حدوث هذه المشكلات والآلام ؟ وعلاجها منع جميع الرغبات والآمال والأمانى والتخلص منها نهائيا ، وإنكار الذات مطلقا ، وإلقائها والتحرر من الذات بكل الوسائل وقطع جميع الصلات بها .

٤ — وما هى الطرق التى توصل إلى منع جميع الأحزان والآلام ؟ هى تتضمن فى ثمانى نقاط هامه وهى الطرق الحقيقية الموصلة إلى هذه الغاية المنشودة : (١) اتجاهات صادقة سليمة (٢) رغبات صادقة (٣) كلام صادق (٤) سلوك طيب (٥) معيشة طيبة (٦) جهود مخلصة صادقة (٧) تفكير صادق سليم (٨) تركيز صادق سليم .

وهذه الأمور الأربعة هى التى أصبحت جوهر الديانة البوذية على مدى العصور . وعلى ضوء هذه الأمور البسيطة العملية الساذجة الإيجابية يرى

الباحثون أن الديانة البوذية ليست فلسفة إطلاقا ، بل هى رياضة وعمل . وقد اعتمد بوذا منذ أول وعظه على العمل لتحقيق مبادئه ، ثم شرح هذه الأمور بأسلوب بسيط ، وعلى طريقة الحوار فى تسلسل وترتيب طبيعى ؛ ومراعاة لكل الجوانب النفسية والإنسانية .

لقد اعتقد بوذا أن عقيدة التناسخ هى أم الخبائث واس المشكلات والآلام والويلات . ولذلك حاربها بكل الوسائل فى تعاليمه ، وبهذا تكون دعوته ثورة على الكهنوتية الآرية والسيطرة الطبقية ، ومع أنه هو الآخر كان من الآريين من الطبقة الثانية ، إلا أن تعاليمه شملت جميع الأجناس والطوائف والطبقات ، واستهدفت توفير السعادة لجميع هؤلاء ، وقصدت تحطيم جميع الأغلال والسلاسل والقيود والموانع الحائلة فى طريق الوصول إلى الهدف المنشود . ونتيجة لذلك دعت تعاليمه إلى الضرب بجميع أنواع الطقوس والقرابين عـــــرض الحائط ، والاكتفاء بالتجارب العملية لتنقية الروح وتهذيب النفس وتربية الأخلاق الفاضلة والتدريب على السلوك الممتاز .

وقد وجه بوذا عناية كبرى إلى الناحية الأخلاقية والمبادىء السامية . إن المبادىء العليا والطهارة الروحية عنده تتضمن الأمور الآتية : الوفاء والإخلاص فى الحياة الزوجية ، وإباحة أكل اللحوم للعيش والغذاء (بخلاف الديانة الجينية التى حرمت اللحوم) ، وتحــــريم المسكرات والمخدرات ، وتحريم القمار ، وعدم الاندفاع فى التجمل وطلب المعالى والكماليات ، وعدم التطواف فى الشوارع بدون ضرورة ، وعدم ممارسة حياة الكسل والبطالة ، وعدم مصاحبة الأشرار وملازمتهم .

ومن المعروف أن بوذا قد شن حربا شعواء على عقيدة التناسخ . ولكن هذه الناحية تجلت فيما بعد بصورة سلبية وهى أنه قـــــد أحاط الغموض فيما يتعلق بعقيدة الآخرة فى البوذية . ولا شك أنه أبطل التناسخ

ودوران الروح ، ولكنه لم يأت ببديل إيجابى للتناسخ كما يبدو لنا من قراءة آثاره . ولا نعرف على وجه اليقين : ماذا كان يعتقد عن الروح بعد مفارقتها الجسد الإنسانى فور الموت ؟ ومما لاشك فيه أنه لايعتقد وجود الروح على حدة منفصلة دون التصاقها وارتباطها بالجسد ، ولكن ماذا يحدث بعد الانقطاع بينهما ؟ يعتقد الباحثون أنه كان يؤمن بنوع من البرودة بعد الموت ، أى لاحياة ولا موت ، ولا بعث ولا نشور ، ولا ثواب ولا عقاب ، وفى نفس الوقت لا عدم ولا فناء . ولكن هذه الحالة فى نفس الوقت تكون عظيمة وعميقة وغير محدودة ، ومثلها مثل البحار العميقة الأغوار . وهذه العقيدة هى التى تسمى فى البوذية « نرفانا » . (Nirvana)

ومن الجدير بالملاحظة أن تعاليم بوذا قد سادتها أنواع من الغموض والملابسات . والسبب فى ذلك أن تعاليمه كانت تتناقلها الألسن اعتمادا على الذاكرة قرابة أربعة قرون . وفى خلال هذه المدة الطويلة أضيفت إلى عقيدته وتعاليمه إضافات كثيرة ، ونسبت إليه أمور عديدة ، وكما نسبت إليه عشرات من الكتب . وقد ثبت فعـــــلا ثبوتا علميا وجود الخلط والتحريف فى كثير مما يروى عنه وينسب إليه . كما لا نملك دليلا قاطعا على تأليفه كتابا واحدا من بين عشرات من الكتب المنسوبة إليه . ومن هنا يعتقد بعض الباحثين الأفرنج أن ما نسب إليه من عقيدة سلبية عن الآخرة قد أضيفت إلى ديانته ، ونسبت إليه بعد وفاته بقرون . وكذلك عرض بوذا نفسه فيما بعد فى صورة إله قد تجسد فيه فشنو ، كما تجسد من قبل فى راما وكرشنا .

وكذلك تثار مشكلة أخرى فيما يتعلق به وديانته ، وهى أننا لانجد فى تعاليمه ومبادئه أثرا يدل على إيمانه بإله واحد أو عدة آلهة أى بالتوحيد ولا بالوثنية . وهذا الأمر يذهب بنا إلى كثرة الظنون حول شخصيته :

ومن هنا اعتقد بعض الباحثين أنه كان وجوديا (أى ملحداً) . ومن ثم لايحاول أحد من البوذيين الخوض والتفكير فى الله ووجوده وذاته مطلقا ، وواجبات الانسان نحو الله فى حياته . لأن بوذا لم يدع إلى هذه الأمور ، ولم يكلف أحداً بالخوض فى هذه المسائل التى لاتعنيه ولاتجديه فى الحياة .

ولكن هذه تهمة وجهت إلى بوذا ظلما وزوراً ، لأن أتباعه بسبب مواصلة عملية الإضافات والتعديلات فى دينه قد شوهوا معالم عقائده ، وجعلوها مشكلة إنسانية مادية فقط ، وهى تحرير الانسان من جميع أنواع العبودية ؛ وتخليصه من قيود دوران الروح ، وحل مشكلاتها وآلامه بعمل ايجابى وتجارب عملية عن طريق ممارسه الضغط على الذاتية والأنانية . إن الالحاد أو الوجودية يوجب إنكار الله وقدرته وجبروته صراحة ووضوحا . ولكن فيما يتعلق ببوذا — على الرغم من كل التشويهات فى أقواله وكلامه — فلا يوجد نص صريح يدل على إنكاره الله ، بل كل مانراه هو موقف الصمت الرهيب والسكوت الكامل إزاء الله ، لا نفى ولا اثبات ، موقف سلبى تماما ، شأنه شأن « نرفانا » عقيدة الآخرة .

البوذية فى عصر بوذا

ومن المعروف أن بوذا قد اتخذ حياة الزهد والتقشف والتنسك منذ عودته من الغابة . فقد توفيت زوجته قبل عودته من الغابة ، فلم يتزوج ثانية ولم ينجب ، ولم يتخذ له مسكنا رغم أنه كان يملك العرش كله ، كان يلبس كساء اليوجيين والرهبان . وإذا حل فى أية قرية لنشر دعوته كان يوفر له أهلها المسكن والمأوى والأكل والشرب له ولحواريه . ولم تنشأ الأديار طوال حياته ، لأنه لم يدع الناس إلى الرهبانية كما حارب جميع الطقوس التى تؤدى فى المعابد الهندوكية ، والذلك لم يكن داعيا إلى إنشاء الأديار والمعابد لأتباعه ، وناهيك بحياة التنقل والتجول التى مارسها طوال حياته دون راحة أو سكون ودون قرار أو مستقر . لقد

كرس حياته كلها فى إنقاذ البشرية من ويلات الآلام والأحزان والمشكلات بالطرق السلمية الايجابية . قد أعجب به كثيرون من الشبان والكهول ، من الرجال والنساء ، ولازمه هؤلاء على الدوام ، وحاولوا اقتفاء أثره فى كل شيء ، فى الملبس والمأكل والمشرب والمسكن والمأوى . وقدكان هؤلاء الحواريون يزاولون تدريبات روحية ، ويجتمعون فى مكان بين حين وآخر لمذاكرة تعاليم بوذا وتطبيقها عمليا على أنفسهم . ومن النظم التربوية السائدة فى مدرسة بوذا الروحية المتنقلة أن حواريه كانوا يعقدون الاجتماعات فيما بينهم ، ويقومون برحلات روحية للتدريب على تعاليمه ، وتنقية الروح من الأوثان ، ويعلنون على مسمع من الناس ومرأى منهم ذنوبهم التى ارتكبوها حتى لايعودو إليها مرة أخرى .

فلما كثر عدد أتباعه فى كل قرية ، اتبع هؤلاء نظام المجالس القروية الموجودة فى كل قرية منذ القدم أى منذ قدوم الآريين إلى الهند ، وحاولوا عرض الأمور الدينية والدنيوية التى تعترضهم بين حين وآخر فى هذه المجالس لحلها عن طريق المناقشة الحرة . وكانت القرارات تتخذ بالإجماع ثم تنفذ . وكان ينتخب أعضاء المجالس من بين الرهبان أنفسهم . وبهذا قامت الأديار رويداً رويداً ، وتلتها التنظيمات السياسية والطرق التبشيرية فى البوذية .

وبما أن بوذا قد ركز جهوده كلها لحل مشكلات الناس وآلامهم كانت تسير دعوته فى الحقيقة — من وجهة نظرنا العصرية — على خط الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى . وهذا هو السبب فى أن بوذا لم يدع أتباعه إلى ترك الدنيا والتخلى عن شئونها ، واتخاذ الرهبانية فى الحياة ، ومغادرة البيوت إلى الغابات لممارسة الحياة الصوفية واليوجية .

إن بوذا قد ترك فى حواريه وأتباعه تأثيراً قويا أبديا . لذلك ظلت العلاقات متوطدة بينه وبين أنصاره دائما وأبداً . وهذه العلاقات جعلت الدين والسياسة ينسجمان إنسجاما كاملا متينا لاتنفصل عراهما أبداً كما أخمدت رغبات التفوق بين أنصاره وشهوة الأنانية والكبرياء والغرور

الداعين للحط من شأن الآخرين والتقليل من أعمالهم وجهودهم وفضائلهم ، بل خلقت فى نفوسهم سماحة ومودة ورحابة صدر بشكل مذهل اعترافاً بفضل كل فرد منهم وتجاربه الروحية ، بل وعرضه عرض تجاربه فى صورة مكبرة أمام الجماهير .

وعلى مرور الزمن وانتشار البوذية فى أنحاء آسيا اتخذت البوذية لوناجديداً فى كل مكان ، وملامح مخصوصة ، وتجاوبت مع طبيعة كل منطقة وروحها الأصيلة وتقاليدها وتراثها . فالبوذيه فى الهند وسيلانو بورما والصين واليابان . ليست على صورة واحدة ، وتنظيم واحد، بل تختلف ملامحها اختلافاً شاسعاً. ويرى الباحثون أن البوذيه فى سيلان هى أقرب صورة إلى بوذا بالنسبه إلى البوذيه فى الأقطار الأخرى من الدنيا .

لقد رسمت صورته فيما بعد ونحت له تمثال اعجاباً به وتقديساً له ، ثم دعا هذا الإعجاب به لمنحه صفات الألوهيه واتخاذه إلها متجسداً فشنو فيه .

ومن الجدير بالذكر أن القرن الذى ولد فيه بوذا ونشرت تعاليمه كان عصراً بكراً خصباً للعالم أجمع . فقد ظهرت فى العالم المعاصر له ديانات ودعوات مماثله له . قد ظهر أنبياء كثيرون فى فلسطين وأنذروا بنى اسرائيل بسببه جرائمهم التى ظلوا يرتكبونها وتنبئوا بسقوط بيت المقدس وجلاء اليهود من أرض فلسطين ، ذلك الذى تم فعلا فى حدود عام ٥٨٧ق م حينما أجلى ملك بابل اليهود من فلسطين . وكذلك ظهر زرادشت فى إيران ونشر تعاليمه كما ظهر فى الصين « كونفيوشس » وأنشأ دينه الجديد . ولكن لانجد ثمة أثراً يثبت أن بوذا تأثر بالديانات السامية فى الشرق الأوسط ، أوكان للديانه البوذيه أثر فى ظهور الأديان فى كل من إيران والصين . لأن طبيعة هذه الأديان وأهدافها ورسالاتها واجوائها تختلف اختلافاً كبيراً .

* * *

البوذية بعد وفاة بوذا

لقد أشرنا من قبل أن البوذيه قد أجريت فيها تعديلات كثيرة بعد وفاته. إن الحركه البهاكتيه الدراويديه الأصل قد أعجبت ببوذا وتعاليمه اعجاباً شديدا ، وذلك من ناحيتين : أولاها أنها تهدف القضاء على عقيدة التناسخ الكهنوتيه ، كما استهدفت البهاكتية القضاء عليها كذلك ، وثانيها : أن البوذيه تقضي على النظام الطبقي العنصري ، وتدعوا إلى إيجاد المساواة بين جميع البشر دون تمييز طبقي أو عنصري . من أجل ذلك اعتبرت « بوذا » هو الاخر إلهاً قد تجسد فيه « فشنو » ، كما تجسد من قبل في راما وكرشنا . وبهذا دخل بوذا في طور جديد إلى البهاكتيه ، ثم انتشرت هذه العقيدة في أنحاء الهند ، واعتقدت جميع الفئات الهندوكيه أن فشنو قد تجسد الآن في بوذا . وتبعا لذلك قد حيكت أساطير جديدة حول بوذا ، وهي أنه قد تشرف بالنزول إلى الأرض وقد تجسد فيه فشنو لهداية البشرية وانقاذها من آلامها وأحزانها . إنه يكون موجودا دائماً في هذا الكون ، إما على هذه الأرض أو في السماء . ثم اسبغت عليه صفات رب العالمين والموجود الازلي الدائم الأبدي ، ومحور العالم كله . وعرض على أنه هو محور الكائنات كلها ، وهو الذي يتخذ عدة أشكال وألوان كلما اقتضت الضرورة ذلك لهداية البشر والرفق بها ومساعدتها في محنها وآلامها .

تقول الأساطير إن بوذا قد مر بعدة أشكال ودخل عدة أجساد قبل ظهوره في شكله الأخير كالإنسان المنقذ الهادي . وقد كان يقوم في حياته الأولى بمهمة نشر تعاليم الآلهه في السماء ، وولد أخيراً في « كابيلفاستو » ابنا لملكها «ساكياس» .

وقد سميت الأساطير التي تتعلق بحياته قبل نيله « النور » « جاتاكاس » أو الوحي في أصح التعبير . وهذه الاساطير كلها ليست بوذية أصيلة في صياغتها بل معظمها يعتبر مجموعة من القصص و الاساطير التي كانت متداولة في الهند منذ زمن بعيد ، أو ظهرت بعد « بوذا » ، فاندمجت أخيراً في « جاتاكاس » واتخذت ملامح وخصائص البوذية . فلما أخذت البوذية طريقها إلى الشرق

الأوسط فى السنين الميلادية الأولى وقبلها بقليل دخلت فيها أساطير هذه البلدان واندمجت فيها ، وهكذا ألتقت كل الأساطير الهندية المتمثلة فى البوذية وأساطير الشرق الأوسط فى ساحة واحدة وتجاوبتا إلى أقصى الحدود .

وكذلك دخلت الأساطير البوذية الهندية الصين واليابان وبورما وسيلان عن طريق البوذية التى سادت هذه المناطق واستولت على عقول سكانها ، ثم انعكست فيها روح تلك البلدان وأساطيرها ، وبهذا ظهرت أساطير ممزوجة بالروح الشرقية كلها فى مظهر الأساطير البوذية .

وهكذا تكون الأساطير الهندية قد لعبت دوراً كبيرا فى الحياة الدينية والفكرية والأدبية فى شعوب آسيا أجمع ، وتركت آثارا بعيدة المدى فى آدابها . ولم نزل نلمسها فى آداب تلك الشعوب حتى الآن ، كما أخذت طريقها إلى أوروبا واندمجت فى الآداب اليونانية والرومانية كما سنذكرها قريباً .

فرقتان بوذيتان : المهايانا والهينايانا

وبعد وفاة الامبراطور أشوكا — مبشر الديانة البوذية فى الهند فى سنه ٢٣٢ ق.م كما سنذكره قريباً — ، ومن جراء الحركة البهاكتية قد ظهرت عقيدة جديدة بين البوذيين الهنود تسمى « المهايانا » Mahayaua ، تلك التى أضفت على بوذا صفات الالوهية ، وعرضته فى صورة رب العالمين . وهذه العقيدة هى التى انتقلت إلى كل من الصين واليابان وانتشرت فيهما . ولكن جماعة أخرى ولا سيا البوذيين فى سيلان قد عارضوا هذه العقيدة منذ البداية ، وصرحوا بأن « بوذا » لم يكن إلا بشراً قد جاء لهداية البشرية ، وآمن هؤلاء بالنصوص البوذية القديمة التى ألفت باللغة البالية — المناوئة للغة السنسكريتية — تلك التى تعرضه كبشر . وتسمى هذه الجماعة « الهينايانا » Hinayana . وإن كانت هذه الجماعة من ناحية أخرى تحترم بوذا وتقدسه إلى أقصى الحدود .

وقد وصلت إلى سيلان مبكرا كثير من آثار بوذا ومخلفاته من الهند وهى تتكون من طاس وناب وترقوة ، يقدسها البوذيون ، كما يقومون بالحج إلى الأماكن التى ولد فيها بوذا بالهند وتربى واعتكف ونال النور ونشر تعاليمه .

الفصل الرابع

دخول الهند فى طور الحضارة من جديد والتقاؤها مع العواصم الحضارية الكبرى فى العالم

وبسبب الحياة الريفية والنظم البدوية السائدة فى البلاد طوال العصور الآرية من وادى نهر الهند حتى ضفاف نهرى الجنجا والجمنا ، لم تقم المنشئات المدنية ، ولم تشيد القصور والحصون ، ولم تصنع الأدوات الحضارية مطلقا . وإن ملحمة المها بهاراتا التى تصور المعارك الداميه بين الطائفتين الآريتين قبل القرن التاسع قبل الميلاد ، هى الأخرى تصور الروح البدوية السائدة فى الحروب مثل الاعتقاد فى الآلهة حتى اثناء المعارك ، وكذلك الأسلحة التى تلوح لنا من خلال ملحمة المها بهاراتا من القوس والرمح والخيل والعربات هى نفس الأسلحة الحربية التى حملها الآريون خلال عام ١٨٠٠ ق.م تقريبا ، حينما زحفوا على الهند . ولم يحدث فى هذه الأسلحة والتكتيك الحربى القديم أى تطور أو تجديد . وكل ذلك يرجع إلى الاسباب البدوية التى عاشتها الامة الآرية خلال هذه العصور حيث لم توجه فيها العناية إلا إلى تنمية الوجدان والفكر الصوفى والخيال المجنح الخصب نحو الآلهة وعرضه فى مختلف الاشكال والانواع البديعة ، تلك التى تبشر بوجود طاقات هائلة من المواهب الادبية فى الشعب الآرى ولدت خلال الملحمتين « الرامايانا والمهابهاراتا وسالت وفاضت وسقت الهند كلها.

لقد أوردنا من قبل أن كتب الفيدا واليوبانيشاد تشير بوضوح إلى وجود النظام الريفى الذى امتاز بطابعه الديمقراطى . لقد خول فيه للشعب سلطات انتخاب مجالس القرى عن طريق الانتخابات الحرة . وكانت هذه المجالس تختار الملوك أو تعزلهم أو تعيدهم إلى العرش مرة أخرى . ولكن بعد قيام الدول المدنية الكبرى سلبت من أيدى الشعب جميع السلطات الديمقراطية ، وحلت مجالس القرى التى اسندت إليها سلطات اختيار الملوك أو عزلهم محلها.

ولم يبق الآن إلا تلك المجالس فقط التي كانت تنظر في قضايا الناس ومشكلاتهم وتحكم فيهم وتحل مشكلاتهم . وهذه المجالس القضائية الشعبية لم تزل تمارس نشاطها في معظم مناطق الهند ولا سيما في الهند الجنوبية .

إن المجالس التي الغتها الدول المدنية الجديدة لم تنمح إلى الابد ، بل اخذتها البوذية — فيما بعد — بحذافيرها وطبقتها في الاديار التي اقامتها في انحاء البلاد ، حيث انشئت المجالس على نفس الانماط الريفية للنظر في الشئون الدينية والاجتماعية .

لقد استطاع الآريون خلال عام ٨٠٠ ق.م قطع الغابات الكثيفة الموجودة على ضفاف نهرى الجنجا والجمنا وانشاء القرى والارياف ، وتطوير الحياة البدوية إلى الطور المدني الأول . وفي هذه المناطق السهلية قامت دولتان مدنيتان خلال القرن السادس قبل الميلاد أولهما «كولاسا» ، في ولاية اتاربراديش وفق التقسيم الحديث للولايات الهندية ، وثانيهما «مجدا» في ولاية بيهار . وفيما يتعلق بنظم الحكم في هاتين الدولتين تشير الدلائل إلى أنها كانت اوتوقراطية أو استبدادية متحالفة مع طبقة النبلاء أو الارستقراطين وكبار ملاك الارض أو الاقطاعيين بالاضافة إلى الكهنة . لقد قامت هذة الدول في الحقيقية لاستنزاف الدماء والعروق من القوى العاملة من الفلاحين والعمال والتجار الصغار لحساب هؤلاء المتحالفين من العناصر الثلاثة . وبهذا نشأ هذا النظام الثالوثي على غير النهج الريفي الديمقراطي المعروف ، وسار على الطريق الملكي شبه الاستبدادي الدكتاتوري .

ثم استولت هذه الدول الكبرى المدنية على كثير من الدول الصغيرة الحرة في انحاء شمال الهند ذات الصبغة الريفية والنظام الريفي . ومن نتيجة ذلك أن اتجهت البلاد ولأول مرة إلى التوسع والوحدة والشمول .

كانت الزراعة عمادالاقتصادفي البلاد في هذه الآونة . وقد ساعدها على ذلك وجود النهرين الكبيرين وروافدهما ، والمناخ المناسب لزراعة القمح والأرز بالاضافة إلى الرياح الموسمية والأمطا الغزيرة . ولكن استصلاح مزيد من

الأراضى عن طريق إزالة الغابات كان يتطلب امكانيات مادية كثيرة أخرى مثل شق الترع والبرك وإقامة السدود وخزانات المياه . وهذه الامور كلها كانت تحتاج إلى حياة مدنية أكثر منها ميلا إلى الريفية . ولذلك اتجهت الحكومات إلى هذه النواحى منذ القرن السادس قبل الميلاد وازدهرت الزراعة ، ولا سيما زراعة الأرز ازدهارا كبيرا . وقد شغلت الحكومة عددا كبيرا من العمال لشق الانهار والترع والبرك وإنشاء القناطر ، وبهذا ظهر نظام الرى المتقدم فى البلاد ، على غرار أية بلاد متقدمة مجاورة لها فى تلك الآونة مثل العراق ومصر .

ولكن نظام الرى قد تقدم إلى مستوى كبير خلال السنين ٣٢١–٢٩٧ ق.م فى عصر الامبراطور شندرغبت موريا .

إن الأمة الآرية – كما أشرنا آنفا – لم تطور اسلحتها التى جلبتها من موطنها الأصلى قرابة ألف سنة . ومع أنها حملت الحديد إلى الهند ، ولكن لم تستخدمه فى صناعة الأدوات والأسلحة . وكانت الأسلحة عندها عبارة عن القوس والرمح كما وجدنا فى الملاحم . وعلى الرغم من وجود الخيول والعربات اللذان حملتهما من موطنها الأصلى ، فلم تجر فيهما تعديلات جديدة من الناحية الحربية . ولكن هذه الأحوال قد تبدلت رأسا على عقب منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وقد صنعت اسلحة حديدية جديدة . وقد نسجت الهند فى ذلك على منوال الشرق الأوسط ، فتوافرت لديها الأسلحة الحديدية المعروفة فى تلك الآونة . وبالاضافة إلى ذلك انشئت قوات جديدة مسلحة مثل قوات المشاة والفرسان ، والغيت العربات فى الشئون العسكرية ، وحلت محلها أنواع من الحلل الحديدية كالدروع الواقية فى الحرب . وكذلك استخدمت الأفيال إلى جانب الخيول . ومن المعروف أن غابات الهملايا الكثيفة كانت مزدحمة بالأفيال فى كل العصور . وقد استطاع الآريون السيطرة عليها وترويضها وتدريبها على الشئون العسكرية . وهذا التكتيك الجديد فى الفنون الحربية ذلك الذى تقدم بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع قبل الميلاد

قد غير مجرى التاريخ الهندى : فعندما قامت الحرب بين الهنود واليونانيين في هذه الآونة أصبح اليونانيون فى ذعر وذهول شديدين لرؤية الأفيال فى المعركة تلك التى كانت تدوس اليونانيين وخيولهم تحت أقدامها وتذيقهم شر هزيمة فى المعركة . وبهذا استطاعت الهند الحاق هزيمة ساحقة لقواد الاسكندر ونوابه فى الهند أولئك الذين جربوا حظوظهم فى مواصلة مهام الاسكندر فى الهند بعد وفاته .

وكذلك شيدت الحصون والقلاع فى أنحاء المعمورة للحفاظ والتيقظ من الغارات الخارجية المفاجئة على البلاد . وهذه أول مرة تنشأ فيها القلاع منذ قدوم الآريين .

بقية اجزاء الهند طوال العصر الآرى

ولقد ذكرنا من قبل أن حضارة نهر الهند قد اتصلت بسكان جنوب الهند ، واستوردت من جبال نيلغرى فى مدراس الأحجار الثمينة . وكان الدراوديون يقطنون هذه المناطق وهم السكان الأصليون للهند . ولكن هذه المناطق كلها قد عاشت فى البداوة ولم تشم رائحة الحضارة . وفى العصر الآرى لا نكاد نسمع عنها شيئاً ، لأن الآريين هم أيضاً اختاروا الحياة الريفية والعزلة التامة عن بقية أجزاء الهند . إن ملحمة الرامايانا تسجل لأول مرة توغل الآريين إلى المنطقة الجنوبية التى كانت حافلة بالغابات ، كما أنها تسجل وجود السكان السود فيها ، وامتداد هؤلاء السكان من نفس الجنس الدراويدى إلى أقصى حدود جزيرة « سيلان » حيث كان يحكمها الملك « راون » ذلك الذى خطف « سيتا » زوجة راما بطل الملحمة . وبهذا تكون المناطق الجنوبية هى الأخرى قد تمتعت بالسكنى وبالحكومات الصغيرة على منوال القرى والأرياف ، وأخذت هى الأخرى نفس النظام الريفى . ولكننا لا نسمع شيئاً عن دورها فى مجال الثقافة والحضارة ، بل عاشت على منوال الحياة البدوية الأولى مؤمنة بالسحر والطلاسم ، لأن « راون » كان ساحراً بارعاً وهو الذى خدع

سيتا بسحره ، واتخذ صورة الغزال الجميل لخداع كل من راما وسيتا كما تحكى الملحمة .

وعلى الرغم من الحياة البدوية السائدة فى هذه المناطق فقد كانت هذه متصلة ببلاد الشرق الأوسط منذ حضارة نهر الهند ، وذلك بسبب خيراتها الطبيعية السخية وأحجارها الثمينة الغالية وموانيها العديدة الممتدة من السند إلى سيلان من جهة سواحل غرب الهند على بحر العرب ، وعلى سواحل الشرق على خليج بنغال . وبهذا يبدو أن العلاقات التجارية بينها وبين بلاد الشرق الأوسط لم تنقطع بعد اندثار حضارة نهر الهند . ولقد سجل لنا التاريخ رحلة تجارية بين الهندو فلسطين واليمن أيام النبى سليمان وملكة سبأ خلال السنوات ١٠٠٠–٩٠٠ ق . م ، ومن اليونان إلى ساحل بومباى ومالابار لجلب العاج والأحجار الثمينة ، وتحكى المصادر اليونانية أن الصلات التجارية بين الفينيقيين فى لبنان والهنود كانت مستمرة والرحلات متبادلة والسفن الفينيقية كانت ترسو على سواحل غرب الهند على الدوام . ولما دخلت اليونان المجال التجارى العالمى وامتدت رقعتها واتسع نشاطها ؛حاولت هى الأخرى أن تتصل ببلدان الشرق الأوسط والهند . وفى عام ٩٧٥ ق . م أرسل الملك هيرام (Hiram) ملك صور (Tyre) فى لبنان أسطولا تجاريا إلى الخليج العربى ومنه إلى بحر العرب إلى الهند ليأتى بالعاج منها . ومن المعروف أن الهند كانت غنية بالغابات والجبال ، حيث توافرت فيها الأفيال ، وشد التجار رحالهم من أقصى بلاد العالم لجلب العاج منها . وكذلك حمل تجار الأناضول القرود والطاووس من الهند إلى ملوكهم .

الهند والشرق الأوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد

ومنذ سقوط حضارة وادى نهر الهند انقطعت جميع الصلات بين الهند والعالم الخارجى وذلك لأن الآريين أنشأوا نظما ريفية فى المناطق المفتوحة لهم وأغلقوا على أنفسهم جميع الأبواب التى توصل إلى العالم الخارجى . وبهذا

ظلت الهند منعزلة ومنقطة تماماً عن جميع بلدان العالم ، وبالأخص عن الشرق الأوسط . ولما دخلت الهند فى طور الحضارة والمدنية فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وظهرت على مسرح الوجود بعض الدول على طراز مدنى بدائى استؤنفت العلاقات القديمة مع الشرق الأوسط ، وتبودلت التجارات ، وبدأت الرحلات التجارية لنقل البضائع بين البلدين . وبهذا استطاعت الهند التجاوب مع الشرق الأوسط فى هذه الآونة .

وإذا نظرنا إلى خريطة الشرق الأوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد نجدها على الوجه الآتى : إن العراق قد تقدمت تقدماً كبيراً فى ظل الدولة الأشورية التى استطاعت ضم جميع الأراضى العراقية وذلك منذ عنصر الإمبراطور شالما نصر (٧٢٧—٧٢٣ ق.م) ، ثم توغلت فى قلب الشام وسقطت الدولة الإسرائيلية على يدها فى عام ٧٢٢ ق.م ، واستطاعت بناء مجد عريق وحضارة متقدمة فى أنحاء وربوع الشرق الأوسط ، ودخلت إيران فى حوزتها بعد تلك الفتوحات ، وامتد نفوذها إلى مصر فى عام ٦٧٠ ق.م من ناحية ، واليمن فى أقصى الجزيرة العربية من ناحية أخرى .

وبعد مرور فترة على هذه الانتصارات الأشورية العظيمة انتعشت إيران ، وبلغت أقصى مجدها وقوتها فى عهد ملكها العظيم داريوس الأول (٥٢٢ — ٥٧٦ ق.م) . فحلت محل الإمبراطورية الأشورية والكلدانية واستولت على العراق والشام وفلسطين وضمت إلى حوزتها مصر فى عام ٥٢٥ ق.م ، وبهذا ظل الأمر إلى غزو الإسكندر العظيم — ملك اليونان — فى عام ٣٣٤ق.م ، ذلك الذى ظل يجوس بلاد الشرق الأوسط بجحافل جيوشه العظيمة لمدة عشر سنوات تقريباً ، واستطاع خلالها فتح جميع بلدان الشرق الأوسط ، كما استطاع شن غارات عديدة على الهند وفتح بعض المدن فى ولاية السند ، ولكنه لم يستطع التوغل فى قلب الهند ليصل إلى بلاد النهرين الجمنا والجنجا .

وخلال هذه العصور نشطت التجارة والملاحة بين الهند والشرق الأوسط.

ولم تكن السفن الهندية تجرى فى أنهار الهند والجنجا والجمنا فحسب ، بل امتد نطاقها إلى البحار والمحيطات ، فقد ترددت سفنها بين بحر العرب والخليج العربى ، واتصلت اتصالا وثيقا ببلاد الاشوريين ، وتبودلت العلاقات التجارية بينهما ، وتردد التجار بين البلدين على السفن . وكذلك توجد اشارات إلى امتداد نطاق التجارة إلى مصر فى هذه الآونة بل إلى سواحل شرق افريقيا ، وكذلك امتدت هذه الرحلات إلى جنوب شرق آسيا من ناحية أخرى .

الهند وايران

ومن المعروف أن الآريين الهنود والإيرانيين قد نزحوا من موطن واحد وانتموا بذلك إلى أصل واحد وأسرة واحدة ، ولذلك وجدنا تشابها كبيرا بين لغاتهما فى الكلمات والتعبيرات وهندسة تركيب الالفاظ والكلمات ، كما وجدنا كذلك ملامح متشابهة بين آلهتهما وعقائدهما . ولكن الهند الآرية لم تتصل بايران حتى القرن السادس قبل الميلاد لأسباب ذكرناها . ولما صعد نجم الإيرانيين منذ عام ٥٣٩ ق.م فى السياسة العالمية واصبحوا سادة الشرق الأوسط كله ، أثر ذلك بالطبع فى الهند الآرية التى هى الأخرى قد استفاقت من سباتها العميق حيذاك واتجهت نحو الامبراطورية والحضارة خلال هذه الآونة .

إن داريوس الأول العظيم حينما فتح معظم بلاد إيران إلى حدود افغانستان وقد اقترب إلى نهر الهند ، أرسل ضابطا اغريقيا له اسمه « سيلاكس » (Sylax) فى عام ٥١٠ ق.م لعبور نهر الهند ليحمل إليه معلومات كافية عن الهند ثم يرجع إليه عن طريق البحر الاحمر فنفذ الضابط أوامره .

وهناك دلائل تشير إلى أن مد الزحف الإيرانى خلال هذه الآونة قد تصادم على جدران الهند من جهة جبال هندوكوش وتوغل فى ولاية السند — مهد حضارة نهر الهند — وافتتح بعض المناطق الواقعة على الحدود فيها ،

وظلوا فيها يحكمون ردحا طويلا من الزمن إلى أن غزى الاسكندر تلك المنطقة . لأن الدول الآرية الواقعة على ضفاف نهرى الجنجا والجمنا فى ولايتى بيهارواتاربراديش كانت على مسافة بعيدة شاسعة من السند ، ولم يستطع الايرانيون التوغل فى قلب الهند للوصول إلى ضفاف النهرين ، كما أن دول الهند الصغيرة فى قلب الهند لم تشعر بالخوف من جراء استيلاء الايرانيين على بعض المناطق السندية .

ظهور اليونان على المسرح العالمى واتصالها بالشرق الأوسط والهند

لقد اثرت حضارات الشرق الاوسط تأثيرا بالغا فى اليونان وهى لم تزل فى بداوتها ، كانت حضارة جزيرة كريت والأناضول فى الشرق الأوسط طرقات أولى لايقاظ اليونان من سباتها العميق لتظهر على المسرح السياسى والفكرى العالمى فيما بعد . وقد اتصلت الاناضول وآسيا الصغرى كلها ببلاد الشرق الأوسط فى مصر والشام والعراق منذ القدم ، وتوطدت بينهما العلاقات ، وتوثقت هذه العلاقات منذ حكم الحثيون — وهم فرع من الأسرة الهندية الاوربية — هذه المناطق . ولقد تبودلت علاقات تجارية وثقافية وطيدة بين هذه البلدان كلها فى هذه الآونة ، الامر الذى مهد السبيل لظهور اليونان على المسرح العالمى .

كانت « منطقة بحر الايجى » (Aegean)—وهى يونانية تقع على البحر من ناحية الشرق — على اتصال مستمر بالشرق الأوسط منذ عام ١٥٠٠ق.م تقريبا ، ومن هنا نجد فى المخلفات الأثرية فى اليونان لهذه الفترة أدوات استوردت من مصر والشام .

من هم الاغريقيون أصلا ؟ هم فى الحقيقة كانوا فرعا من الأمة الهندية الأوربية . وقد نزحوا إلى اليونان من موطنهم الأصلى فى حدود عام ١٦٠٠ قبل الميلاد واستوطنوا جزر بحر ايجى والمناطق الأخرى لليونان . ولكن حياتهم كانت بدوية للغاية ، شأنهم فى ذلك شأن الآريين الذين نزحوا إلى الهند

خلال عام ١٨٠٠ ق.م . وهؤلاء هم أيضا حملوا إلى اليونان من موطنهم الاصلى العربات والخيول والحديد . ولكنهم عاشوا متخلفين جدا بالنسبة إلى سكان جزيرة كريت — الواقعة بالقرب من قبرص — تلك التى تجاوبت مع بلدان الشرق الاوسط ، واستطاعت تطوير حضارتها على منوال الشرق الاوسط . وكذلك انتعش النشاط الحضارى فى هذه الجزيرة ثم فى آسيا الصغرى منذ احتلال الحثيين لهذه المناطق كلها وتوغلهم فى قلب بلاد الساميين واستيلائهم على خيرات بلاد الشام ، وكل ذلك خلال عام ١٤٠٠ ق.م تقريبا .

لقد ظهرت أول حضارة فى اليونان فى « ميسينا » (Mycene)، وذلك خلال عام ١٦٠٠ ق.م تقريبا . ويبدو من دراسة المخلفات الأثرية فيها أن سكانها الأوائل بدءوا حياتهم على غير طريقة الآريين الهنود ، ونعنى بذلك أنهم شيدوا الحصون وطوروا الأسلحة، وصنعوا أدوات حضارية كثيرة، كما تجاوبوا مع الحضارة المينونية (Minoan) فى جزيرة كريت إلى أقصى الحدود ، واستوردوا منها أدوات حضارية كثيرة ، وظهرت فيها حكومة مدنية دون علاقة لها بالكهنوتية . لقد وجه هؤلاء منذ بداية الأمر عنايتهم البالغة نحو تطوير الملاحة والاساطيل البحرية . لقد اختلف الباحثون فى هذا الأمر ما إذا كان هدفهم من تطوير الاساطيل ممارسة اعمال القراصنة، أو توسيع النطاق التجارى إلى أقصى بلاد الشرق الاوسط؟ وأيا ماكان الأمر ، فقد بدأت اليونان حياتها السياسية على خلاف خط الآريين الهنود منذ البداية ، واتجهت إلى الصناعة والتجارة والشئون العسكرية وتوطيد العلاقات مع البلدان الأخرى . وبدأت اساطيلها وسفنها تسير فى البحر متجهة إلى جزيرة صقلية وشاردينا واسبانيا وانجلترا من جهة ، وإلى جزيرة كريت وقبرص وآسيا الصغرى ومصر ولبنان وسوريا من جهة أخرى . وقد ظل الامر على ذلك حتى عام ١٤٠٠ ق.م . وهؤلاء هم الذين بدءوا ممارسة أعمال القرصنة ضد مصر وفلسطين منذ عام ١٣٠٠ ق . م . تقريبا

وواصلوا هذه العمليات قرابة قرن ، إلى حين استعادت مصر قواها المنهارة وقدرت على إلحاق ضربات قاضية على أعمال القراصنة وذلك خلال عام ١٢٠٠ ق . م تقريباً .

ومن المصادفات الغريبة أن دولة ميسينا قد واجهت هى الأخرى أشد المحن حينما تدفقت على البلاد أمواج هائلة من سكان الشمال البدويين ، واستولوا على مقدراتها ، وتولوا مقاليد الحكم فيها ، وهؤلاء هم «الدوريون» (Dorians) ، الذين كانوا أيضاً من أصل الأمة الهندية الأوربية التى استوطنت تلك المناطق مبكراً . وقد استولى هؤلاء على ميسينا ، ثم اتجهوا إلى الشرق الأوسط وأخضعوا لنفوذهم كريت والأناضول ، وتم ذلك كله خلال السنين ١٣٠٠ — ١٠٠٠ ق.م .

ثم تبدأ صفحة جديدة من تاريخ اليونان منذ عام ١٠٠٠ ق.م وتستمر حتى عام ٦٠٠ ق.م . وخلال هذه القرون ظهرت دويلات كثيرة فى اليونان ومن أهمها : أرجوس (Argos) واسبارتا (Sparta) وأثينا (Athens) ، ثم استطاعت كل من اسبارتا وأثينا القضاء على جميع دول الطوائف ، وانضمت إليهما جميع بلاد اليونان ، مع جميع خصائصه ومميزاته ، وهما اللتان ظهرتا على مسرح الوجود والحضارة فى السنين القادمة . ومن الجدير بالذكر أن اليونان قد اتصلت بالفينقيين — الأمة السامية فى لبنان وسوريا حينذاك — اتصالا وثيقا ، وأخذت عنهم الحضارية والأدوات الحضارية مثل الكتابة والحروف وما إلى ذلك ، وبهذا استطاعت تطوير حضارتها وثقافتها واستقلالها فى هذا المجال فيما بعد .

ومنذ عام ٥٣٠ ق.م دخلت اليونان فى مرحلة جديدة ، وظهرت فيها الآداب والفلسفة والعلوم والفنون ، وتطورات فيها إلى أقصى الحدود ، واستطاعت بفضلها جذب أنظار العالم إليها ، وإعطائها أكثر مما أخذته منها لبناء الحضارة العريقة وثقافتها العظيمة . وفى الحقيقة قد تجسدت فى اليونان

خلال هذا القرن بجميع معارف الدنيا وعلومها وفنونها ، وانتقلت إليها ألوية الحضارة كما كان يحملها من قبل العراقيون والمصريون والهنود . وهكذا تنتقل ألوية القيادة من أمة إلى أمة على حسب صلاحيتها لتحملها ومواهبها لتطويرها وجهودها لنشرها .

الهند واليونان قبل غزو الاسكندر

إن « هيرودوت (Herodotus) — المؤرخ اليونانى الشهير المتوفى فى عام ٤٨٤ ق.م — قد أورد فى تاريخه بياناً كافياً عن الهند . وهو وصف الأمة الآرية فيها وصفاً صحيحاً حينما قال : إنها تتسم باللون الأبيض كالمصريين . ويتحدث عن الحيوانات الهندية مثل التماسيح ، ويذكر قصص الهند الشهيرة . إن القصص الهندية التى تحدث عنها هيرودوت فى كتابه يتضمن الكثير منها كتاب «كليلة ودمنة » أشهر مجموعة قصصية نقلت إلى الفارسية ، ومنها إلى العربية فيما بعد . وقد اشتهرت فى عصره فى اليونان مجموعة قصصية تسمى « قصص أيسوب » (Aesop) . كان أيسوب عبداً إغريقياً . ومع أن كتاب « كليلة ودمنة » قد دون فى القرن الثانى قبل الميلاد ، إلا أن جذوره ترجع إلى مئات السنين قبلها كما يرى الباحثون الافرنج ، وكانت قصصه تتناقلها الألسن وتحفظها الصدور حينذاك . ولذلك أخذت طريقها إلى اليونان مبكراً . ويصرح هيرودوت وغيره بأن الهند هى مهد القصص . ومنها انتقلت القصص إلى معظم بلدان العالم ، ولا سيما تلك القصص التى تروى على لسان التمساح والطاءوس والثعلب والأسد والحيوانات الأخرى . كذلك وصف هيرودوت طائفة هندية تمتنع عن أكل لحوم الحيوانات . وهذا يدل على أنه كان على علم من الديانات الهندية التى ظهرت فى تلك الآونة مثل الجينية ، ثم البوذية ، ومن المعروف أن بوذا كان معاصر هيرودوت وتوفى قبله بأربع سنوات فقط .

ثم وصف الهند رحالة أغريقى آخريدعى « سى سيا » (Chesia) الذى

ولد بعد هيرودوت بقرن تقريباً . ومع أنه لا يصل إلى مستوى هيرودوت في الوصف والعلم إلا أنه أورد كثيراً من الحقائق عن الهند . وبهذا يكون كل من الهند واليونان على علم تام بالآخر ، وكما تبودلت بينهما المعلومات والمعارف والقصص مبكراً . ومن المعروف أن الهند قد خرجت في هذه الفترة عن صمتها وسكونها وحياتها المنعزلة وفتحت نوافذها لتطل على الحضارات العظيمة في الشرق الأوسط واليونان . كان هيرودوت على علم بعقيدة التناسخ . وقد عبر عنها الفيلسوف اليوناني فيثاغورس (Phycagoras : ٥٨٢–٥٠٧ ق.م) من قبله. ويعتقد الباحثون الافرنج أن هيرودوت قد أخطأ في عزوه هذه العقيدة إلى المصريين ، لأن الهند هي التي خلقتها لتثبيت نظريتها الكهنوتية المبنية على الطائفية العنصرية كما وصفنا بدقة من قبل . ومن الهند انتقلت هذه النظرية إلى إيران في عهد زرادشت وكذلك إلى مصر وكثير من بلدان العالم ومن بينها اليونان . ويؤكد الأستاذ راوليسون : إن ما أخذه فيثاغورس من النظريات الهندية في الهندسة والديانات والفلسفة والرياضيات أكثر بكثير مما أخذه من مصر . وقد تأثر فيثاغورس هو الآخر من الجينية حينما امتنع عن أكل اللحوم وإيذاء الحيوانات وانتهاج طريقة النباتيين . وكذلك يرى راوليسون أن عقيدتي التناسخ وكارما الآرية – المذكورة فيما سبق – كانتا عماد فلسفة أفلاطون (٤٢٤–٣٤٧ ق.م) (Plato) . كما أن أفلاطون قسم الإنسان إلى أربع طبقات في كتابه « الجمهورية » على غرار تقسيم الكهنة الآريين الهنود كلهم إلى أربع طبقات من قبل . إن قصة خلق الكون التي يرويها سقراط شبيهة بالقصص الواردة في كتب الفيدا الأخيرة . ويذكر أن سقراط لما شرح الفلسفة – بناء على سؤال وجه إليه بعض تلاميذه – انفجر واحد من الهنود الحاضرين في مجلسه ضحكا . وهذا يدل على أن اليونان – مهد الفلسفة والمنطق – كانت متصلة بالهند – مهد الحكمة والتصوف .

الاسكندر والهند : والتقاء الحضارات العالمية فى ساحة واحدة لأول مرة

ولما امتد سيل غزوات الاسكندر إلى أقصى حدود إيران ، وجاست خيوله تلك الأراضى الشاسعة وضمها إلى حظيرة الامبراطورية اليونانية لم تكن هناك مسافة بعيدة بين الهند وإيران . فتدفقت خيوله على بلاد الهند عن طريق جبال هندوكوش فى عام ٣٢٦ ق.م ودخلت الهند وفتحت وادى نهر الهند . ولكن هذا الغزو العسكرى وإن جاب ويلات لتلك المناطق ، إلا أنه أعطى فرصة ذهبية لانتقاء خصب بين ثلاث حضارات آرية ، نبعت وعاشت وواصلت جهودها منفردة حتى هذه الآونة وهى اليونانية والايرانية والهندية . بالاضافة إلى هذا اللقاء الثقافى والفكرى الخصب بين الفكر الآرى مهد هذا الغزو السبيل — لأول مرة — للقاء مباشر بين أقدم الحضارات الإنسانية فى الشرق الأوسط وهى حضارة أرض الرافدين ومصر ، لأن جيوش الاسكندر اخضعت هذه المناطق كلها لسيطرته .

لم يصحب الاسكندر معه جيشه الجرار فقط إلى الهند بل رافقه أيضا فى هذه الغزوات كلها عدد من العلماء والفلاسفة والمؤرخين اليونانين . وقد قيل أن أرسطاطاليس أعرب عن رغبته فى مناقشة أحد الفلاسفة الهنود فى النظرية الهندية المتصلة بموضوع ما وراء الطبيعة . ويؤخذ من بعض القصص السائرة أن الاسكندر — تحقيقا لرغبة أستاذه ومعلمه أرسطاطاليس — قد اصطحب معه عند مغادرته الهند عددا من العلماء الهنود . وبهذا تم التبادل الفكرى والعلمى بين البلدين ، كما فتح الطريق لاتصالات زائدة متكررة مباشرة بينهما فى المستقبل .

وقد كانت اقامته فى السند فى بلدة سميت « تاكسيلا » . وقد صارت هذه البلدة فى تلك الآونة مركز الفكرى الآرى فى تلك المناطق ، واشتهرت بكثرة طلاب الفيدا ، واساتذتها وعلمائها . وبهذا تسنى للاسنكدر والعلماء المرافقين له الاتصال بهؤلاء ، وفهم الديانات الآرية وكتبها . لقد كان

الأمير الهندى « بورس » (porus) أول من واجه الاسكندر فى تلك المنطقة ، ونال شر هزيمة على يده ، وذلك على ضفاف نهر هيداسبيس (Hydaspes) ، ثم توجه الاسكندر إلى قمة نهر الهند ، وانشأ فيها حصنا حصينا له وشيد اعمدة وانشأ مستعمرة يونانية ، نظرا إلى أنها كانت منطقة استراتيجية بالنسبة إلى الحكم اليونانى فى الهند . ولكنه لم يرض التوغل فى قلب الهند للزحف على دول وادى النهرين الجنجا والجمنا ، بل توجه إلى العراق قاصدا إلى بلاده فى اكتوبر سنة ٣٢٥ ق.م ولكن المنية لحقت به فى العراق فى عام ٣٢٣ ق.م ، وبهذا انتهت اسطورته .

ظهور أول امبراطورية بقيادة شندر غبت

لقد ذكرنا من قبل ظهور أول دولة شبه مدنية فى ولاية بهار سميت « مجدا » ، بالاضافة إلى دولة أخرى شبيهة بها فى ولاية اتاربراديش فى نفس الآونة وهى «كوسالا» . ولكن مجدا قد اتيحت لها فرصة الازدهار والتقدم اكثر من أية دولة أخرى شبيهة بها فى نفس المنطقة . ولعل اكبر سبب لذلك ظهور « بوذا » فى إحدى القرى المجاورة لمجدا ، وانتشار دعوته فى انحاء البلاد ، وتدفق الناس على مجدا موطن « بوذا » للزيارة والتيمن . وقد تولى عرشها ملك عظيم عقب عودة الاسكندر من السند وهو « شندر غبت » فى عام ٣٢٢ ق.م ، وظل يحكمها إلى أن وافته المنية فى عام ٢٩٨ ق.م وقد كان هذا أعظم من ملك الهند حتى ذلك الوقت . لقد راودته ولأول مرة فكرة توحيد البلاد كلها وانشاء امبراطورية عظيمة على غرار الامبراطوريات السابقة فى الشرق الأوسط . ولعل فتوحات الاسكندر واتصال الهند باليونان ومن قبل ذلك كان اتصالها بالعراق فى ظل الاشوريين ثم إيران أوحى له فكرة انشاء امبراطورية فى الهند كما يرى الباحثون . فقد بذل هذا الملك المستحيل فى توحيد البلاد ، وتطويرها فى شتى المجالات : التجارية والزراعية والثقافية . ولذلك شن سلسلة من الغزوات للقضاء على دول الطوائف المنتشرة فى انحاء شمال الهند مبتدئا

من ولاية بهار ومنتهيا ببنجاب والسند . لقد أصبح له من الضرورى مواجهة لنائب الاسكندر وحاكمه فى ولاية السند وهو « سيلوكوس نيكاتور » (Selucus Nicator) . لقد حاول سيلوكوس — فى هذه الآونة — مواصلة غزوات الاسكندر داخل الهند والتوغل فى قلب الهند لغزو عاصمة « شندر غبت » . ولكن شندر غبت كان أقوى وأشد من واجهه سيلوكوس حتى ذلك الوقت . فلحقته هزيمة ساحقة على يد شند رغبت . وكاد شند رغبت يطرده هو وجميع اليونانيين من الهند ، لولا أن عرض « سيلوكوس » ابنته على شند رغبت ليتخذها زوجة له . وبهذا تمت المصاهرة بين الهند واليونان ، واستطاع سيلوكوس البقاء فى الهند وتوطيد حكمه فى ولاية السند . وهذه الفترة تعتبر من أخطر الفترات واخصبها فى توطيد العلاقات بين الهند واليونان فى جميع المجالات ، وتبادل المعلومات والخبرات ، والتجاوب إلى أقصى مدى فى ميدان الفكر والأدب والفن .

وبعد وفاة « شند رغبت » فى عام ٢٩٨ ق.م اعتلى العرش أبنه الشهير « بندوسارا » ذلك الذى واصل جهود والده فى توحيد الهند ، وتطويرها ، وتوطيد العلاقات مع اليونان مباشرة وعن طريق الدولة اليونانية ومستعمراتها فى السند تلك التى ارسى قواعدها جده «سيلوكوس » . وفي هذه الآونة وفد على بلاط « بندوسارا» وعاصمته « بتنه» (باتلى بوترا قديما) سفير يونانى يدعى « ميغستنيس » (megasthenese) ؛ ذلك الذى اقام طويلا في العاصمة وجاب انحاء البلاد شرقا وغربا يدرس شعبها وعلومها وفلسفتها ، ثم سجل أروع سجل تاريخى لهذة الفترة من تاريخ الهند ، وهو يعتبر حتى الآن وثيقة تاريخية هامة للهند . لقد ذكر هذا السفير بصراحة وجود سبعة فرق رئيسية بين الهندوس فى هذه الآونة ، زيادة على ثلاث فرق بالنسبة إلى الماضى ، كانت تتصارع فيا بينها وتمنع التزاوج والتناسل فيا بينها .وبالاضافة إلى ذلك فقد درس كتب الهند الدينية والتصوفية ، وقارن بين الهند واليونان فى شتى المجالات وذكر أن كلا من الهند واليونان تتفقان فى نظريتهما فى

الفلك ، وقولها بأن الأرض كروية الشكل ، واعتقادهما بأن إلها من الآلهة يدبر الكون ، وكذلك كانت نظريتهما متشابهة فى الروح . وصرح كذلك بأن الهنود ينسجون القصص والأساطير حول خلود الروح والعدالة يوم القيامة ، ويتفقون فى ذلك تماما مع أفلاطون وآرائه .

كانت فتحات جبال هندوكوش أكبر وسيلة لتبادل العلاقات التجارية بين الهند والشرق الأوسط عن الطريق البرى . ولم تقتصر العلاقات الهندية واليونانية فى هذه الآونة على وجود مستعمرة يونانية ودولة صغيرة لها فى الهند ، بل حاول كل من بندوسارا وملك اليونان حينذاك وهو « آنتيوخوس » (Antiochus) إيجاد روابط وثيقة مباشرة بينهما ، وذلك غير العلاقات المتوطدة بين بندوسارا والملك اليونانى المستقل فى السند . لقد أوفد آنتيوخوس سفيرا له إلى بلاط بندوسارا توثيقا للعلاقات القائمة بينهما . وقد بعث بندوسارا إلى آنتيوخوس طالبا منه إرسال الخمور والزبيب وفيلسوفا معلما يعلمه الفلسفة اليونانية ومنطقها . وقد استجاب آنتيوخوس إلى جميع طلباته عدا إرسال معلم فلسفى ، واعتذر له قائلا : إن مثل هذا الايفاد لا يصح وفقاً للتقاليد اليونانية .

ومن المعروف أن مصر وسوريا قد أصبحتا من الولايات اليونانية المستقلة فى هذه الآونة . وقد أوفد كل منهما سفيره إلى الهند . فقد بعث « بطليمى فلاديسفوس » (٢٨٥ — ٢٤٧ ق.م) سفيره « ديونيسيس » (Dionysius) سفيرا إلى الهند وذلك من عاصمته الإسكندرية فى مصر . ثم تواصل تبادل السفراء على هذا المنوال فيما بعد .

ومنذ فتح الاسكندر السند وطوال عصر الأسرة المورية إزدادت الروابط الثقافية والتجارية بين الهند والشرق الأوسط من جهة ، وبين اليونان من جهة أخرى . إذ كانت القوافل التجارية من « بتنه » — عاصمة الهند — تأخذ طريقها إلى الشرق الأوسط عن طريق فتحات هندوكوش ، مارة بتاكسيلا ، وكابل عاصمة أفغانستان ثم تجتاز الصحراء الممتدة من إيران إلى الشام مخترقة

حدود الأناضول ، ومن هنا تتجه إلى أوربا عن الطريقين البحريين وهما بحر الكاسبيان « قزوين » والبحر الأسود . وبهذا وصلت البضائع الهندية إلى اليونان . وقد شوهدت بضائعها بكمية كبيرة فى « أوكسيوس » (Oxus) فى طريقها إلى أوربا .

الامبراطور أشوكا : مبشر الديانة البوذية فى العالم

لقد سار الامبراطور اشوكا (Ashoka : ٢٧٣–٢٣٢ ق.م) – حفيد شند رغبت – فى بداية الأمر على خط جده ووالده فى توحيد البلاد وإنشاء امبراطورية عظيمة . وقد خاض لذلك معارك عديدة مع ملوك الهند الصغار وأخضع معظمهم إلى سيطرته ، ونجح إلى أقصى الحدود – لأول مرة فى تاريخ الهند – فى إنشاء امبراطورية عظيمة تشمل معظم مناطق الهند شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً . لقد دارت معركة دموية بينه وبين ملك كالنغا (Kalinga) ، وهى فى ولاية آندابراديش بجنوب الهند الآن .

الامبراطور أشوكا

(٢٧٣–٢٣٢ ق.م)

وتوطيد علاقات الهند مع آسيا ومصر واليونان وانتشار البوذية فى عصره

لقد سار أشوكا فى بداية الأمر على خط والده وجده فى توحيد الهند وإنشاء امبراطورية عظيمة . فقد خاض معارك عديدة مع ملوك الهند الصغار وأخضع معظمهم إلى سيطرته ، ونجح إلى أقصى الحدود – لأول مرة فى تاريخ الهند – فى إنشاء إمبراطورية عظيمة تشمل معظم مناطق الهند شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوبا . لقد دارت معركة دموية بينه وبين ملك كالنغا (Kalinga) وقتل فيها الآلاف ؛ الأمر الذى أثر فى نفسه تأثيراً قوياً ، وأحدث ردود فعل عنيفة ضد الحروب . ومن هنا تاب عن خوض المعارك وأعتنق البوذية ، وآمن بالسلام ونشره فى أنحاء العالم عن طريق نشر البوذية فى صورة متطورة جديدة كرسالة للسلام والأمن للبشرية جمعاء . لقد دخلت البوذية فى طور جديد فى عهده ، وأصبحت دين

الدولة الرسمى ، وقد أتيحت لها فرصة عظيمة لانتشارها فى أنحاء العالم .

انتشار البوذية فى عصره

لقد ظهرت نصوص عديدة متناقضة حتى عصر أشوكا ، نسبت كلها إلى بوذا . كان بعضها صحيح الانتساب والبعض الآخر مزوراً ، كما أنها صارت معقدة صعبة وعسيرة الفهم للغاية ، فلخص أشوكا ودون هذه النصوص وحفر أهم تعاليم بوذا على أعمدة من الصخور ونصبها فى أنحاء البلاد ، وبهذا كان أشوكا أول من اتخذ الوسائل الدعائية لدين من الأديان ولأول مرة فى تاريخ الهند . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل واصل جهوده فى نشر البوذية فى أنحاء العالم ، واستغل الطرق التجارية المفتوحة بين الهند والشرق الأوسط إلى أقصى حدود أوربا ، والعلاقات الثقافيه الموجودة بينهما لنشر البوذية . فقد أوفد عدداً كبيراً من المبشرين البوذيين إلى الشرق الأوسط وقبرص وكريت واليونان ، كما أن هناك إشارات إلى إيفاد مثل هولاء المبشرين إلى مصر التى كان يحكمها اليونانيون آنذاك .

إن أشوكا لم يكن مجرد مبشر للديانة البوذية ، بل كان كذلك مجدداً لها . لأنه هو الذى أعطى البوذية وجهاً مشرقاً ولوناً مقبولا يجذب أنظار الناس ، ويأسر قلوبهم وعواطفهم . كانت البوذية منذ عصر بوذا إلى عصر أشوكا تبدو ديانة سلبية متشائمة ، تدعو إلى الزهد وقتل الطموح والذاتية ، وتحمل على ترك الدنيا ، وممارسة الحياة اليوجية ، مع أن بوذا لم يهدف إلى ذلك مطلقاً ، بل عرضها فى صورة دواء للمجتمع الإنسانى المريض ، وحل لكثير من المشكلات الاجتماعية ، وآلام الإنسان وأحزانه . ولذلك كانت ديانته عملية متحركة ، وبعيدة كل البعد عن كونها نظرية أو فلسفة .

فقد حفر أشوكا خلاصة تعاليم بوذا على أعمدة من الصخور ، وكانت تتضمن أهم مبادئ بوذا ، وهى الدعوة إلى « دهارما » التى هى عبارة عن الأعمال الحسنة والحث عليها مثل : السماحة والكرم والعفو والصدق والطهارة

والبعد عن المعاصى والسيئات . ولقد اتخذ موقف التحفظ من ذبح الحيوانات وقتل الإنسان . وذلك لأن بوذا قد سمح باكل لحوم الحيوانات للعيش ، كما أن القصاص لا مندوحة عنه فى الشئون القانونية لأية دولة. ومن أجل ذلك اتخذ اشوكا موقف الحياد من مثل هذه الأمور . ولم يشن حربا شعواء على الديانة الآرية أو الجينية أو أية ديانة واجهها مبشروه فى أقطار الدنيا ، بل حرص على التسامح مع كل هذه الأديان ، وعدم ابداء التعصب لديانته الجديدة .

وإذا أباح أكل لحوم الحيوانات للعيش ، فقد حرم قرابين الحيوانات فى المعابد للآلهة على طريقة ديانة الفيدا ، واصطياد الحيوانات للمتعة الشخصية بل هو شخصيا امتنع عن الاصطياد ، مع أنه كان مغرما به قبل اعتناق الديانة البوذية . وبهذا تحول اشوكا من أنه يعد أول إمبراطور عظيم فى الهند استطاع توحيد معظم اجزاء الهند واخضاعها لسيطرته ، إلى أنه مصلح دينى عظيم اعتلى عرش الهند لأول مرة فى تاريخها ، وبذل أقصى ما فى وسعه لتوفير أسباب السعادة وإقرار السلام فى أنحاء البلاد ، وأمدها بطاقاته الروحية الهائلة للاستمتاع بالمتع الروحية والطمأنينة القلبية فى ظل الديانة البوذية ومبادئها العليا .

وتشير الوثائق القديمة إلى أن اشوكا قد بعث بمبشريه حتى إلى الصين ، ثم وصل اليها المبشرون البوذيون حينما كان يحكمها امبرطورها الشهير «و.تى» (١٤١–٨٧ ق.م) ، وكان عددهم حوالى ١٨ مبشرا ، ولكن الامبراطور وتى اعتقلهم والقاهم فى السجن . وفى ليلة من الليالى افرج عنهم بعض الناس واستطاعوا الهرب من بطشه .

لقد كان اشوكا حريصا على استمرار العلاقات الهندية واليونانية على نهج والده ، وجده من قبل . وحاول تنمية هذه العلاقات وتطويرها إلى أقصى الحدود ، كما أوفد مبشرى البوذية إلى جميع المناطق اليونانية :

لقد توافد فى عصر والده سفراء اليونان من سوريا والاسكندرية وانطاكية واليونان نفسها إلى الهند . وقد وفد ميغستنيس سفيرا لآنتيوخوس الأول ملك اليونان — إلى بـــــلاط بندوسارا والد اشوكا . لقد بعث بطليمى (Ptolemy : ٢٨٥–٢٤٧ ق.م) — ملك الاسكندرية — سفيرا له إلى بتنه — عاصمة بندوسارا — وهو « ديونيوسوس (Dionysius) ولكن اشوكا حينما دان بالبوذية ، بادر بارسال سفرائه إلى اليونان وسوريا والاسكندرية وانطاكية رمزا لاستمرار العلاقات وتوطيدها بين هذه الدول ، كما كان قصده — كذلك — من وراء هذه الجهود نشر البوذية فى تلك البلدان ، إيمانا منه أنها هى الوسيلة الوحيدة لاقرار السلام والأمن فى انحاء وربوع العالم . ومن جراء هذه الاتصالات واللقاءات ازداد النشاط التجارى بين هذه البلدان ، وكثر ارتياد القوافل التجارية تحمل البضائع الهندية إلى تلك البلدان أو تحمل منها إلى الهند عن طريقين : الأول ، عن الطريق البرى الممتد من هندوكوش إلى البحرين قزوين والاسود ، والثانى ، عن الطريق البحرى من بحر العرب إلى البحرين الاحمر والابيض المتوسط .

ومن المعروف أن الامبراطورية المورية فى عهد شند رغبت — جد اشوكا — قد تحولت إلى دولة شبه اقطاعية ودكتاتورية من حيث نظمها وادارتها ، وذلك أسوة بالامبراطورية اليونانية ، حيث طبق أشوكا النظام الديمقراطى الريفى مرة أخرى بصورة متطورة ، وبهذا عادت الديمقراطية التى كانت سائدة ومتأصلة فى نفوس الهنود منذ نزوح الآريين .

العلاقات الهندية واليونانية بعد أشوكا

وبعد وفاة اشوكا فى عام ٢٣٢ ق. م انقطعت العلاقات المتبادلة بين اليونان والهند ، إلا أن اليونانيين فى « باكتيريا » (Bactria) فى منطقة بحر قزوين فى شمال غرب ايران ، قـــــد توغلوا فى الهند عن

طريق هندوكوش واستولوا من جديد على السند التى فتحها الاسكندر من قبل ، وظل يحكمها نوابه ، ثم استطاعوا التوغل فى بنجـــاب وإدخالها إلى حوزتهم . وبهذا اتصل هذا الجزء الشمالى الغربى من الهند بـ « باكتيريا » ، وأصبح فيهما حكم واحد يحكمها الملك اليونانى « ميناندير » (menander ١٥٠ ق.م) . ومن المعروف أن حكام « باكتيريا » اليونانيين قد أعلنوا استقلالهم عن العاصمة اليونانية فى عام ٢٥٠ ق.م . وقد اتخذ « ميناندير » ساغالا التى كانت تقع فى « سيالكوت » عاصمة له ، ثم مد نفوذه إلى عاصمة « موريا » فى وادى نهرى الجنجا والجمنا . ولكن « مينا نذير » لم يبق الآن يونانيا أوربيا ، بل اعتنق البوذية بدوره ، واصبح هنديا صميما ، كما اندمجت الجاليات اليونانية كلها فى الكيان الهندى ، واصطبغت بالصبغة الهندية الصميمة بعد اعتناق البوذية .

وإن هؤلاء اليونانيين الذين اعتنقوا البوذية قد آمنوا — تبعا لذلك — بأن بوذا قد تجسدفيه « ڤشنو » . وكان « هيلوودوروس » (Heliodorus) — السفير اليونانى — أول من آمن بهذه العقيدة ، ثم آمن بها جميع اليونانيين المنتشرين من الهند إلى باكتيريا على حدود ايران من ناحية بحر قزوين . وبهذا اصبحت الديانة البوذية منتشرة فى هذه المناطق ، وعرض فيها بوذا فى صورة ڤشنو الاله المتجسد .

ولما ولد السيد المسيح فى فلسطين فى العهد الرومانى كانت هذه النظرية سائدة بين الرومانيين فى الشرق الاوسط كله . وهذا هو السبب فى أن الرومان قد عرضوا السيد المسيح فى صورة الاله المتجسد أو بوذا الثانى ، وذلك بعد إيمانهم بالمسيحية .

الصين فى مجال الحضارة والفكر

تقول الاساطير الصينية إن تاريخ بلادها يرجع إلى آلاف السنين ، ودبت الحياة الانسانية فيها منذ ظهور الكون ، ووجود الشمس والقمر والنجوم

لوحة (٢١)
العملات والأختام الهندية واليونانية
التى عثر عليها فى شمال الهند الغربية

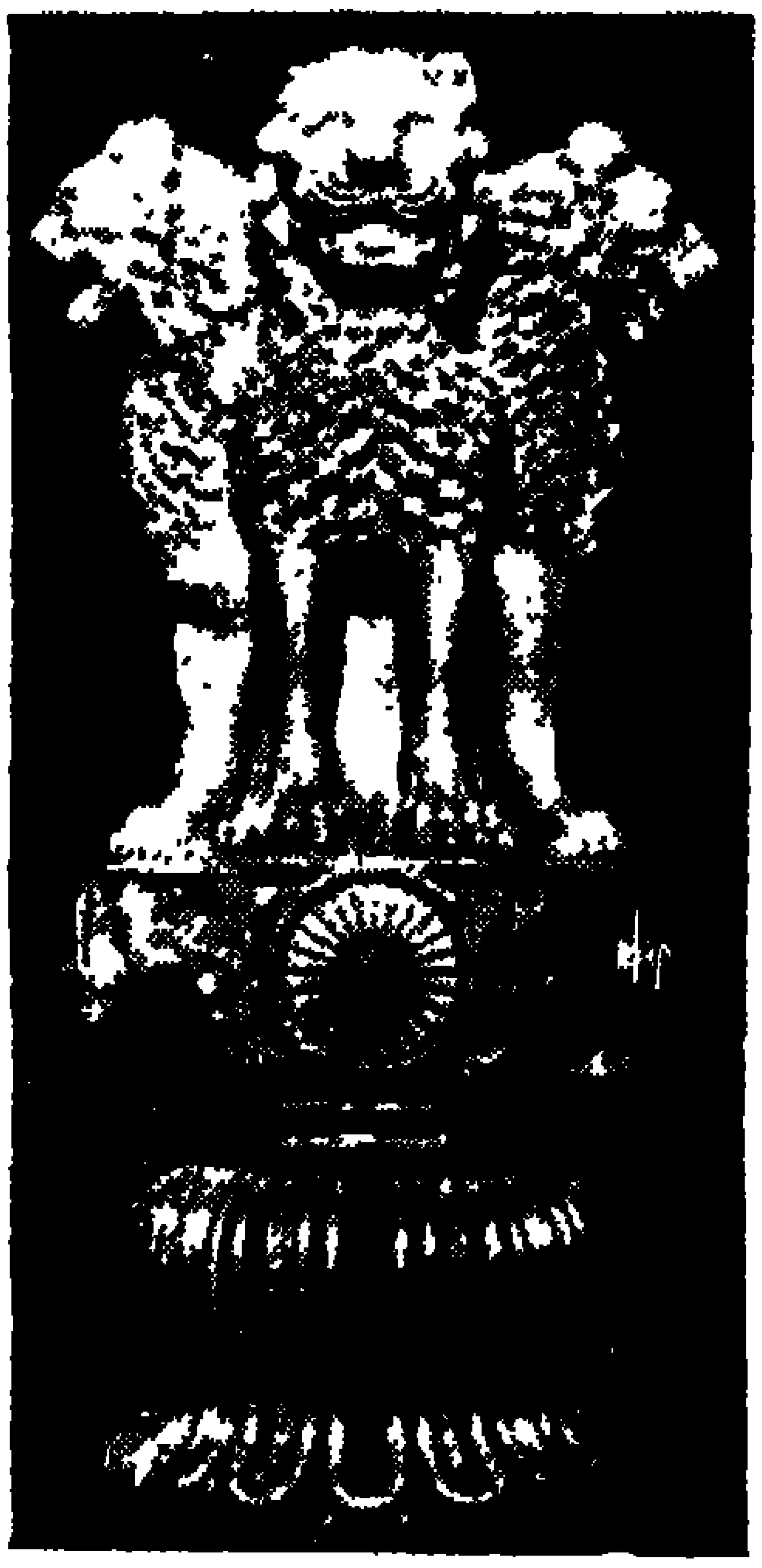

لوحة (٢٢)

ثلاثة أسود ذات شوارب خشنة رمزا للسلام والمحبة للامبراطور أشوكا ، وتحتها ثور وضعها أشوكا على أعمدة من الصخور خلال القرن الثالث قبل الميلاد . وهذه الأسود قد اتخذتها جمهورية الهند الآن رمزا للسلام والمحبة بين الشعوب العالمية .

لوحة (٢٣)

ديمي تريوس (Demetrius : ١٩٠ ـ ١٦٠ ق.م) .

ملك باكتيريا اليوناني يلبس ملابس عليها رسوم الافيال

رمزا لانتصاره على الهند وضمه اياها الى حوزته

لوحة (٢٤)
هندية خلال العصر اليونانى بالهند

والأرض . وقد حكمها فى بداية التاريخ إثنا عشر أو ثلاثة عشر ملكا ، وكل واحد منهم عاش حوالى ثمانية عشر ألف سنة ، وواحد منهم حكم حوالى ٤٥٦٠٠ سنة . ويقول العلماء الجيولوجيون أن الصين قد ظهرت على وجه الأرض قبل مليون سنة . وتتحدث أوائل الكتب التاريخية الصينية التى ألفت قبل الميلاد عن ظهور الدولة الهسية (Hsia) فى عام ٢٢٥٥ ، واستمرارها حتى عام ١٧٦٦ ق.م ، ولكنه لم يعثر على دلائل أثرية لوجود مثل هذه الدولة .

ثم ظهر عصر شانغ (Shanng) أواين (Yin) ، ويرجع تاريخه إلى ما بين السنين ١٧٦٦ — ١١٢٢ ق . م ولكن هذا الأمر هو الآخر لم يتأكد بعد من ناحية البحوث الأثرية ثم يبدأ عصر شو (Chou) فى عام ١١٢٢ق.م ويستمر حتى عام ٢٥٦ق.م . وقد جد الباحثون فى البحث عن المعالم الحضاريه للصين منذ فجر تاريخها حتى القرن الثامن قبل الميلاد ، ولكنهم فشلوا فى العثور على شيء يدل على عظمة الصين خلال هذه القرون ، ولذلك يرون أن الصين — على الرغم من ظهورها فى التاريخ مبكرا قد دأبت على العيش فى البداوة طوال هذه القرون شأنها فى ذلك شأن أوربا كلها والتى لم تظهر فى التاريخ الحضارى قبل القرن الثامن قبل الميلاد . كانت الصين شبيهة بأوربا فى كل شيء ، منه وجود دول الطوائف العديدة فى أنحاء البلاد ، ولكنها كانت تؤمن — فى نفس الوقت — بالتعايش السلمى ، ولم تشن الحروب فيما بينها ، كما لم تعرف الحدود للبلاد فى هذه الآونة . كان النظام ملكيا وشبه إقطاعى . ولما حاولت المشاركة فى الطور الحضارى حطمت القيود وحاولت التوسع من ناحية الشرق والغرب ، فى حين دخلت أوربا فى الطور الحضارى من ناحية الشمال ، أى من جهة المانيا وانجلترا واسكاندينافية وروسيا .

وقد استنزفت المنازعات والحروب الأهلية قوى الأسرة الأخيرة ، ولم تتحد البلاد طوال هذه القرون ، ولم تتقدم فى أى مجال . وبهذا انمحت هذه الأسرة من الوجود فى عام ٢٢١ق.م ثم بدأت الجهود لتوحيد البلاد ، وإنشاء دولة قوية متينة شاملة .

وليست هناك أدلة تاريخية حتى نهاية القرن السابع قبل الميلاد تدل على ظهور الأديان فيها . ولعل الوثنية الطبيعية كانت سائدة فيها ، كما عاش الناس خلال هذه الفترة على قوانين الطبيعة . وقد انتشر تعدد الزوجات بشكل مذهل فى هذه الآونة . وقد نبشت مقابر ملكية عديدة كما وجد فى مقبرة كل ملك عظام ملكات عديدة ، بلغ عددهن أحياناً من اثنين إلى ٢٦ ملكة .

الديانة الكونفوسية

كانت الكونفوسية (Confuciauist) أول ديانة ظهرت على أرض الصين . وكان منشؤها «كونفوسيون» (٥٥١ – ٤٧٩ ق . م) ، ذلك الذى دعا إلى إبقاء التقاليد القديمة وإعطائها صبغة دستورية للإنسان الصينى فى الحياة . وعارض سن قوانين جديدة ، سواء أكان فى العقوبات أو الأخلاق ، لأنها لم تخلق شعور الإحساس والمسئولية فى الناس ، بل التقاليد القديمة هى التى تقدر على إثارة الاحساس والحياء بين الناس . وبهذا كانت دعوته محافظة أكثر من أن تكون تجديدية .

الديانة التاوسية

وقد ظهرت الديانة التاوسية (Taoism) فى القرن الرابع قبل الميلاد على يد « شوانغ تزو » (Chuang Tzu) . وكانت دعوته صوفية محضة رامية إلى ترك الأسباب والعمل .

المدرسة القانونية

قد ظهرت هذه المدرسة خلال عام ٢٢١ق.م حينما وصلت البلاد إلى أقصى مداها من الفوضى والاضطراب ، واستهدفت إعادة النظام إلى البلاد ، كما استهدفت كذلك توسيع نطاق البلاد ، ومواصلة الحرب لإخضاع الشعوب الأخرى لسيطرتها . وقد دعت إلى العمل والجهاد ، وحثت على مواصلة الأعمال الزراعية ، ولكنها فضلت الحروب على الزراعة ، وبهذا يعتقد

الباحثون أنها كانت أقرب إلى النازية التى ظهرت فى القرن العشرين فى المانيا لعدة وجوه .

لقد قامت الأسرة الحانية (Han) فى عام ٢٢١ ق.م ، واستمرت حتى عام ٢٢٠ ق.م وخلال هذه الفترة توحدت البلاد ، واتسعت الفتوحات ، وتم احتلال اليابان ، ودخل فى حوزتها كثير من المناطق . وفى هذه الآونة تمت الاتصالات بين الهند والصين من ناحية ، وبين الشرق الأوسط من ناحية أخرى . لقد امتد نفوذهم من ناحية الشرق الأوسط إلى «أوكسوس» (Oxus) و « باكتريا » (Bactria) أو بلخ التى كانت تقع فى منطقة نهر قزوين أو شمال غرب إيران . وتمت هذه الأمور كلها خلال السنوات ١٤٠ ـ ٨٧ ق . م . . لقد أتيحت للصين الآن فرص ذهبية للتطلع إلى الحضارات العظيمة فى الشرق الأوسط المتمثلة فى الرومانية والحضارة الهندية فى الإمبراطورية المورية .

كانت باكتريا منطقة استراتيجية فى ذلك الحين بالنسبة إلى التجارة العالمية . إذ كانت تتدفق عليها بضائع الهند التجارية والشرق الأوسط واليونان وأوربا كلها . وبهذا أتيحت الفرص للصين تحت قيادة إمبراطورها (وونى) (Wu-ti) أن تتجاوب مع هذه البلدان وتتصل بها تجاريا ومودة وصداقة .

الصين والشرق الأوسط

إن الصين ــ رغم تاريخها الطويل ــ لم تتصل ببلاد الشرق الأوسط إلا منذ القرن الأول قبل الميلاد . لأنه قد منعها من الالتقاء بالشرق الأوسط كثير من العوائق الطبيعية مثل : وجود نهر الأصفر فيها وجبالها وغاباتها ووديانها ومستنقعاتها ، وبعدها عنها بمسافات طويلة عريضة لا يمكن قطعها إلا بعد مشاق وبعد سنين أو شهور ، وذلك على ظهر الخيول عبر مناطق الهملايا وبلوشستان وأفغانستان وغيرها . ومن المعروف أن هذه الطرق كلها

كانت وعرة صحراوية شاقة جداً . وكذلك كان ينبغي للسفن – من الطريق البحرى – أن تقطع المسافات الطويلة عبر البحار والمحيطات مثل خليج بنغال ، وبحر العرب ، والمحيط الهندى والبحر الأحمر ، فى طريقها إلى البحر الأبيض المتوسط . ولكن الصين منذ إتصالها بالعراق فى القرن الأول قبل الميلاد قد استطاعت رؤية الحضارة المتقدمة فى الشرق الأوسط ، فانساقت وراءها لتدخل هى الأخرى فى الطور الحضارى لأول مرة فى تاريخها بفضل الشرق الأوسط ملتقى الحضارات حينذاك : وهى الحضارة اليونانية والرومانية والعراقية والمصرية والإيرانية والهندية . ومن جراء هذا الاتصال تأثرت بالخط المسمارى العراقى وأخذت أهم مميزاته وأدخلتها فى خطها الصينى ، ومن هنا نجد بعض التشابه بين الخط الصينى والخط المسمارى العراقى . وإذا نظرنا – من ناحية أخرى – إلى بعض الأدوات الحربية التى انتقلت إلى الصين من الشرق الأوسط فى هذه الآونة لوجدناها بدائية للغاية ، ولم تتمكن بعد لتجهز نفسها للاستفادة الكاملة من حضارة الشرق الأوسط المتقدمة بسبب تخلفها المادى والفكرى والذهنى ردحا طويلا من الزمن .

ولعل مجرى الأمور والأحداث فى الشرق الأوسط منذ القرن السادس قبل الميلاد قد طرق آذان الصينيين ليلتفتوا إليها . ومن المعروف أن الامبراطورية الإيرانية كانت آخذة نفوذها منذ عام ٥٣٩ ق.م وأحدثت صوتا مدويا فى أنحاء العالم ، ونبهت الصين بالذات بعد امتداد رقعتها إلى حدودها . ثم صحبت الفتوحات اليونانية بقيادة الاسكندر فى عام ٣٣٤ ق.م ، تلك التى لفتت أنظار العالم كله مرة أخرى ، وشدت انتباه الصين بالذات . ومن هنا كان اتصالها بالشرق الأوسط . ويقال إن السفير الصينى يدعى (شانغ كيان) (Changkien) قام برحلة شاقة نحو الغرب وقطع الطرق الصعبة عبر وديان أكسوس وجازارتيس ، ووصل إلى الشرق الأوسط ، واندهش من رؤية زخارف الحضارة فيها . ولما عاد إلى بلاده بعد اداء مهمته حكى لأهله

مشاهداته مما أثار رغبتهم فى بدء العلاقات مع الشرق الأوسط . ولقد تم أول اتصال بينهما فى عام ١٠١ ق.م. ثم حاول الصينيون إيجاد طريق مباشر عبر الصحراء إلى الشرق الأوسط ، فأنشأوا فعلا طريقا يربط بين الصين والشرق الأوسط فى وسط الصحراء الممتدة عبر «سلك» . ويرى الباحثون أن الإبل ذات السنامين والمعروفة فى تلك المناطق الصحراوية قد استخدمت فى شـئون المواصلات فيها . ثم نشطت الطرق البحرية منذ القرن الأول الميلادى عبر خليج بنغال وبحر العرب إلى الشرق الأوسط لتوطيد وتوثيق العلاقات بين هذه البلدان .

الهند والصين

ثم اتصلت الصين بالهند فى عصر امبراطورها دوتى (١٤١— ٨٧ ق.م) لأول مرة . ثم تعلم « اى —شين » (Yichen) — وهو سفير من سفراء الصين فى عهد ملكها « يوى — شى » (Ryuech - chi) — تعاليم بوذا ، وتعلم واحد من كبار العلماء فى الدولة وهو «شينغ لو »(Chinglu) منه كتابا لبوذا .

ويقال أن الأمير « اينغ » (Ying) —وهو شقيق الملك مينغ (٥٧—٦٥م) كان أول من اعتنق البوذية فى الاسرة الملكية الصينية . ثم رغب فيها اخاه الملك ، ذلك الذى اوفد رجاله فى عام ٦٧م إلى الهند لاستيفاد عدد من الرهبان البوذيين ، ثم اعتنق البوذية ، ومنذ ذلك الحين اصبحت البوذية دين الدولة الرسمى فى الصين ، ثم انتشرت منها فى اليابان وكوريا والبلاد المجاورة لها . ومن المعروف أن الديانة البوذية هى الديانة السائدة فى هذه المناطق كلها حتى هذه اللحظة .

وقد شهد أول دير بوذى فى الصين فى مكان يسمى « لو يانغ » (Loyang) — عاصمة الصين فى ذلك الحين — وكذلك كلف هذا الملك عددا من الباحثين لترجمة الكتب البوذية إلى اللغة الصينية ، وبهذا وطدت البوذية أقدامها فى الصين لتبقى فيها أبد الدهر .

الهندوكية منذ عصر الامبراطور اشوكا

لقد واجهت الهندوكية ظروفا جديدة صعبة منذ ايام اشوكا . لأنه اعتنق البوذية واتخذها دينا رسميا لامبراطوريته ، ثم قام بنشرها فى انحاء العالم بحماسة فائقة واندفاع عظيم . وفيما يبدو لنا أن الكهنوتية الآرية لم تبد أية مقاومة أو معارضة ضد هذه التطورات ، بل قبات – كعادتها – أهم المبادى البوذية بعد اجراء تعديلات فى عقيدة التناسخ . فقد اتجهت إلى العقيدة البوذية فيما يتعلق بالآخرة ، وهى الإيمان بحالة الركود والبرودة بعد الموت أى لا عذاب ولا ثواب ، ولا نار ولا نعيم . لقد انتهت الحماسة لعقيدة التناسخ ، كما تفككت عرى النظم الطبقية العنصرية . لأن مجرى الأمور والتطورات ، والتقاء الهند بالشعوب العالمية والتنقلات والرحلات المستمرة بين الهند واليونان من جهة ، وبينها وبين بلدان الشرق الأوسط من جهة أخرى قد أثرت فى الديانة الكهنوتية إلى أقصى مدى ، ولم يكن الناس فى ظروف تسمح لهم بان يستمعوا إلى نصح الكهنة ، ويجلسوا إلى جوارهم ، ويتعصبوا لآرائهم وعقائدهم . كما لم يكن فى وسع الكهنة أن ينصحوا الناس بممارسة الاعمال والوظائف وفق الاطار الذى حددوه من قبل ، بل زادت رغبات الناس فى الاسفار من وراء البحار لمشاهدة شعوب العالم المتقدمة والتجاوب معها ، بالاضافة إلى رغباتها فى تحقيق الارباح والمكاسب الهائلة فى التجارة .

ومن المعروف أن « شند رغبت موريا » قد حطم القيود الدينية الآرية كلها حينما تزوج من أميرة يونانية ، ثم سارع الناس إلى محاكاته فى الزواج من اليونانيات . ومن الاكيد أن اليونانيين الذين استوطنوا وادى نهر الهند ثم اتصلوا ببلاد النهرين الجنجا والجمنا هم أيضا تبادلوا الزواج من الهنديات الآريات وبهذا لم تبق هناك حدود معروفة للنظام الطبقى العنصرى . وهكذا انهارت الكهنوتية الآرية وضاع نفوذها وسيطرتها .

ومن الجدير بالذكر أن حركة البهاكتى التى ظهرت قديما وامدت الهند بعقيدة التجسد قد انتعشت إنتعاشاً كبيرا فى العصر المورى (أى خلال السنوات ٣٢٢ – ١٨٥ ق.م واصبحت لها فروع كثيرة ، وكل فرع منها قام بنشاط هائل لجذب

الناس إليها ، وفعلا انجذب الناس إليها شوقا ورغبة لممارسة تجاربها الروحية . وأهم ما حدث فى هذه الآونة أن الآلهة القديمة لحضارة نهر الهند وبالذات سيفا وڤشنو قد نالا منزلة كبيرة بفضل هذه الحركة ، واحتلا مكان الصدارة فى قلوب الهنود ، واصبح لهما سلطان واسع ، وسيطرة كاملة ، ثم اندمجت فيهما جميع الآلهة بما فيها براهما — رب العالمين عند الكهنة — وصاروا من الآلهة المشتركة الرئيسية لجميع الطوائف الهندوكية سواء اكانت آرية أو دراويدية .

ومن الناحية العقائدية انحلت — كذلك — العقائد الوثنية والتوحيدية ووحدة الوجود . وتجلت كلها كعقيدة واحدة تشمل كل الجوانب ، وتتفتح لكل التجارب وهذه هى الديانة الهندوكية التى لم نزل نراها .

وهذه الحركة هى التى — كما قلنا سابقا — اعترفت بسيادة بوذا بعد عرضه فى صورة (ڤشنو) رئيس الآلهة ، وادخلت العقائد البوذية الاساسية فى الآرية والدراويدية على السواء بعد اجراء تعديلات فيها بحيث لا تتعارض مع الروح الهندوكية الاصلية .

الهندوكية فى موقف الدفاع

ومنذ ظهور الجينية والبوذية وحتى وفاة اشوكا قد دخلت الكهنوتية الآرية فى موقف دفاع مرير ، ولكنها كعادتها لم تقم بأية ثورة ضد هاتين الديانتين ، بل بدأت تدافع عن نفسها وكيانها . فقد انشأت المدارس فى داخل المعابد وخارجها لتدريس كتبها المقدسة مثل : الڤيدا والبرهمانان واليوبانيشاد . وكذلك تجاوبت مع الظروف الراهنة والمتطلبات الجديدة ، واستسلمت للنفوذ البوذى . ومن هنا بدأت تجرى تعديلات عديدة فى كثير من المسلمات عندها . ومن جراء ذلك ظهرت عندها تفسيرات جديدة لكتبها المقدسة ، تلك التى كانت جديدة ومدهشة ومتطورة بالنسبة إليها ، وهذه التفسيرات هى التى سجلت وسميت مجموعتها سوترأس (Sutras) ومعناها (الخيوط) . وقد وجهت العناية فى هذه التفسيرات لاعطاء لون جديد من الشرح والبيان للقرابين والكثير من

الطقوس والمراسيم ، الأمر الذى أذهل الكهنة المحافظين ، ولكن هذه الظاهرة كان لا مناص عنها فى مثل هذه الظروف الحرجة التى تصدت لها الكهنوتية :

ومن الجدير بالملاحظة أن تقدم الحضارة منذ القرن الخامس قبل الميلاد ودخول الهند مرة أخرى فى سباق التجارة والصناعة ، جعل الكهنوتية فى موقف حرج شديد . لأن النظام الطبقى العنصرى الذى صنعته الكهنوتية بدا يتدهور وتتداعى أركانه . وذلك لأن إقبال الناس على التجارة والصناعة قد تفاقم أمره ، ولم تكن هناك مراعاة للقيود الطبقية التى صنعها الكهنة من قبل ، ولم يرضوا بتحديد الوظائف والأعمال ، فخرجوا من سيطرتها تماماً لممارسة الأعمال بكل حرية . ونتيجة لذلك زالت الفروق الكهنوتية واندمجت الطبقات وفق مصالحها الجديدة ومطالبها الحاضرة ، ومن جراء ذلك ازدهرت التجارات وتقدمت الصناعة ، واتصلت الهند بجميع البلدان المتحضرة المتقدمة فى ذلك الحين . وهذه التطورات كلها بدأت تحطم آمال الكهنة فى تحقيق مآربهم الشخصية والرغبات المادية . فانخفضت مواردهم من جراء هذه التطورات وضعف أمرهم أمام الناس ، وذهبت مهابتهم دون رجعة . وهنا سخطت الكهنوتية على الحضارة والمدنية ، وحاولت إنقاذ موقفها المتداعى المنهار بدعوة الناس إلى التمسك بالنظام القروى ، والابتعاد عن زخارف الحضارة والمدنية . وليس ذلك تزمتاً أو رجعية ، بل إنما كان محاولة لإنقاذ مكانتها المتدهورة ورفع دخلها المنخفض . ولذلك بادرت بإصدار الفتوى ضد الرحلات والاسفار خارج البلاد ، وركوب السفن والبواخر للسفر إلى البلاد النائية والتنقل فى البلاد الأجنبية . وقد سجل كتاب « سوتراس » المذكور آنفاً هذه الفتاوى والمحارم كلها . وهذا هو السبب فى أن هذا الكتاب لا يتحدث مطلقاً عن المدن التى ظهرت وتقدمت بشكل ملحوظ فى تلك الآونة .

الصراع بين اللغتين : السنسكريتية والبالية وازدهار الفنون والآداب

إن ظهور بوذا لم يكن ثورة عارمة على النظام الكهنوتى الآرى فقط ، بل كان كذلك إيذاناً بظهور العلوم والفنون والآداب ، والتقاء الوجدان والنزعة الصوفية مع العقل والعمل والحياة والثقافة والحضارة . ولم تكن ثورة بوذا على التقاليد الآرية الطبقية وديانتها فحسب بل كانت كذلك على اللغة السنسكريتية الكهنوتية التى الفت بها جميع الكتب الآرية . ومن المعروف أن اللغة السنسكريتية هى التى كان يتكلم بها الآريون فى موطنهم الأصلى ، ثم أتوا بها إلى الهند ، وتكلموا بها كأى غزاة ، ثم أصبحت لها سيطرة تامة على لغات نهر الهند ، بسبب كونها لغة الغزاة الفاتحين ، ولكنها سرعان ما اندمجت فى اللغات الأصلية فى الهند . وذلك على الرغم من سلامة هيكلها الأصلى الآرى وهندسة التركيب للالفاظ والكلمات . ومن جراء ذلك دخلت هذه اللغة كلمات دراويدية كثيرة ومفاهيمها ، وقد حدث ذلك تماما كما يحدث أثناء اندماج ثقافات الغزاة والمهزومين فى كل عصر وزمان . وقد اكتسبت هذه اللغة على مرور الزمن ملامح جديدة وبدأت تتطور من الخشونة والوعورة إلى البساطة والسهولة . والذلك نرى « الرج ڤيدا » — أول كتاب آرى — قد ألف باللغة السنسكريتية الصعبة ، لا يفهمها إلا قليل من المتخصصين ، فى حين تلوح السهولة والنعومة فى الكتب الأخرى . وأما المهابهاراتا والراماياتا فهما يمثلان قمة الأسلوب والجمال اللذان وصلت إليه هذه اللغة ، ولذلك تحتل هاتان الملحمتان مكاناً خالداً فى الأدب والفن ، فى حين تمثلان جانباً يسيراً من النواحى الدينية الصميمة . وبهذا كتب للغة السنسكريتية أن تصبح لغة السياسة والأدب والفكر والشعر والمؤلفات . وإلى جانب هذه اللغة الكلاسيكية كانت هناك أيضاً لهجات عامية ، يتكلم بها الناس ويتفاهمون فيما بينهم . ولكنها لم تتخذ بعد طابعاً رسمياً أو أدبياً . فقد كان بوذا مضطراً لاستخدام إحدى هذه اللهجات العامية التى كان يتكلم بها سكان بلده وهى اللغة البالية (pali) لأداء مهمة التبشير . وذلك لأن أية ديانة لا تنتشر فى البداية إلا بين عامة الشعب

من الطبقات الفقيرة الكادحة وجماهير الناس . وهذه الطبقة تكون دائماً بعيدة عن الوان الأدب والفن والثقافة . ولذلك لزم الأمر مخاطبتها بلغتها وأسلوبها فى كل عصر وزمان . وبانتشار الديانة الهندوكية وانتشار تلاميذ بوذا وحواريه انتشرت هذه اللهجة أيضاً فى أنحاء وربوع شمال الهند ، ونالت إعجاب الناس فى الأقطار الجنوبية إلى سيلان . وبدأت تنافس السنسكريتية وتغزو ناطقيها . وهكذا ظهرت لغة جديدة منافسة للغة السنسكريتية وهى البالية تلك التى أصبحت فى عصر أشوكا لغة الدولة ولغة التبشير للديانة البوذية .

لقد نالت هذه اللغة الرواج والشمول منذ اتخاذها أشوكا لغة التبشير البوذى. فقد حفر تعاليم بوذا على أعمدة الصخور بنفس اللغة . وهناك إشارات تدل على استخدامه الحروف الفينقية لكتابة هذه اللغة وإعطائها صبغة أدبية وعلمية ورسمية ، لأول مرة فى تاريخ هذه اللغة . ومن المعروف أن اليونان هى الأخرى أخذت الحروف الفينقية لكتابة لغتها منذ القرن السابع قبل الميلاد . وقد سميت هذه اللغة الجديدة بعد عصر أشوكا «بالى براكرت »(paliprakrit) ، وهى صورة متطورة ومكبرة للغة بالى الشعبية العامية التى نالت الاهتمام والرواج منذ عصر بوذا .

لقد تطورت هذه اللغة تطوراً مذهلا فيما بعد ، وهى التى انتقلت بحذافيرها إلى سيلان مع الديانة البوذية ، وتقدمت وتطورت فيها حتى سميت (السنغالية) وهى اللغة الرسمية الأولى فيها الآن . وأما فى الهند فقد جرت فيها تعديلات عديدة على مر القرون ، وإحدى لهجات هذه اللغة هى التى تسمى الآن بالأردية وهى لغة الهند وباكستان المشتركة .

ولكن الكهنة لم يقفوا فى هذه الآونة مكتوفى الأيدى أمام هذه التطورات ، بل أدخلوا لغتهم السنسكريتية فى طور جديد من الناحية العلمية والأدبية واللغوية وفى إحدى المدارس السنسكريتية المذكورة ظهر عالم فذ وهو (باى نينى) (painini) ، ذلك الذى ألف لأول مرة قواعد نحوية وعروضية للغة

السنسكريتية ، مستمداً عناصرها من النصوص الڤيدية القديمة ومتوغلا فى أعماق أدبها وأسرارها اللغوية والبيانية والشعرية . وبهذا يكون « باى نينى » أول من ألف قواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض على وجه الأرض بوجه عام عند كثير من الباحثين ، تلك الدراسات التى تطورت بعده ، وبلغت أقصى مدارج النضج والكمال والإتقان . لقد استطاع العالم العربى الشهير « البيرونى » فهم أغوار هذه اللغة بكل أسرارها النحوية والبلاغية والشعرية وسجلها فى كتابه « تحقيق ما للهند » ، الأمر الذى يبدو لنا فى منتهى الصعوبة مجرد فهم ما أورده البيرونى أو الوصول إلى مستوى البيرونى فى فهم هذه اللغة وإدراك أبعادها اللغوية .

لقد عاش « باى نينى » فى مستهل القرن الرابع قبل الميلاد ، وقبل عصر « شندرغبت موريا » (٣٢٢ — ٢٩٨ ق . م) بقليل ، ثم وجهت عناية زائدة إلى تطوير هذه اللغة وعرضها فى صورة مشرقة عظيمة وجعلها لغة علمية وأدبية رائعة . وقد جد الكهنة خلال عصر شندرغبت فى البحث عن الوسائل العلمية لتطوير هذه اللغة . قد وجهت عناية زائدة إلى النواحى الأدبية والفنية فى الملحمتين الشهيرتين « المهابهاراتا » واصطياد الدرر الكامنة من أعماقهما . ومن المعروف أن الكتب السنسكريتية المذكورة مبتدياً من الڤيدا ومنتهيا إلى هاتين الملحمتين كانت خصبة فى الفنون الأدبية ، وغنية فى العناصر التى تعد النفوس إلى الولع بالمسرحية . ان القصص الواردة فيها تعد مادة خصبة جياشة فى إشعال المواهب الفنية لتأليف المسرحيات ، لأن العرض والسرد والشرح والحوار والنقاش والبيان والجمال الأسلوبى كل هذه الأمور كانت متوفرة فى جميع الكتب المذكورة . وناهيك بالأسلوب الجديد جاء به « بوذا » لشرح مبادئها وهو أسلوب الحوار السهل المسلسل . وبالاضافة إلى هذه الأمور قد ظهرت قبل عصرى المهابهاراتا والرامايانا قصص عديدة تروى على لسان الحيوانات ، تلك التى جمعت فى كتاب « كليلة ودمنة » فى القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا . ومن هنا كان من الطبيعى أن يتطور الفن المسرحى

فى بلاط شند رغبت إلى قمة المجد الفنى ، وأروع مثال لذلك مسرحية شكنتلا التى الفها كاليداس فى هذه الآونة .

مسرحية شكنتلا

وقد ظهرت كتب فنية عديدة فى المسرحية السنسكريتية منذ القرن الرابع قبل الميلاد حينما الف « بارنرينى » كتابه « اشتاد هبائى » فى الفن المسرحى باللغة السنسكريتية ، وذلك بعد ازدهار اللغة البالية الشعبية منذ عصر بوذا . وقد استخدمت هذه اللغة هى الأخرى فى المسرحيات فى الحوار ، ولا سيما لأداء ادوار غير الآريين أو البوذيين .

لقد ظهرت المسرحية السنسكريتية مستقلة عن المسرحية اليونانية .ولذلك عزى الآريون هذا الفن إلى الآلهة ، وقالوا : إن الآلهة سألت أباها أن يبتكر فنا جديدا يجلب المسرة للعين ويرهف الآذان بسماعه . ومن ثم استنبط « براهما » — الإله الاكبر — عناصر المسرحية الأربعة من كتب الفيدا الأربعة وهى : الالقاء ، والغناء ، والفن الإيمائى ، والعاطفة أو الألم ، ثم مزجها فى صورة فنية جديدة . وتدل هذه النصوص على أن المسرحية الفنية قد ظهرت منذ القرن الخامس قبل الميلاد حين صعد نجم « براهما » ، ثم تطورت ايام مجد الإله سيفا ، ذلك الذى أضاف إلى هـــذه العناصر الأربعة « الرقص » أيضا .

وكذلك دفع « براهما » المهندس المعمارى المقدس لبناء المسرح ، لكى يقدم فيه براهما عرضا تمثيليا .

وفيما يبدو لنا أن القاعات المسرحية لم تنشأ بعد ، بل قصور الملوك والأمراء هى التى كانت تلعب دور المسارح فى هذه الآونة . ولم تنشأ المسارح إلا منذ القرن التاسع عشر الميلادى .

وفيما يتعلق بكاليداس — مؤلف شكنتلا — فإننا نرجح الأقوال التى تؤيد وجوده فى القرن الأول قبل الميلاد وبهذا يكون قد ولد فى أواخر عصر موريا فى مدينة (أوجين) فى وسط الهند حينما كان يحكمها ملكها الشهير (وكرماديته)

ولم يؤلف كاليداس مسرحية شكنتلا فحسب ، بل كذلك ألف مسرحيات أخرى وهى : وكرم موروشيم (٢) مالويكا اجنى (٣) مترو يكهيان ؛ ولكن شكنتلا فاقت جميع هذه المسرحيات ، وسجلت مكانا خالدا بين المسرحيات العالمية .

لقد قسم كاليداس مسرحيته العظيمة (شكنتلا) إلى سبعة فصول : الفصل الأول سماه الغابة ، والثانى ، مكان خيمة الملك فى هذه الغابة ، والثالث الغابة المظلمة ، والرابع أديرة الراهب ، والخامس قصر الملك ، والسادس شارع من شوارع المدينة ، والسابع الطريق إلى السماء .

قد ولدت شكنتلا فى دير فى إحدى الغابات حيث تبناها راهب كبير ، ورباها حتى شبت ، وفاقت البنات الهنديات كلهن فى الأخلاق والسلوك والجمال . وهنا شاهدها ملك ، فعلقت فى قلبه ، واحترق شوقا وحبا لها إلى أقصى الحدود ، حتى تزوج منها بعد مشاهد عديدة من فصول الحب والجمال والتضحية والوفاء والإخلاص . ثم اصابت الملك لعنة أحد الآلهة ، ومن جراء ذلك نسيها الملك نسيانا باتا . ومن هنا تبدأ فصول المأساة فى حياتها حتى تلتقى به فى السماء بين رحاب الآلهة . وهذه الرحلة السموية تصور أقدم أمانى الإنسان وآماله فى السفر إلى السماء ، تلك التى تجلت فيما بعد عند (دانتى) الشاعر الايطالى الشهير (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) بابدع المظاهر وأروع الصور فى الكوميديا الألهية .

العلوم والفنون

ومنذ دخول الهند الآرية فى سباق الحضارة مع الشرق الأوسط واليونان بدأ فيها ظهور العلوم الجديدة التى لم تنل الهند حظا موفورا منها خلال العصور الآرية كلها وهى : الفلك والهندسة والرياضيات . ومن المعروف أن الهند كانت غنية بالوجدان والتصوف والحكمة والأدب والأساطير طوال القرون الماضية . وأما هذه العلوم العقلية والعملية التطبيقية فتحتاج إلى مناخ

جديد ومجتمع متطور مدنى : ومن أجل ذلك تكون الهند قد دخلت حلبة السباق فى هذة العلوم منذ القرن السابع قبل الميلاد؛ وتأثرت بالعراق واليونان ومصر فى أول الأمر إذ أنه لم تكن لها اصالة فيها فى هذه الآونة ، إلا أنها طورتها فيما بعد بسرعة مذهلة ، وأبرزت فيها مواهبها وذاتيتها واصالتها حتى فاقت معظم بلدان العالم فيما بعد ، تلك التى انتقلت إلى بغداد فى العصر العباسى الأول . وكذلك الطب المركب المعروف فى مصر والعراق واليونان كانت تتطلب نفس المجتمع الحضارى . وقد بلغت الهند القمة فى السحر والتعاويذ فى العلاج ، وفى العقاقير والأعشاب والأدوية المفردة فى الماضى : إلا أنها أخذت نصيبها من الطب المركب المدنى منذ هذه الآونة ثم طورته إلى أقصى الحدود .

وكذلك تختلف الهند فى الفنون المعمارية والنحت والتصوير منذ نزوح الآريين . ولم تنشأ فيها حصون ولا قلاع ولا هياكل ولا معابد ولا قصور طوال هذه القرون ؛ بل كانت الحياة تسير على الطريقة البدوية . ولكنها منذ العصر الموري التقت بالفنون اليونانية والايرانية والعراقية والمصرية على السواء . وسواء أكان ذلك فى النحت أو التصوير أو العمارة . وقد وجد تمثال لاشوكا وقد نحت بعض فنانى الشرق الأوسط الذى ينسب إلى إيران أو اليونان أسدا على رأس التمثال وهذه تعد أهم إشارة للامتزاج بين الفنين . وقد سبق لشند رغبت أن شيد قاعة كبرى أو بهوا عظيما فى عاصمته فى بتنه على طراز بهو فخم وجد فى قصر أحد الملوك الايرانيين . ومن المعروف أن هذا الملك كان قد أخذ من قبل من ايران فكرة توحيد البلاد وإنشاء امبراطورية عظيمة داخل البلاد : تلك التى حققها حفيده اشوكا .

ومن الاكيد أن معظم معالم الحضارة قد انتقلت إلى الهند فى ذلك الوقت من ايران والعراق ومصر واليونان بعد التقائها بهذه البلدان الحضارية التقاء خصبا ، ولاسيما منذ أن صارت اقليما يونانيا منذ عصر الاسكندر حتى أوائل

القرن الأول قبل الميلاد . وهذه الآثار نجدها واضحة بينة فى المبانى والهياكل والتماثيل والنقود وما إلى ذلك .

النظم السياسية فى الأسرة المورية

ولما اصبحت الهند دولة مدنية متقدمة فى العصر المورى أخذت جميع النظم السياسية والإدارية المتبعة فى ايران والشرق الأوسط من قبل ، تلك التى استولى الاسكندر عليها . وبفضل الاتصالات المستمرة بين الهند وايران فى هذه الآونة استطاعت الهند نقل معظم تلك النظم إلى الهند وتطبيقها فيها . وكان شند رغبت أول من طبقها ، ثم واصل تطويرها وتحسينها ابنه بندو سارا ، وحفيده اشوكا ، إلا أن اشوك بعد اعتناقه البوذية قد اعاد تطبيق نظام المجالس القروية ، مع الاحتفاظ بالطابع المدنى والحضارى للدولة ، وبهذا دخلت امبراطوريته إلى طور ديمقراطى شعبى لأول مرة .

الفصل الخامس

الهند منذ القرن الأول قبل الميلاد الى القرن السابع

لقد تولى عرش الهند من اليونانيين البكتريين عدد من الملوك ، ثم استولى على الهند « الهنود البرثينيون » ، ثم السيكيون والكنشيون وبهذا دخلت الهند مرحلة خطيرة من الاضطراب والفوضى فى هذه الآونة .

ومن المعروف إن قبائل منغوليا البدوية الساكنة فى وسط آسيا شمال غرب الصين بدأت تتدفق على البلاد الحضارية بحثا عن الكلأ والحشائش الخضراء لخيولها . وهذه القبائل قد أثارت الفوضى والفتن فى عديد من البلاد . وتشير القرائن إلى أن بعض الموجات من هذه القبائل هى التى تدفقت على الهند فى هذه الآونة ، وسميت بالأسماء المذكورة آنفا . ثم زحفت موجة أخرى من هذه القبائل عن طريق فتحات هندوكوش فى عام ٤٨ م ، واستولت على المناطق الجبلية المجاورة لولاية السند وبلوشستان ، ثم امتد سلطانها إلى أفغانستان ، واستولت على كابل عاصمتها الآن ، واستطاعت تأسيس دولة سميت « الكوشانية » (Knshan) التى بلغت قمة المجد ، واستعلى على عرشها ملكها العظيم « كانيشكا » (Kanishka : ٧٨ — ١٠٣ م) ، ذلك الذى اتخذ بيشاور عاصمة له ، ثم اعتنق البوذية وامتزج بالتراب الهندى . وكذلك توغل فى داخل الهند إلى وسط الهند لإنشاء شبه إمبراطورية له . وهذا أول من امتلك ناصية الهند واعتنق البوذية واستطاع مد امبراطوريته من أفغانستان إلى الصين ناحية بحر قزوين فى الشرق الأوسط من جهة ، وإلى كاشغر من ناحية الصين من جهة أخرى . وهذه الفتوحات أدت إلى التجاوب بين هذه البلدان كلها فى مجالات الفكر والدين والثقافة والفنون كما سنرى فيما بعد .

وفى تمثال لم يزل موجودا لهذا الملك نراه يرتدى أزياء شبيهة بالأزياء الهندية للرجال فى شمال الهند حتى الآن وهى : البنطلون الهندى (البيچاما) والصدره (الأشكن) . وهذه أول إشارة تدل على دخول هذه الأزياء إلى الهند التى لم تزل موضع الإعجاب لدى سكان الشمال فى الهند . وقد سك هذ الملك نقودا تحمل صور آلهة الهند واليونان وزرادشت وبوذا ، الأمر الذى يدل على تسامحه مع جميع الأديان من ناحية ، واتساع إمبراطوريته الى هذه المناطق كلها من ناحية أخرى . وبهذا اصطبغت دولته بالصبغة الدولية فى هذه الآونة . لأن المناطق التى دخلت فى حوزته كانت حيوية جداً بالنسبة إلى التجارة الدولية حيث كانت تلتقى الطرق التجارية المؤدية إلى الشرق الأوسط وبحر قزوين ، والبحر الأسود . قد أشرك هذا الملك اليونانيين فى كثير من الأعمال والوظائف ، ولاسيما فى الصباغة الفضية . وفى هذا العصر ظهر طراز معمارى جديد سمى « الغاندارا » (Gandahara) الذى امتزجت فيه الفنون الهندية والأغريقية فى الدرجة الأولى ثم العراقية والإيرانية والسورية والمصرية من الدرجة الثانية .

ثم أتيحت الفرص للصين أن تنضم إلى هذا الفن وتظهر فيه عبقريتها منذ أن دانت بالبوذية . وبهذا التقت مع الهند واليونان للمساهمة فى تطوير الفن الغاندارى ، خصوصا فى التماثيل والمعابد التى تتعلقان بالبوذية . وبهذا أصبحت الكوشانية إمبراطورية عظيمة تشمل معظم المناطق الحضارية ومراكزها فى آسيا ، كما نشرت الديانة البوذية فى أنحاء وربوع هذه المناطق العالمية الحساسة ، وتبعا لذلك إنتشرت الفنون البوذية المتمثلة فى « الغاندارا » فى جميع هذه البلدان .

وقد ظلت الكوشانية تحكم البلاد منذ القرن الأول الميلادى حتى عام ٢٢٤ م ، ثم نوجئت الهند بغارات عنيفة عليها من جهة هندوكوش . وكان

هؤلاء المغيرون هم الساسانيون (Sassanid) الإيرانيون الذين صعدت نجومهم فى السياسة الدولية فى هذه الآونة . وقد تقوضت أركان الدولة الكوشانة من جراء هذة الغارات ، ولكن دول الطوائف الأخرى المنتشرة فى أنحاء الهند لم تتأثر بالغارات الساسانية وسقوط الدولة الكوشانية . ومن المعروف أن هذه الدول قد عاشت على نفس الحالة طوال عصور الكوشانيين تدفع لهم الضرائب وتحتفظ بحريتها واستقلالها الذاتى . لقد دخلت الهند فى هذه الفترة فى حالة من الفوضى والإضطراب والقلاقل من جراء هذه التطورات ، وظلت على ذلك قرابة قرن تقريبا . ولذلك لم تتضح لنا خلال هذه الفترة الحرجة القلقة معالم حضاراتها . ثم وصلت الهند فجأة إلى قمة الحضارة وعصرها الذهبى منذ عام ٣٢٠ م كما سنذكرها فيما بعد .

ظهور الامبراطورية الرومانية على المسرح العالمى واتصالها بالهند

لقد ظهرت الروم كقوة عالمية لتحل محل اليونان منذ عام ٢٠٠ ق . م ، واحتلت جميع بلدان الشرق الأوسط والتى كانت تحتلها اليونان من قبل ، وذلك إلى عام ١٨٩ ق . م تقريبا وهى : آسيا الصغرى ، ولبنان وسوريا وفلسطين . ولكن مصر فى ظل ملوك البطالمة قد عاشت منفصلة عنها ، مع توطيد العلاقات معها ، ثم وضع أسطول رومانى فى مياه مصر فى البحر الأبيض المتوسط خلال عام ١٦٨ ق.م . ولكن مصر دخلت فيما بعد فى حوزة الامبراطوية الرومانية منذ عام ٣٠ ق م ، وظلت على ذلك حتى عام ٢٨٤ الميلادى . وأما العراق وإيران والمناطق المجاورة لهما من آسيا الصغرى إلى بحـــر قزوين فقد ظل يحكمها بقايا ملوك مقدونيا وسيلوكيا حتى عام ٤٤ ق . م تقريبا .

ومن المعروف أن مناطق وادى نهر الهند وإيران والعراق وآسيا

الصغرى من جهة بحرى قزوين والأسود واجهت اضطرابات شديدة منذ تدهور موقف اليونانيين فى عام ٢٠٠ ق . م وظلت تتوارد عليها قبائل بدوية من منغوليا لتثير فيها القلق والفوضى والفتن . ثم استولى الملوك البكتريون على معظم هذه المناطق ، ثم نشروا فيها البوذية والحضارة الهندية ، ثم استخلفهم بعد زمن يسير ملوك الكوشانية الذين هم أيضا — وبدورهم — قد نشروا فيها البوذية والحضارات المشتركة من الهندية واليونانية والعراقية والايرانية .

لقد ارتبط هؤلاء بصلات من المودة والصداقة مع الرومانيين فى الشرق الأوسط ، ولم تكن تفصلهم من ناحية العراق إلا مساحة ٦٠٠ ميل فقط ، تلك التى ظلت فى أيدى ملوك الطوائف . وفى شمال العراق من ناحية الأناضول كانت تقع مدينة شهيرة تمثل الحضارات الممزوجة من الهندية واليونانية وتدين بالبوذية ألا وهى انطاكية (Antioch) . وكذلك كانت تقع بالميرا (palmyra)أو تدمر وهى مدينة شهيرة فى المناطق الصحراوية بالعراق (وهى حاليا فى سوريا فى غرب نهر الفرات) . وقد ظل يحكمها ملوك بيترا (petra)الى عام ١٣٠م حتى احتلتها الامبراطورية الرومانية وضمتها الى حوزتها كولاية لها وبهذا ظل امرها حتى عام ٢٧٣م .

كانت الهند تلتقى بهذه الدول وعواصمها من ناحيتين : الاولى ، كان يتصل سكان المناطق الواقعة بين نهر الهند ونهر نربدا بالقرب من بومباى بانطاكية وتدمرو الاسكندرية ، وذلك على الطريق البرى الممتد من هندوكوش الى بحر قزوين . والثانية : سكان جنوب الهند وسيلان كانوا يلتقون بها عن طريق بحر العرب او خليج بنغال مارين بعدن ، ومنها الى البلدان الواقعة على بحرى الاحمر والابيض المتوسط ، وبالأخص تدمرو والاسكندرية وانطاكية . وهذه العواصم أصبحت نشيطة من الناحية التجارية حيث كانت تتبادل البضائع التجارية . وتأخذ طريقها الى أنحاء الهند وكذلك الى اوربا وأفريقيا .

وقد استطاعت الامبراطورية الكوشانية توطيد علاقاتها مع الامبراطورية الرومانية ، ونجد أثرها واضحا فى النقود التى سكها ملوك الكوشانية ، تلك التى تحمل صور الرومانيين . وكذلك يبدو من دراسة هذه النقود أن الامبراطور كانيشكا قد لقب بالقيصر فى هذه الآونة .

تطورات جديدة فى ايران والعراق خلال العصر الرومانى

وبعد وفاة الاسكندر فى عام ٣٢٣ م قامت فى ايران دويلات كثيرة يحكمها نوابه وخلفاؤه وسميت هذه الدولة بـ (السلوقية) . وقد اتخذت هذه الدولة مدينة سلوكية على الجزء الاسفل من نهر دجلة عاصمة لها فى البداية ، ثم نقلتها إلى أنطاكيه (وهى فى سوريا الآن) . وأهملت بذلك شئون إيران ، وتقلصت قبضة السلوقيين عليها ، وسرعان مانشأت دويلات محلية مثل دويلة فرانادارا فى إقليم فارس .

وفى هذه الأيام ، أى فى عام ٢٥٠ ق . م صعد نجم البارثيين (parthian) ، وهم يعرفون أيضا بإسم « الاشكيين » (Arsacids) نسبة إلى ملكهم الأول « أرشك الأول » (٢٤٨ — ٢٣٦ ق . م) . وهم كانوا فى الأصل قبيلة من قبائل الساكا المتنقلة فى منطقة شرقى بحر قزوين .

وفى أيام ملكها العظيم « ميثراداتس الأول » (١٩٠ — ١٢٣ ق . م) بسط نفوذ إيران على باكتريا (بلخ) وبارسا (فارس) وبابل ، وخوزستان وميدان . وفى عهد ميثرداتس الثانى (١٢٣ — ٩٧ ق . م) اتسع نفوذ البارثيين ، فامتد من الهند إلى أرمينيا ، وهو الذى اتخذ لقب ملك الملوك. وفى عهد فرايتس الثالث (٧٠ — ٥٧ ق . م) بدأت سلسلة من الحروب مع روما على طول الحدود المشتركة ، وظلت هذه الحروب قائمة بصفة متقطعة حوالى ثلاثة قرون ، لأن روما كانت مصممة على التوسع نحو الشرق ، والاستفادة — أيضاً — من توسيع نطاق التجارة ، والسيطرة على طريق تجارة الحرير الذى كان طرفه الغربى جميعه فى أيدى البارثيين ، وقد

نفى مارك أنتونى هزيمة ساحقة فى موقعة « فراءاتا » (phraata) إلى الجنوب من بحيرة أرومية ، ولكن حملة تراجان (Trajan) الأخيرة ضد بارثا قد كللت بالنجاح .

وبعد انتصارات ميثراداتس الثانى عد البارثيون أنفسهم وارثين للاكمنيين فى الناحية السياسية فاستبدلوا حضارتهم الضحلة بحضارة راقية مستعارة هى فى أعلى صورها ، مزيج من الحضارة الإيرانية والإغريقية (الهيلينية) . وقد سمى أحد الملوك نفسه « فيلهيلين » (أى المحب للإغريق) ، واختيرت الأساليب اليونانية فى الحياة ، كما اختيرت اللغة اليونانية — فى البداية — لغة رسمية .

وقد أنشئت — فعلا — أغلب المدن البارثية ، بما فيها طيسفون العاصمة ، فيما بين النهرين . وبذلك صارت إيران الأصلية تقع خارج الممر الرئيسى للنشاط التجارى والفنى .

وكان البارثيون يتكلمون لغة فارسية وسيطة . كانت قريبة فى تركيبها من اللغة المستعملة فى نهاية العصر الأكمينى ، ويكتبونها بخط آرامى يسمى الخط البهلوى ، ولازالت بين أيدينا — من الأمثلة نقوش طويلة منحوتة فى الصخر وعدد من النصوص البهلوية المكتوبة ، ولكن عيوب هذه الحروف البدائية تجعل قراءة ما كتبها صعبة للغاية .

ويبدو أن البارثيين قد انحرفوا عن الأساليب المتأثرة بالهيلينية فى التفكير منذ القرن الأول الميلادى ، والدليل على اتخاذهم هذا الاتجاه الجديد اختيارهم الديانة المزدية ديانة رسمية للدولة ، وبذلك اكتسب المجوس شيئاً من القوة والعزة .

وقد بذلت أولى المحاولات لجمع التقاليد الدينية وتنسيقها فى المدة الواقعة بين عامى ٥٠ ، ٧٧ م ، كما أعد أول تفسير « للافستا » بأمر من الملك الفارسى ، ومع ذلك ، فإن تسامح البارثيين نحو جميع الأديان سمح للمسيحية بالانتشار فى الجزء الغربى من الدولة فى القرن الثانى الميلادى .

ولم يكن الفن المعمارى البارثى أصيلا أو هاما ، وتوجد جميع الآثار المعمارية المتبقية عن ذلك العصر غربى بلاد فارس الأصلية . وهى تعكس صورة التأثيرات ذات الصبغه الهلينية وتأثيرات بلاد مابين النهرين . مع مزجهما بأساليب الفن المحلى .

العصر الساسانى

دبر اردشير — فى حوالى عام ٢١١ م — ثورة فى إقليم فارس ، وفى سنة ٢٢٤ م قتلت قواته آخر ملك بارثى فى القتال الذى دار فى خوزستان (Susiana) ، وسرعان ما سيطر أردشير على جميع إيران ماعدا ولايتى أرمينيا وبلخ ، ويبدو أن تسمية دولته الجديدة بالساسانيه مشتقة من لقب مارسى قديم هو ساسان بمعنى القواد ، ولو أنه قد انقلب أخيرا فصار اسما للأسرة .

وقد ربط الساسانيون سلسلة نسبهم بالأكمينيين عن طريق سلالة ملوك الفراتادارا (Fra'adara) الذين ظلوا مستقلين إلى أن دخل إقليم فارس بالقرب من أويارس تحت الحكم البارثى ، ثم ضربوا بعد ذلك عملة فى اصطخر — بالقرب من برسيوليس — إلى عهد اردشير ، وكان أردشير نفسه حفيد ساسان الذى كان موبذا رفيع الشأن فى معبد أناهيتا باصطخر .

وجعل اردشير دين « مزدا » (الزراد شتيه : (mazdaism) دينا رسميا للدولة ، وسرعان ما اشتبكت فى نزاع مباشر مع روما . وقد استمرت الحروب المدمرة مع روما ، ثم مع بيزنطة — بعد ذلك — طوال العهد الساسانى جميعه ، وكانت قوى الشرق و الغرب متعادلة تقريبا ، رغم أن الجولة الأولى من الحرب قد كسبها الساسانيون بهزيمتهم للاسكندر سفيروس (Alexander Severus) . وقد أسر شابور الأول ، ابن أردشير ٤٢١ — ٢٧١م وهو ثانى الملوك الثلاثة الكبار فى هذه الدولة — الامبراطور ڤاليريان (VaLerian) فى أثناء الحرب ، وأخذه أسيرا حتى توفى عنده ، وكانت أرمينيا هى

السبب الرئيسى للنزاع ، وقد تبادلها كل من الطرفين مرات عديدة فى أثناء حكم هذه الدولة ، والدول التالية لها .

وقد حكم بضعة وأربعون ملكا ساسانيا ،وكان نرسى ٢٩٣–٣٠٢ م أقل توفيقا فى حروبه ضد روما ، فأصبح نهر دجلة — فى أثناء حكمه — حدا ثابتا بين الشرق والغرب .

وولى شابور الثانى ابن حفيد ارد شير العرش فى ٣١٠ م . وقد اشتبك فى أثناء حكمه الطويل — الذى استغرق ٦٩ سنة — فى ثلاثة حروب مع روما ، وبعد وفاته اشتعلت نيران المنازعات الداخلية — حول سلطة الملك — بين الملوك والاشراف ورجال الدين ، فاعدم ثلاثه من الملوك على أيدى الاشراف ، وأصبح الملوك التالون — فى خلال مدة استغرقت قرنا تقريبا — يختارون من الأسرة الساسانيه بواسطه رجال الدين ، وكبار الاقطاعيين .

وقد اعاد خسرو الأول (٥٣١–٥٧٩م) — أعظم ملك فى هذه الدولة — الامبراطورية إلى أربعة أقاليم إدارية ، وفرض ضريبة محددة على الأراضى بعد ما مسحت جميع أراضى الدولة ونفذت مشاريع الرى ، وظفرت الزراعة بالاهتمام والعناية ، ونعمت البلاد برفاهية حقيقية .

كما شجع خسرو التعليم ، وكان هو نفسه قادرا على قراءة اليونانيه ، فأمر بترجمة كتب من اليونانية والسنسكريتيه إلى البهلوية ، وجمعت القصص الخرافيه ، ونظر إلى المسيحيه نظرة تسامح .

وقد انتصر خسرو الثانى (٥٨٩ — ٦٢٨) م على بيزنطة فى البداية وبعد اختيار قسطنطين الأول المتوفى عام ٣٣٠ م استنبول عاصمة له ، واسمها القديم بيزنطه ، سميت امبراطوريته بالبيزنطيه ، ولكن الامبراطور هرقل (Heraclius) لم يلبث أن أوقع به هزيمة ساحقة فى النهاية فى موقعة نينوى فى سنة ٦٢٧ م ، فأصبح الملك الساسانى فى فوضى شاملة .

ثم قاوم يزدجرد الثالث (٦٣٢ — ٦٥١ م) مد الاسلام المتدفق دون جدوى ، وأمضى السنوات العشرة الأخيرة من حياته هاربا مطاردا . وبهذا دخلت إيران فى حوزة الإسلام إلى الأبد .

الحركات الدينية والعلمية فى ايران

وفى القرن السادس قبل الميلاد وهو العصر الاكمينى فى إيران ظهرت ديانة جديدة وهى « الزرادشتية » التى بشر بها « زوارتشترا » (Zorathushtra) ، ذلك الذى سمى فيما ، بعد « زردشت » . وقد ولد فى « ميديا » ، وهى مملكة قديمة بغرب إيران . وصارت عقيدته فيما بعد الديانة الرسمية لدارا واكرزسيس وارتكزرسيس الأول . إن هذه الديانة تؤمن بـ « آهور امزرا » على أنه إله الخير . ونسبة إلى هذا الإله تسمى الديانة أيضا « المزدية » . واقترن الخير فيها بالصدق والنور أيضا . وهو أيضا قرر خلود الروح والحساب فى يوم القيامة . وهذه الديانة فى فى الحقيقة ضرب من الإصلاح للديانة الوثنية الفارسية وترمى إلى تنمية الحصاد ، والرفق بالحيوانات المستأنسة مما يؤدى إلى توفير الغذاء .

وقد ألف زرادشت كتابا سمى « الافيستا » أو « الزند — افستا » ، وزند معناها التفسير ، وافيستا ، معناها قانون .

وكانت هذه العقائد بسيطة جدا فى البداية ، ولكنها سرعان ماتغيرت فيما بعد ، واتحدت مع آلهة إيران القديمة من ناحية واختلطت بالطقوس الدينية لطائفة المجوس الميدية من ناحية أخرى (والميدية نسبة إلى « ميديا ») . ثم أصبح رجال هذه الطائفة يتوارثون وظيفة الكهنة فى هـــــذ الدين الجديد المنتشر .

ثم ظهرت فى إيران « الديانة المانية » فى القرن الثالث الميلادى . وقد أعلن مؤسسها « مانى » فى عام ٢٤٢ م النبوة ، ثم انتشرت ديانته فى أنحاء الامبراطورية الرومانية وآسيا ، وتأثرت بالبوذية والغنوصية

(سيأتى تفسيرها قريبا) تأثرا كبيرا ، واتسمت بتعاليم الزرادشتية ، متخذة النضال أساسا للصراع بين الخير والشر . كانت تعاليمها روحية بين أتباعها الذين كانوا يأملون السعادة بعد الموت . لقد قاومتها النصرانية بعنف ، ولذلك قضت عليها فى القرن الخامس الميلادى .

ولما خاض شابرو الأول معركته الفاصلة مع « ڤاليريا — الامبراطور الرومانى — فى عام ٢٥٨ م » وانتزع منه النصر لنفسه أودعه هو وجيشه فى السجن . ولكنه فى نفس الوقت أحسن معاملة الأسرى ، ومنحهم الحرية الكاملة ليستفيد منهم ، لأنه كان منهم الكثير من الأطباء والمهندسين والصناع المهرة . فأنزلهم فى بقعة قريبة من مدينة « سوسى » ، ومدينة « تستر » ، وأقام لهم فيها معسكرا اشتهر فيما بعد بمدينة « جنديسابور » أى (معسكر شابور) . وهذه المدينة هى التى أصبحت مدينة علمية عظيمة فيما بعد انتقلت إليها علوم الاسكندرية والهند ، والتقى فيها الأطباء والعلماء من الامبراطورية الرومانية والاسكندرية والهند . كان كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) أعظم من وجه عناية بالغة إلى هذه المدرسة ، وأعاد فيها مجد الاسكندرية والهند على السواء فى العلوم والفنون .

الصلات بين الهند والروم

إن الدولة الكوشانية الهندية قد حاولت بكل الطرق والوسائل توطيد العلاقات مع الروم ، على الرغم من هذه الأحداث والتطورات . وقد أرسل ملكها « كاد فيسس الثانى » (Kadphises) فى عام ٩٩ م سفيره إلى « تراجان » (Trajan) — ملك اليونان — ليقدم له تهانيه بمناسبة تولية العرش . وقد رحب تراجان بأعضاء السفارة أعظم ترحيب ، وأقعدهم فى مقاعد شيوخ المجلس فى عرشه . ومن المعروف أن العلاقات الإيرانية واليونانية كانت متوترة خلال العصرين البارثيين (٢٥٠—٢٢٩ق.م)

ق . م) والساسانى (٦٥ — ٢٢٩ م) ، ولذلك كان محتما أن تزداد الروابط بين الدولتين الكوشانية والرومانية لسلامة الطرق التجارية البرية الممتدة بين بلديهما .

وكذلك توثقت علاقات الرومان مع المملوك الآخرين فى وادى نهر الهند وما جاورها من البلدان وذلك كمعاداة لإيران ، والحفاظ على المصالح التجاريه للروم . وكذلك نال الفن الغاندارى تقدما وازدهارا فى أنحاء وربوع الهند والامبراطورية الرومانية فى هذه الآونة .

لقد زاد توافد السفراء من ملوك الهند العديدين فى أنحاء البلاد إلى بلاط ملوك الرومان منذ القرن الأول قبل الميلاد . وكذلك كثرت الرحلات والأسفار المتبادلة بين الروم والهند . وقد تزاحم التجار فى كلا البلدين لنقل البضائع إلى بلادهم . كان سفراء الهند يحملون إلى ملوك الروم هدايا غالية باهظة الثمن ، وأحيانا لاتقدر قيمتها . إن الهدايا التى قدمت للملك أغسطوس كانت تتضمن الأسد (الثعبان الكبير) وغلام مقطوع الكتفين يطلق السهم من أصابع رجليه بكل دقة ومهارة ، والقوس فى رجليه .

لقد شوهد فى بلاط أغسطوس عدد من رهبان الديانه الجينية وكهانها . ومن المعروف أن الاسكندر هو الآخر اصطحب معه (كالانوس) (Kalanos) الراهب الجينى ، ذلك الذى انتحر فيما بعد وفق العقائد الجينية . وقد رأس الوفد الهندى فى بلاط اغسطوس راهب جينى يدعى (زارما نوكيفاس) (Zarmanochegas) . قد جاء هذا الراهب برسالة مكتوبة على الرق وبالإغريقية إلى الملك يناشده فيها توثيق الروابط بين البلدين ، وتوفير الوسائل لرعايا الرومان فى الهند وإعفائهم من جميع الرسوم والضرائب . ولكن هذا الراهب هو الآخر أشعل النيران فى كومة من الحطب وألقى نفسه فيها ليحترق على الطريقة الجينية .

ولقد اعتقد الرهبان الجينيون آنذاك أن الانتحار على هذا الوجه يضمن النجاة والخلاص في الآخرة .

وقد بني له ضريح في اليونان ، كتب عليه ما يلي نصه : « وهاهنا يرقد زارمانوكيغاس » الهندي من سكان بلدة بارغوسا ، ذلك الذي قدم نفسه قربانا لنيل الخلود وفق تقاليد بلاده .

وهذه الظاهرة تدل بوضوح على أن الديانة الجينية قد أصبحت معروفة في الروم ؛ وذلك بالإضافة إلى البوذية التي انتشرت فيها ونالت مكانا كبيرا منذ أيام مجد اليونانيين .

جنوب الهند في مجال الحضارة واتصاله بالروم

لقد ذكرنا من قبل اتصالات جنوب الهند بحضارة نهـــر الهند ووجود دويلات بدوية عديدة فيها أيام محنة راما إذ كانت منفاه حينذاك . ولكنها ازدهرت فيما بعد ازدهارا كبيرا وقامت في أواخر القرون قبل الميلاد دول كبرى ذات حضارة متقدمة وهي شولاس وسيراس وبانديياس . ومن المعروف أن سكان هذه المنطقة كلهم من الأصل الدراويدي — السكان الأصليون للهند — واتسموا باللونين الأسمر والأسود منذ القدم . وبسبب وجود هذه المنطقه على البحر من ناحيتين ، أولاها في الغرب على بحر العرب ، وثانيهما في الشرق على خليج بنغال ازدهرت العلاقات التجارية بينها وبين بلدان الشرق الأوسط إلى درجة كبيرة جداً . فقد نشطت الرحلات التجارية وأسفارها بين هذه البلدان خلال العصر اليوناني ، ثم زادت وتفاقم أمرها في العصر اليوناني .

وفي عصر ملوك الأسرة البانديية أرسل ملك لها في عام ٢٥ ق . م سفيرا له إلى ملك الرومان آنذاك وهو « اغسطوس » ابن الأخ لقيصر . وقد ظل هذا السفير في بلاطه قرابة أربع سنوات .

الاسكندرية وجنوب الهند

لقد أصبحت الاسكندرية منذ القرن الأول الميلادى مدينة عالمية ثانية بعد ڤينيس (venice) — عاصمة الروم — فى شمال ايطاليا ، تلك التى اصبحت مدينة أولى عالمية فى هـذه الآونة . وأما من الناحية التجارية فقد صارت الاسكندرية المركز الأول فى العالم دون نزاع . لقد كانت صور و « صيدون » (فى لبنان) مركزان تجاريان دوليان طوال مجد الفينقيين — أى العرب فى سوريا ولبنان — وقد انتقلت الآن هذه المركزية إلى الاسكندرية . وازداد ترددالقوافل التجارية بين الاسكندرية وجنوب الهندمن ميناءمالابار على بحر العرب . كانت الفلافل الهندية وتوابلها والعاج والأطواس والقرود وأحجارها الثمينة موضع الاعجاب فى بلاد الشرق الاوسط وأوربا . وكانت تحمل هذه البضائع بكمية هائلة إلى الاسكندرية ، ومنها كانت توزع وتشحن إلى البلاد الأخرى . لقد عرف الملاحون فى هذه الآونة طبيعة الرياح الموسمية المؤدية إلى الهند فاستغلوها لتسهيل المواصلات إلى الهند . كانت « موزيريس » (Muziris) فى « كرانغانور » (cranganore) فى سلحل مالابار أهم ميناء حيث كانت ترسو فيها السفن العالمية بإعدا ضخمة جدا . وبسبب توفير الاسباب وتيسير السبل والسيطرة على الرياح الموسمية كانت تقطع المسافات الطويلة من ايطاليا إلى مالابار فى ظرف ستة عشر اسبوعا . ومن الجدير بالذكر أن نفس المسافة بدأت تقطع فى عام ١٨٣٨ م من خمسة إلى ثمانية اشهر ، وذلك على الرغم من تقدم الحضارة وسيطرة العالم الغربى على الملاحة العالمية وتطويرها . لقد اصبحت أوربا الآن على صلة وثيقة بالهند وتقربت إليها إلى أقصى الحدود . ثم نشطت الطرق البحرية من مالابار إلى كراتشى فى بحر العرب ، بسبب كثرة ارتياد التجار والزوار والرحالة من الشرق الاوسط وأوربا ، لقد الف فى هذه الآونة ملاح يونانى — اسكندرانى المولد — وهو « بلينى » (pliny) فى هذه الآونة كتابا عن الرحلات البحرية عبر بحرى الاحمر والعرب طوال سواحل الهند الممتدة من مالابار إلى

نهر الهند . وقد أعرب عن اسفه الشديد من تدفق خزائن الشرق الاوسط وذهابها إلى الهند عن طريق الرومان ، وقدرها مليون جنيه استرليني وفق تقديرنا الحديث وذلك بسبب اقبال أوربا والشرق الاوسط على شراء البضائع الهندية .

وبالاضافة إلى ذلك تشير وثائق الهند الجنوبية المكتوبة بلغة تامل(Tamil) المسجلة في هـذا العصر أن الرومان قد أنشئوا مستعمرات عديدة لهم في انحاء سواحل الهند الغربية الممتدة من مالابار إلى نهر الهند بالقرب من كراتشي . وقد وجدت مستعمرات رومانية كثيرة في ميناء «كرانغانور» في مالابار ، ومدورا في مدراس وبوكار على نهر الكاويرى في مدراس نفسها . وقد تغنى شاعر مدراس في هذه الآونة بلغته التاملية ازدهار بلاده وظهور مدينة «موشيرى» وتحمل فلافل مدراس إلى الشرق الاوسط .

ولم تكن هذه المستعمرات لسكان الروم فحسب بل عاش أيضا مع الرومانيين جنبا إلى جنب المصريون أيضا من أهالى الاسكندرية والسوريون واللبنانيون .

ويعتقد أن هذه المستعمرات كانت شبيهة بالمستعمرات التى انشأها البرتغاليون في القرن الثامن عشر الميلادى لنفس الأسباب على طول الساحل الغربي الممتد من مالابار إلى سورت في مومباى .

وكذلك تشير الدلائل إلى أن كثير من المتعلمين الرومان والأميين منهم قد توظفوا في بلاط ملوك مدراس في شئون عديدة . وقد دخلت بنات الروم في حرم هؤلاء الملوك ملكات وأميرات ، كما دخلت من قبل ابنة ملك اليونان في حرم الامبراطور شندرغبت موريا بعد عودة الاسكندر مباشرة من الهند في طريقه إلى بلاده . وكذلك توظف الرومان في الحرس الملكى في مدراس لسلامة ارواح الملوك من المؤامرات ومن الاغتيال .

وبالاضافة الى تجار وسفراء الهند الجنوبية كثر توافد تجار الهند على

الاسكندرية من المناطق المختلفة . يقول « ديوكريسوتوم »(Diochrysostom) وهو يخطب فى جماهير الاسكندرية ، وذلك فى عهد الملك اليونانى «ترازان» (Trazan) : اننى أرى بينكم جنسيات عديدة من الناس الوافدين من اليونان وايطاليا وسوريا وليبياوسيلى سيا(Cilicia)واثيوبيا وبلاد العرب وباكتيريا(بلخ) واسكيثيا (Scythia) وايران والهند (وهم قليلون بالنسبة إلى المذكورين) .

ومن المحتمل جدا أن يكون هؤلاء الهنود الوافدون إلى الاسكندرية من سكان أحد الموانى الهندية الشهيرة الممتدة من مالابار إلى كراتشى .

ظهور لغة دولية شعبية فى الاسكندرية

يقول « راولينسون » : إنه قد ظهرت فى الاسكندرية لغة مشتركة دولية خلال القرن الأول الميلادى وذلك نتيجة للاختلاط والامتزاج بين الاجناس المختلفة من الناس . وكانت هذه اللغة تستعمل فى أسواق الاسكندرية للتفاهم والتخاطب مع الزوار والرحالة والتجار الأجانب الوافدين من شتى انحاء الأرض. وهذه الأمور كلها هيأت الاسكندرية أن تصبح المركز التجارى الأول فى العالم اجمع . وإن ظهور هذه اللغة الدارجة المشتركة كان طبيعيا نظرا إلى الظروف والملابسات المحيطة بالاسكندرية فى تلك الآونة .

الهند وبلاد العرب

كانت السفن الهندية تتردد من ساحلها الغربى على موانى الخليج العربى منذ أقدم العصور . وفى هذا العصر أصبح ميناء باريغازا Barygaza على الساحل الغربى الهندى همزة الوصل بين الهند والخليج العربى. وكان هذا الميناء على مقربة من بومباى ، ولذلك كان يربط بينه وبين وسط الهند وشمالها طرق برية آمنه ممتدة . كانت القوافل البرية تأخذ طريقها من هذا الميناء إلى « أوجين » UjJain فى وسط الهند ، ومنها إلى « بتنه » العاصمة الهندية لملوك موريا(وهى الآن عاصمة ولاية بهار) مارة بالمدن الآتية : ڤيدسا vidisa وباروت(Barhut) وكاوسامبى (Kausambi)وبراياجا (Prayaga) . وعلى ضفاف نهر الجنجا فى المملكة المورية — وعلى مقربة من مدينة كلكتا الآن — انشىء ميناء كبير للسفن التجارية المتنقلة بين الهند والصين وسيلان عبر خليج بنغال .

مجد الديانة البوذية كديانة عالمية أولى

منذ أن دان الرومانيون بالبوذية وثم احتلالهم للمناطق الممتدة من بحر قزين إلى الصين تتخللها بلاد الشرق الأوسط والهند كسبت البوذية الشهرة العالمية وأصبحت دين الدولة الرسمي لمعظم هذه البلاد ، وظهرت باسمها الفنون والآداب . ومن المعروف أن الديانة البوذية كانت تتمثل فى عقيدة التجسد فى هذه الآونة ، لأن « كانيشكا اليونانى » أمبراطور الكوشانية اعتنق البوذية وفق عقيدة التجسد ، وآمن بأن الاله ڤشنو قد تجسد فيه . وهذه العقيدة هى التى أصبحت سارية المفعول فى هذه المناطق كلها . وبهذا تكون البوذية قد مهدت السبيل للمسيحية الرومانية التى امتصت جميع الخصائص البوذية العالميه وحلت محلها فى الشرق الأوسط كله ، ثم أخذت طريقها إلى أوربا . ونتيجة لذلك فقد أعطى الرومان للمسيحية نفس المكانة والتقدير والصفات التى كانت تتمتع بها البوذية من قبل . وبهذا يكون الرومان قد عرضوا السيد المسيح بنفس صورة بوذا ، والمسيحية كصورة طبق الأصل للبوذية العالمية .

ومن الجدير بالملاحظة أن نظرية تجسد الإله العظيم ڤشنو قد اتخذت صبغة عالمية منذ القرن الأول الميلادى ، وتجلت فى أبدع مظاهرها فى البوذية فى طائفة المهايانية كما قلنا . ولقد احتل الإله الأعظم « ڤشنو » — الدراويدى الأصل — مكاناً بارزاً فى الديانة الآرية والدراويدية على السواء منذ القرن الأول ، وحل محل « براهما » إله الالهة للبراهمة ، وتجلت هذه الظاهرة فى كتاب هندوكى ظهر فى هذا العصر « البهاغاواتا » (Bhagavata) الذى يمجد الإله ڤشنو ويفصل نظرية التجسد كما أورد لنا هذه التفاصيل السفير اليونانى فى بلاط ملوك الهند فى هذا القرن وهو « هيليودوروس (Helodorus) .

كانت الدولة الكوشانية (٧٨ — ٣٠١ م) آخر دولة فى الهند ، تدفق الساسانيون على الهند وظلوا يحكمون السند إلى عام ٣٢٠ م ، ثم قامت الدولة المورية واستمرت إلى عام ٥٣٥ م ، وضعفت البوذية فى هذه الآونة ،

إلا أنها انتعشت فيما بعد منذ عام ٦٠٦ م حينما قامت لها دولة فى شمال الهند سميت « هاراشاڤاردانا » (Harshavardhana) واستمرت حتى عام ٦٤٧م ، ثم ظهرت لها دولة أخرى فى بنغال تحت اسم « اسرة بالا » (pala) : ٧٥ — ١٥٠ م). لقد قلنا أن البوذية صارت الديانة الرسمية فى الصين منذ القرن الأول الميلادى ، كذلك أصبحت الديانة الرسمية فى اليابان خلال عهد أسرة « شوتوكوتاى شى » (Shotokutaishi) : ٥٧٢ — ٦٢١ م) .

لقد اشتهر رجل فى سوريا فى القرن الثالث الميلادى و هو « بارديسانيس» (Bardesanes) الذى كان من الأصل البابلى . فقد رغب هذا الرجل فى الديانة البوذية . وقد أتيحت له الفرص لمعرفة هذه الديانة حينما وفدت على سوريا سفارة هندية خلال عهد ملكها الشهير « الاغابالوس » (Elagalaeus) : ٢١٨—٢٢٢ م) ، فتعلم منهم البوذية . لقد كان مولعاً من قبل بالتصوف ووحدة الوجود . وهذا الاتصال بالسفارة الهندية أثار رغبته فى هذا المجال إلى أقصى الحدود . ثم لم يتمالك إلا أن شد الرحال إلى الهند لمشاهدة البوذية فى موطنها الأصلى وزار كذلك الأغوار الشهيرة التى شيدها البوذيون وخلدوا فيها الفن الغاندارى المعمارى البوذى . لقد سجل انطباعاته كلها فى هذا الصدد فى كتابه . ولقد صرح بأنه وجد فيها تمثالا للاله سيڤا — الهندى الأصل من حضارة نهر الهند — مع آلة التناسل منصوبة فيها على الطبيعة . وكذلك عرف هذا الرجل كثيرا عن الديانة الهندوكية . وقد كان لانطباعاته وآرائه صدى كبيرا فى الشرق الاوسط ؛ ونال احتراما بالغا فى عهده من جماهير الناس .

إن فشل الديانة الكونفوشية فى تحقيق آمال الشعب الصينى فى التقدم والإزدهار ساعد البوذية فى أن تغزو هذه البلاد وتحتل فى قلوب الناس . ولكن هذه الديانة سرعان ما امتزجت بالروح الصينية الأصلية وألتقت بالديانة التاوسية (Taoist) الصينية ، وأصبحت صينية محضة فى طبيعتها . ولكنها واجهت الصعوبات حينما ازداد زحف البدويين على الشمال وإحداثهم القلاقل

والاضطرابات فى البلاد . ولكنها استعادت قوتها مرة أخرى منذ القرن الخامس الميلادى . وفى هذه الآونة ترجم معظم التراث البوذى من اللغات الهندية إلى الصينية .

ومن المعروف أن الصين قد تلقت الديانة البوذية المسماة بالمهايانية من الهند، تلك التى عرضت بوذا فى صورة الإله الذى تجسد فيه فشنو ، ولكن الصين سرعان ما مزجت البوذية بتراثها القديم ، وعرضتها فى الصورة الصينية البحتة، وذلك منذ نهاية القرن الرابع الميلادى .

لقد لعبت الصين دورا كبيرا فى نشر البوذية فى كل من اليابان وكوريا . وقد دخلت البوذية كوريا بجهود الرهبان البوذيين الصينيين خلال السنوات ٣٧٢ ـــ ٥٢٨ م ، وكذلك دخلت اليابان فى عام ٥٥٢م ، ولكنها امتزجت فى هذه البلدان أيضا بتراثها المحلى وحضارتها ، واستقلت عن الروح الهندية الأصلية ، وكذلك عن المزاج الصينى ومميزاته .

الهندوكية فى آسيا الصغرى وسوريا

لقد تأثرت المدرسة الهيلينسية اليونانية المنتشرة فى آسيا الصغرى بالبوذية خلال القرن الأول الميلادى . واحد من زعماء هذه المدرسة فى هذه الآونة وهو « أبولونيوس » (Apollonius) الذى اشتهر بالكرامات قد سافر إلى تاكسيلا ليتعلم الديانة الهندوكية من كهنوت ، فعلمه هذا الكهنوت . كانت تاكسيلا مدينة مشهورة على ضفاف نهر الهند بين بنجاب وبشاور .

مشكلات الرومانية ومصائبها

لما بلغت الهند قمة الحضارة والتقدم منذ القرن الثالث الميلادى تدهورت الأمور فى الأمبراطورية الرومانية من جراء الحروب والأمراض الوبائية

وغارات القبائل البدوية من الشمال . ولذلك فقدت الروم سيطرتها على الملاحة العالمية فى البحر الأحمر ، الأمر الذى أدى إلى تدهور التجارة العالمية فى الشرق الأوسط وضعف الاسكندرية وفقدانها مكانتها العظيمة فى هذا المجال . وقد ظهرت إيران على مسرح السياسة العالمية منذ عام ٢٢٩ م ، وأصبحت سيدة الموقف حتى القرن الخامس الميلادى ، كما ظهرت الحبشة واليمن كذلك فى هذا المجال وأصبحتا مهيمنتين على الملاحة العالمية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وتفرضان ضرائب باهظة على السفن التى تتردد على ميناء عدن والموانى الأخرى . ومن هنا اتجهت الهند إلى موانى الهند الشرقية فى خليج بنغال لتوطيد علاقاتها مع بلاد جنوب شرق آسيا ، كما أن الطرق البرية المؤديه من هندوكوش إلى بحرى قزوين والأسود قد استأنفت نشاطها لتكون على صلة وثيقة بالروم . وكذلك توجهت سفن الهند من موانيها الغربيه إلى الخليج العربى مباشرة لتعفى نفسها من دفع الضرائب الباهظة للعرب اليمنيين فى عدن . وهذا الطريق البحرى الجديد ساعد على ازدهار موانى الخليج العربى وازدهار مدينة تدمر فى شمال شرق سوريا فى المجال التجارى منذ عام ٢٧٣ م .

وهذه العوامل السياسية والاجتماعية خلقت الاضطراب واليأس والتشاؤم فى نفوس سكان الامبرأطورية الرومانية . ومن هنا زادت الميول إلى العزلة ووحدة الوجود وازدهار الاتجاهات السلبية فى نفوس هؤلاء السكان . فظهرت وحدة الوجود فى أبدع الصور وأروع الأشكال لاخفاء الدموع وبتغطية الأحزان والآلام فى ستار من العزلة النفسية والحياة الرهبانية .

وبما أن الاسكندرية قد صارت مركز الحضارة الرومانية منذ قرنين تقريبا فقد تأثرت إلى أقصى المدى من هذه الأحداث والتطورات . ولذلك نبعت فيها جميع هذه الفلسفات السلبية والاتجاهات المتشائمة ، ثم صدرتها إلى البلدان المجاورة لها فى الامبراطورية الرومانية .

الفلسفة الغنوصية واتصالها بالبوذية

وفى العصر الهيلينسى (Hellenstic Age) — وهو عبارة عن القرون الثلاثة التى تلى وفاة الإسكندر ، تلك التى انتشرت خلالها الحضارة اليونانية فى العالم أجمع — ظهرت « الغنوصية » (Gnosticism) ، وهى فى الأصل نسبة إلى « غنوصيص » ، أى المعرفة . وهى حركة فلسفية ودينية نشأت فى العصر الهيلينسى ، وأساسها : إن الخلاص يتم بالمعرفة أكثر مما يتم بالإيمان والأعمال الخيرة . ويقول الغنوصيون بالثنائية ، أى بالتمييز بين الخير والشر المعتبرين عنصرين أساسيين للوجود ، وأدمجوا فى تعاليمهم شيئا من السحر والشعوذة .

وقد دخلت هذه الفلسفة المسيحية منذ البداية ، ولذلك نبذت المسيحية الغنوصية الأولى ، الأسس اليهودية للمسيحية ، وكذلك العهد القديم . ونادت فى القرن الثانى الميلادى بأن الخلاص يتم عن طريق الحكمة (أى الصوفية) ، وقسمت الناس إلى ثلاث طبقات : الغنوصيين ، وخلاصهم مضمون ، والمسيحيين غير الغنوصيين ، ويمكنهم أن يخلصوا أنفسهم بالإيمان ، ومن عدا هؤلاء وأولئك هالكون .

وبهذا تكون الغنوصية الفلسفة الشرقية فى غطاء يونانى قد اتخذت مركزها الاسكندرية وذلك قبل ظهور المدرسة الافلاطونية الحديثة فى القرن الثالث الميلادى .

لقد كان من أبرز رواد الغنوصية فيها « باسيليديس » (Basilides) المصرى الأصل ، وكان أكبر معاصر له فى مصر آنذاك هو « هارديان » (١١٧ — ١٣٨ م) ، ذلك الذى اقتبس الحكم الشرقية لمزجها بالغنوصية ، ثم عرض المسيحية فى هذا الإطار المزخرف البهيج من الحكم والفلسفات .

كان هارديان متشائما جدا فى الحياة . فقد حيره الألم والخوف

اللذان يعانيهما الإنسان ، ولا يتخلص منهما ولعله أول من فسر أسباب تقديم أرواحهم — بإذن من الله — تضحية لإنقاذ البشرية من الويلات والآلام . وهذه فكرة جينية تماما . لأن الجينيين قد اعتنقوها منذ البداية. لقد وجد من قبل أن الاسكندر قد صحب معه راهبا جينيا من الهند ، ذلك الذى أحرق نفسه اعتقادا منه بأنه يقدم نفسه تضحية للبشرية . وهذه النظرية دخلت فى البوذية أيضا فيما بعد ، ولذلك مارس كثير من الرهبان البوذيين هذه القرابين ، كما نجد هذه الظاهرة تتكرر فى عصرنا هذا بين حين وآخر بين الرهبان البوذيين فى فيتنام ضد السياسة الأمريكية فيها . ومن هنا اعتقد المسيحيون أن السيد المسيح ضحى بنفسه بالصلب لإنقاذ البشرية من الآلام والعذاب ، وذلك بعد تفسير « هارديان » هذه الظاهرة بهذا الشكل ، وفى غطاء من الفلسفة الغنوصية .

وأما معاصره « باسيليديس » — كما يشرح كليمان الاسكندرانى المسيحى (١٥٠ — ٢١٢ م) مذهبه : بأن الروح قد ارتكبت الذنوب فى الحياة السابقة ، ولذلك تنال جزاءها فى هذه الحياة الثانية . ومن ثم يجيز التضحية بالأرواح فى سبيل النجاة والخلاص . وهذه نظرية التناسخ تماما ، تلك التى آمن بها « باسيليديس » وفسرها بهذا الشكل فى إطار الدين المسيحى . وكذلك تأثر بالبوذية فى قوله : إن الروح ليست لها صفات مميزة ، بل هى متصلة بالآلام والعواطف والانفعالات ، وأن الله لا يمكن رؤيته أو إدراكه ، بل هو لا يكاد يكون موجـــــودا . وأن السيد المسيح قد دخلت روحه بعد وفاته فى حالة البرودة أى النرفانا وفق العقيدة البوذية .

مدرسة الاسكندرية

لقد صارت الاسكندرية منذ القرن الأول الميلادى منبع العلوم ومهد الثقافات ، وملتقى الحضارات التى تهوى إليهـــــا النفوس ، وتشد إليها

لوحة (٢٥)
اثنان من الرهبان البوذيين

لوحة (٢٦)
ثلاثة من الرهبان الهندوس على طريقة اليوجيين

الرحال ، وتلتقى فيها العقول والوجدان . يقول راوليسون : إن بولس الرسول (الذى استشهد فى عام ٦٧ م) نال ترحابا جارا فى مدرسة الإسكندرية . لقد تلقاه « اريوباغوس » (Areopagus) فيهـا بحفاوة ونال فيها الراهب البوذى « باريغازا » (Barygaza) نفس التقدير والترحاب . وكان هؤلاء الزوار والرواد يتفاهمون ويتناقشون باللغة العالمية الدارجة التى تكونت فيها فى ذلك الحين .

وبالإضافة إلى هذا اللقاء ، فقد تردد على الأسكندرية كذلك كثير من الجينيين والبوذيين وهم فى طريقهم إلى الروم . وهناك وثائق عديدة تشير إلى مثل هذه الزيارات ومن هنا يعتقد راوليسون أن الاسكندرية كانت على علم تام ومعرفة كاملة بأديان الهند وفرقها ونحلها .

اللقاء بين المسيحية والبوذية فى الاسكندرية

كان « تيتوس كليمان » (Clement) : ١٥٠ — ٢١٨ م) لاهوتيا يونانيا ولـــد فى أثينا من أبوين وثنيين ، واعتنق المسيحية وتتلمذ على « بانتاينوس » رئيس مدرسة التعليم الدينى بالاسكندرية . وقد هجر الاسكندرية فى عام ٢٠٢ م فرارا من الاضطهاد الذى شنه « سيتميوس سفروس » على المسيحيين .

وكان هذا العالم الجليل ملما جدا بالبوذية . وذكر فى بعض كتبه بأن اليونانيين سرقوا البوذية وهم لم يزالوا فى الطور البدوى . وهذا أول عالم مسيحى صرح بوضوح بالبوذية ، والبوذيين الذين أسبغوا على بوذا صفات الألوهية ونصبوه إلها من الآلهة . ولعــله يقصد بذلك عرض بوذا فى صورة فشنو الإلهة المتجسد فيه . وكذلك ذكر هذا العالم عقيدة التناسخ وهيكلا للبوذيين على صورة الأهرام المصرية ووضعوا تحته رفات بعض أوليائهم ، وذلك كرمز وتقديس لهذا الهيكل .

ويرى راولينسن (Raulison) على ضوء هذه التصريحات وجود ملامح متشابهة بين القصص البوذية وبين قصص بعض الأناجيل مثل ولادة كل من بوذا والسيد المسيح ، وأول وعظ لبوذا فى بنارس ، والحواريين الإثنى عشر .

لقد وردت هذه القصص البوذية فى كتاب بوذى يسمى « لاليتافيستارا » (Lalita vistara) وهذا يدل على اقتباس المسيحية هذه الأمور من البوذية بسبب كونها متأخرة جدا بالنسبة إلى البوذية بما يقرب من خمسة قرون . وناهيك بالدوى الذى أحدثته البوذية فى العالم الرومانى قبل ظهور السيد المسيح وبعده .

وفى كتاب « جاتاكا » الذى يتضمن قصص بوذا ومعجزاته وكراماته نجد قصة جاء فيها أن واحدا من أخص أتباعه مشى على سطح الماء حينما كان فى حماسة العقيدة عن بوذا . ولما طغى عليه السرور والبهجة وانخفضت عقيدته فى بوذا بدأ يغرق فى الماء . ومن المعروف أن المسيحية هى الأخرى تنسب قصة مماثلة لها إلى أتباع المسيحية .

وبالإضافة إلى ما أورده كليمان فقد أورد « ميك كريندل »(mccrindle) نصوصا تدل على اتصال الإسكندرية المسيحية بالبوذية فى هذه الآونة ، وان المسيحيين فيها قد أعجبوا بقصة الملكة مايا البوذية إلى أقصى الحدود . وقد حدث كل ذلك خلال القرنين الثانى والثالث الميلاديين .

وكذلك اتصل بالتصوف الهندى والبوذية « أمونيوس ساكاس (Ammonius Saccan) ذلك الذى يحتمل أن يكون من مواليد الهند (المتوفى عام ٢٤٢ م) فى المناطق اليونانية فيها . لقد درس هذا العالم كذلك الأفلاطونية الجديدة فى الاسكندرية ، وكما اتصل بالتصوف الهندى والبوذية العالم المسيحى الشهير (أوريجين) (origen)

المتوفى عام ٢٥٤ م) ذلك الذى عرض الكنيسة المسيحية بصورة منظمة ومنسقة لأول مرة .

وعلاوة على الأمور المذكورة فقد تركت الرهبانية الهندية وحياة العزلة والاستغراق أثرا بالغ الأهمية فى المسيحية فى سوريا . ويعترف بهذه الظاهرة جميع الباحثين دون استثناء ومن بينهم « ميكنيل » (W . H . mcneill) ذلك الذى لايرضى الاعتراف بأثر الهند فى المسيحية بكل صراحة وبرحابة صدر .

إن الظروف التى واجهتها المسيحية فى الامبراطورية الرومانية كانت شبيهة جدا بظروف البوذية ، لأن الوثنية الرومانية فرضت حصارها على البوذية كما فرضت على المسيحية فيما بعد . وهذه الظاهرة هى التى دعت المسيحية إلى الاقتراب من البوذية المنتشرة فى الشرق لأوسط والتجاوب معها والإستفادة منها .

ويرى راوليسون أن المسيحية فى الإسكندرية قد اتخذت من البهاكتية واليوجية ووحدة الوجود الهندية معظم خصائصها وملامحها البارزة مثل السبحة واتخاذها رمز التقديس والمهابة والمبالغة فى الرياضات البدنية والرهبانية والعزلة .

وقد قامت بعثة فرنسية من الارساليات برحلة تبشرية فى عام ١٨٤٢ م إلى « لهاسا » عاصمة التبت ، الواقعة على رأس الهملايا ، واندهشت إلى أقصى الحدود حينما وجدت تشابها كبيرا فى المراسيم البوذية وطقوسها وبين المسيحية الكاثوليكية . لأنها شاهدت فى الأديرة البوذية فى لهاسا صولجان الأسقف ، وتاجه ، ورداء الكاهن على نفس الطريقة الكاثوليكية . كذلك وجدت صورة مماثلة لها فى جوقتين للمنشدين فى المكان المقدس ، وفى الأناشيد ، والتعاويذ ، والمبخرة المربوطة بخمس سلاسل ، ومنح البركة للمصلين على جبينهم باليد اليمنى للكاهن ، وكذلك كانت السبحة وعزوبة أكليروس مماثلة للكاثوليكية .

وناهيك بالتشابه الكامل فى حياة الرهبانية والعزلة عن الدنيا ، والاعتكاف والصيام والمواكب الدينية ، والابتهالات ورش الماء المقدس .

ومن المعروف أن التبت لم تكن على صلة مباشرة بالشرق الأوسط ، بل عاشت فى عزلة تامة عن الدنيا ماعدا الهند . لقد انتشرت فيها البوذية قديما عن طريق الهند ، وهذا الأمر يؤكد اصالة البوذية فى هذه الأمور الطقوسية كلها ، تلك التى كانت منتشرة ومعروفة فى أنحاء العالم البوذى فى ذلك الحين ، وبصفة خاصة فى العالم الرومانى ، ومن هنا دخلت بحذافيرها إلى المسيحية فى الاسكندرية فى العهد الرومانى .

ويرى بعض الباحثين الإفرنج أن السيد المسيح قد جاء فى صورة طبق الأصل لبوذا . ومن هنا سمى « توماسا كيمبيس » (Thomasa - Kempis) « كتابه « محاكاة المسيح » (gmitationob christ) يقصد بذلك محاكاته لبوذا .

ويرى باحث آخر وهو « إدوارد كونز » (Edwar dConze) أن المسيحية تتفق مع البوذية فى عقيدة الآخرة هى « النرفانا » ، أى برودة مطلقة لا حياة ولا موت ، ولانشور ، ولاعذاب ولاجزاء . وهذا يدل بوضوح على أن المسيحية كانت فعلا صورة مكررة للبوذية المتمثلة فى المهايانية .

ومن ناحية أخرى فإن ظهور الكنائس المسيحية وسلطاتها ونظمها فى البداية شبيهة بالبوذية إلى درجة كبيرة جدا . لأن البوذية فى عصر بوذا لم تشهد معبدا ولا ديرا ، بل عاش بوذا حياة التنقل والتجول دون مسكن له أو مأوى . ولعل إنتشار الأديرة البوذية فى أنحاء العالم بعد بوذا بقرون ، وفى الشرق الأوسط بالذات أيام الإغريق أعطى المسيحية فكرة إنشاء الكنائس على منوالها .

يقول كاتب انجليزى مشهور فى الرحلات والأسفار وهو « انغيبورغ وودكوك » (Woodcock) بعد مشاهدته أروع آيات الفن والجمال فى المعابد البوذية الهندية فى أغوار اجنتا وألورا : أنها تشبه المسيحية من كل الوجوه . لأن تعاليم بوذا كانت بسيطة للغاية وحياته فقيرة جدا ، ولم يكن له معبد ولا دير ولا مسكن . ثم أنشئت هذه الأشياء وتطورت إلى أقصى الحدود وأصبحت تمثل أروع آيات الفن والجمال فى الهندسة المعمارية والتصوير والنحت والرسم ، كما أن حياة بوذا ، من خلال تمثاله عرضت فى صورة فخمة ، كأنه عاش حياة البهجة والترف والزخارف . ونفس ماحدث بالنسبة إلى المسيح والمسيحية أيضا . لأن حياة المسيح فى البداية كانت شبيهة ببوذا ، وتعاليمه هى الأخرى اتسمت بنفس البساطة . إلاأنها عرضت فيهما بصورة فخمة بهيجة مزخرفة الى أقصى الحدود . ويرى الكاتب أن الديانة البوذية المتمثلة فى العقيدة المهايانية تعرض بوذا منقذا لبنى الإنسان من ويلاته وآلامه ، وأوجد حلا له وهو نفى الذات وتخفيف الملذات والأمانى وممارسة الضغط عليها . كذلك اتخذ المسيح آلام الإنسان ومصائبه محوراً أساسياً لتعاليمه ، الا أنه ضحى بنفسه من أجل انقاذ البشرية وخلاصها من المشكلات والآلام كحل نهائى ، وهذا هو الفرق الدقيق بينهما .

الاسكندرية مركز الثقافة فى العهد الرومانى

..ولما توفى الاسكندر فى عام ٣٢٣ ق م لم تكن لثغر الاسكندرية أية أهميه . ولكن بطليموس الأول (٣٢٣ ـــ ٢٨٥) هو الذى أنشأها واتخذها عاصمة له ، وأعطاها المكانة الدولية . لقد كان بطليموس الأول صديق اسكندر ورفيق صباه ، وشريكا له فى جميع غزواته فى آسيا الصغرى . ولما مات الاسكندر حكم مصر بالنيابه عنه وأنشأ هذه المدينة ، ودفن فيها رفات الاسكندر ، وأنشأ بها الفنارة إحدى

عجائب الدنيا السبع ، وأنشأ متحفا ومكتبته . وكان حكم ابنه بطليموس فيلادلفوس ٢٨٥ — ٢٤٧ ق . م امتداد لحكمه ، ثم بلغت الاسكندرية ذورة مجدها فى ظل حكم بطليموس الثالث ٢٤٧ — ٢٢٢ ق . م .

كانت أثينا فى اليونان مركز الفكر والفلسفة قبل فتوحات الاسكندر . ولكن مكانتها ومميزاتها قد انتقلت آنذاك الى الاسكندرية . كانت فلسفة أثينا قبل ظهور مدرسة الاسكندريه تتمسك بالفكر اليونانى ، ولم ترض التجاوز عن حدوده ، ولكنها فى الاسكندرية اتسعت للتجاوب مع جميع الأفكار والفلسفات العالمية . وقد حملت الاسكندرية لواءالفكر والعلم فى القرن الثالث قبل الميلاد حينما أنشئت وظلت تحمله الى القرن الخامس قبل الميلاد .

لقد تميزت مدرسة الاسكندرية فى بداية عهدها بنزعتها العلمية ، وبخاصة العلم الرياضى ، ولكنها سرعان ما اشتغلت بالفلسفة منذ القرن الأول قبل الميلاد ، وأخذت تنظر فى فلسفة الأديان بوجه خاص بعد ظهور المسيحية ومنذ حدوث الصراع الفكرى بينها وبين وثنية اليونان والرومان وديانة المصريين القدماء ، بالإضافة الى الديانات الشرقية الشهيرة : البوذية واليهودية والزرادشتية والمانوية . وفى خضم هذه التيارات الفكرية والدينية ظهر فى الاسكندرية « الفيثاغورية الجديدة » تحاول التوفيق بين الأديان ، ومنها نبعت جماعة اخوان الصفا وخلان الوفاء فى القرن الرابع الهجرى عند المسلمين .

وظهرت كذلك فى الاسكندرية مدرسة الافلاطونية الحديثة فى محاولة التوفيق بين أفلاطون وأرسطو مع ميل إلى الأفلاطونية وقد حمل لواءها آخر كبار الفلاسفة فى الزمن القديم وهو افلوطين ٢٠٥ — ٢٧٠ م

كان هدف أفلاطين من المدرسة أن تكون نبراسا يهدى النفوس إلى التقوى والصلاح والخير . فكان يصرف تلاميذه عن الاشتغال بأمور الدنيا ، ويحملهم على حياة من الزهد ونوصل إلى شفاء النفس بالتجرد عن جميع العلائق واماتة سائر الشهوات . وكان هو نفسه مهملا أمر جسده محتقرا اياه ، ممتنعا عن أكل اللحوم . وقد استهوت هذه التعاليم كثيرا من التلاميذ حتى

أن « روجاتيانوس » عضو الشيوخ نزل عن أملاكه وأمواله وعبيده والقابه، وسار فى طريق الزهد حتى أصبح لا يأكل إلا مرة واحدة كل يومين. وكان للناس – رجالا ونساء – فيه اعتقاد عظيم حتى أنهم عندما كانت تحضرهم الوفاة يعهدون بأبنائهم وبناتهم . وما يملكون إلى رعايته ووصايته ، فكان منزله يعج بالصبيان والبنات وكان لذلك يقوم بتعليمهم الأدب والشعر ، ويأخذ بيدهم إلى طريق الفلسفة . ويحتفظ بأموالهم لا يمسها حتى يبلغوا مبلغ الرجال وسن الرشد .

كان أفلوطين plotinus منشىء المدرسة الأفلاطونية الحديثة Neoplatonic School مولعا بالفلسفة الهندوكية ، وهذا هو السبب فى أنه صاحب (غورديان) Gordion فى مهماته العسكرية ضد ساجور (ملك إيران) فى عام ٢٤٢ م لكى تتيح له الفرصة للاتصال الشخصى بالهنود من مدارس وحدة الوجود والبهاكتية واليوجية . وادخل مبادىء هذه الفلسفات كلها فى الافلاطونية الحديثة. ولذلك تجلت فلسفته فى صورة مشابهة للبهاكتية واليوجية ووحدة الوجود ، واستطاع تفسير الروح على الطريقة الهندية بأنها تنحل فى النهاية فى القوة الحقيقية المطلقة العالمية وهو الله .

كذلك تاثر بالبوذية والجينية ومن جراء ذلك امتنع عن ذبح الحيوانات وأكل لحومها .

معالم الحضارة البوذية والهندوكية

لم تكن توجد العمارات والمعابد والتماثيل والصور فى عصر بوذا ، ولذلك لم يصنع أحد لبوذا تمثالا فى عصره أو صورة له ، بل لم يشهد هذا العصر الفنانين الذين يستطيعون الحفر والنحت مطلقا بل هناك دلائل تشير إلى معارضة بوذا لجميع أنواع الفن والتصوير والزخارف لأنها تعارض تعاليمه التى تدعو إلى البساطة والزهد فى الحياة. لأن مثل هذه الأدوات الحضارية لا يمكن توافرها لجميع الشعب . ولذلك كانت العمارات بسيطة ، تشيد باللبن المجفف بالشمس .

وفيما يتعلق بتذكار بوذا فقد احتفظوا بالأماكن التى ولد فيها ، والشجرة التى نال تحتها النور والضياء ، وشجرة بيبل وزهرة اللوتس ، وكل ذلك كان رمزا لقداسته ، كما وضعوا تذكارات لحواريه الذين إلتفوا حوله ولازموه على الدوام فى كل مكان . ولم يكن النحاتون فى عصره يستطيعون نحت أو حفر صورة وما يستطيعون إلا الكتابة وحفر الأسماء فقط ، ولذلك وجدت أسماء بوذا وحواريه منحوتة كما وجدت اسماء كثير من الآلهة دون وجود صور أو تماثيل لهم .

وقد وجدت أوائل النماذج للفن البوذى فى كارلى التى تقع على مقربة من بومباى من ناحية الهضبة الغربية . فقد ازدهرت هذه المدينة ودخلت التاريخ منذ عصر أشوكا . وقد شيدت فيها أوائل نماذج للمعابد البوذية خلال القرن الثانى قبل الميلاد بمنتهى البساطة دون ظهور لون من الألوان الحضارية وزخارفها عليها وذلك وفق العقيدة الهينا يانية التى نشرها أشوكا ، تلك التى تعرض بوذا كبشر ومصلح عظيم . ولم يعرض بوذا فى هذه الآونة فى صورة إله متجسد فيه فشنو ، كما عرضته العقيدة المهايانية فيما بعد . إن معبد كارلى يقع على قمة جبل ، ويبدو بناؤه من خلال أعمدته كأنه قناطر ، وكل ذلك فى منتهى البساطة . وكان الرهبان البوذيون يعتكفون فيه قبل ألفين سنة . وبمقابل هذا المعبد البوذى العتيق قد شيد أيام مجد الحضارة الهندوكية معبد آخر للاله سيفا ، وفيه فرجه منصوبا فى صورة أكليل من الزهور ، وذلك رمزا للخصوبة . ومن الجدير بالذكر أننا لا نجد فى هذا المعبد تمثالا لبوذا ، بل انما نجد رموزه على عدة صور وأشكال .

الفاندارا مدرسة الفن المعمارى البوذى الجديد

ولما التقت الحضارات العالميه كلها فى ساحه الشرق الأوسط والهند عقب غزوات الاسكندر وانتصاراته ، امتزجت ثقافات هذه البلاد كلها فى شتى المجالات وأبرزها الفن المعمارى وصناعة التماثيل والنحت .

وقد اشتهرت كل من مصر والعراق فى اصالتهما فى الفن المعمارى والفنون الجميلة كلها منذ القدم ، ثم تجاوبت معها جميع البلدان فى الشرق الاوسط . ومن المعروف ان الهند قد تخلفت فى هذا الميدان منذ سقوط حضارة نهر الهند واستيلاء الآريين على مقاليد الامور فى البلاد . ولذلك ظهرت بوادر الفن المعمارى فيها منذ عصر شندرغبت موريا ٣٢١ — ٢٩٧ ق . م ، ثم تطورت هذه الفنون ، ودخلت فى تطور جديد منذ عصر اشوكا (٢٧٣ — ٢٣٢ ق.م) ، ذلك الذى استخدم الصخور لصناعة اعمدة الدعايات والاعلام منها ، ونحت تعاليم بوذا على هذه الأعمدة باللغة البالية وبالحروف الفينقية (لغه سوريا ولبنان السامية) . ومن المعروف أن البهو القصرى العظيم الذى شيده جده كان على غرار بهو ملوك ايران . وبهذا يمكن أن يكون قد اشتغل فى بلاطه صناع ايران واليونان ومهرتهما . ولكنه منذ سيطرة العنصر اليونانى على مناطق الحضارة فى الهند وامتداد نفوذهم الى بحر قزوين من جهة ، والى الصين من جهة أخرى حدث اتصال دولى بين هذه البلدان ، وتبعا لذلك ظهرت فنون ممزوجة تحمل صفات حضارات هذه البلدان كلها ومميزاتها ، ونعنى بذلك حضارات الشرق الاوسط واليونان ، ثم الرومان والهند والصين . ولكن الصبغة الهندية واليونانية كانت غالبة عليها . وهذا المزيج من الفنون يتضمن الطراز المعمارى وصناعة التماثيل والنحت والتصوير وسمى « الغاندارا » (Gandara) . وفى اثناء عملية الاحتفار فى « تاكسيلا » على نهر الهند قد لوحظ أن أثر اليونان فى هذه الفنون كان عميقاً جدا .

ويمثل أعظم تقدم فنى فى تمثال « بوذا » الذى قام بصنعه كل من مهرة الهند واليونان الفنيين . وبهذا تركزت المهارة الهندية واليونانية وعبقريتهما فى بوذا وآثاره ، لأن كلاهما كانا يقدسانه إلى أقصى الحدود ، وهما اللذان نشرا البوذية من الصين إلى الشرق الأوسط .

وعلى ضوء هذه الحقائق يكون الفن الغاندارى قد ظهر منذ القرن الأول قبل الميلاد ثم تطور وبلغ أقصى غاية النضج والكمال فى عام ٢٠٠ م .

تطور فن الغاندارا

لقد ظهر فن الغاندارا بالمعنى الحقيقى منذ عصر الدولة الكوشانية . وفى أثناء الحفريات فى تاكسيلا عثر على إفريز مزخرف بأنواع من الزخارف ، وتلوح فيه آثار اليونان بكل وضوح . ولكن الغاندارى يطلق على تمثال بوذا الذى صنعه كل من الفنانين الهنود واليونانيين . وبهذا يختص هذا الفن باليونان والهند فقط ، ومع أن الفنانين الإيرانيين والعراقيين قد ساهموا فى هذا الفن . وبانتشار البوذية فى أنحاء العالم قد انتشر هذا الفن ، وانتقل إلى بلدان الشرق الأوسط إلى غاية بحر قزوين والبحر الأسود من جهة ، وإلى الصين واليابان وسيلان من جهة أخرى . ومن المعروف أن أصالة الفن الغاندارى لا يمكن استمرارها بسبب هذا الانتشار والشيوع الذى ناله هذا الفن فى أنحاء العالم ، ومن هنا كان محتما أن يمتزج هذا الفن بالطوابع المحلية لكل هذه البلاد ويمتص مميزاتها ويظهر بشكل ممزوج جديد ، تذوب فيه أصالة الهند واليونان .

قد صنع أول تمثال لبوذا فى الدونة الكوشانية . يرتدى بوذا فى هذا التمثال كساء الرهبان العادى . ولكنه بعد تقدم فنون النحت والتماثيل عرض بوذا فى غطاء فضفاض أنيق ممتاز ، وهذه الظاهرة واضحة المعالم فى التماثيل التى صنعت له فى الصين . كان تمثال بوذا فى الدولة الكوشانية قد حفر على صخرة حمراء .

ماثورا

تقع ماثورا (Mathura) فى شمال الهند بالقرب من « آغرا » موقع التاج محل . وقد عرفت هذه المدينة منذ القدم ونالت شهرة فائقة ودخلت فى الأساطير بسبب كونها مسقط رأس «كرشنا» صاحب الجينا . ولم يزل فيها صنم لإله دراويدى قديم ذى شعر أزرق .

لقد انضمت هذه المدينة منذ القرن الثانى قبل الميلاد إلى الامبراطورية

الموريّة التى أنشأها أشوكا . ومن هنا انتقل الفن الغاندارى من الدولة الكوشانية وتطور تطورا كبيرا . وقد حفرهناك تمثال بوذا بصورة متقدمة وفى حجم كبير وعلى صخرة طويلة ، الأمر الذى يدل على تقدم صناعة التماثيل فى هذه المدينة على أيدى الصناع المهرة . ولكنها مع ذلك لم تصل إلى مستوى كبير فى الصفاء والنعومة ، لأنها لم تزل فى طور متوسط ، إذ لم يصل إلى القرن الثالث الميلادى . وهذه النماذج هى التى نالت التقدير فى عصر غبتا منذ القرن الرابع الميلادى ، ثم تقدمت تقدما ملحوظا فيما بعد .

وكذلك نحتت فى ماثورا آلهة تشبه حوراء فى جمالها وفى منتهى الرقة والدقة ، ولايظهر جسمها النحيف إلا إلى حقوها فقط ، وذلك على الأعمدة والحواجز . وهذه عينات رائعة تمثل دقة فن النحت ورقته ورشاقته وجماله .

ويوجد فى هذه المدينة معبد بوذى شيد فى القرن الأول الميلادى . ولكن مما يأخذنا الدهشة أننا نجد على المعبد تضاريس كبيرة وهى عبارة عن نقش منحوت للإلهة الهندية القديمة عارية المنظر ، مكشوفة الفرج مثيرة للشهوة والغرائز الجنسية ، بارزة الثدى ، قائمة على إنسان ، شكله كالخنزير ، تتدلى من يد عناقيد العنب ومن الأخرى إناء الخمر ، ويقترب منها رجلان فى غاية الشهوة لمعانقتها وهى على شرفة ويحاولان مداعبتها ومغازلتها . ولاندرى كيف دخلت هذه الإلهة المثيرة للغرائز الشهوانية فى معبد بوذى مقدس ؟ ومن المحتمل جدا أن الدراوديين فى هذه المنطقة لما إعتنقوا البوذية أدخلوا آلهتهم القديمة فى العقائد البوذية وطقوسها ، وبهذا ظهر فى هذا القرن خليط من الديانة البوذية والدراويدية التى طغى عليها الطابع البوذى .

لقد دخلت هذه المدينة فى حوزة إمبراطورية أشوكا فى البداية ، ثم إنضمت إلى الدولة الكوشانية وأصبحت عاصمتها فى فصل الشتاء

لوحة (٢٨)
تمثال بوذا المصنوع خلال القرون الثانى
ـ الخامس الميلادى وفق الفن الغاندارى

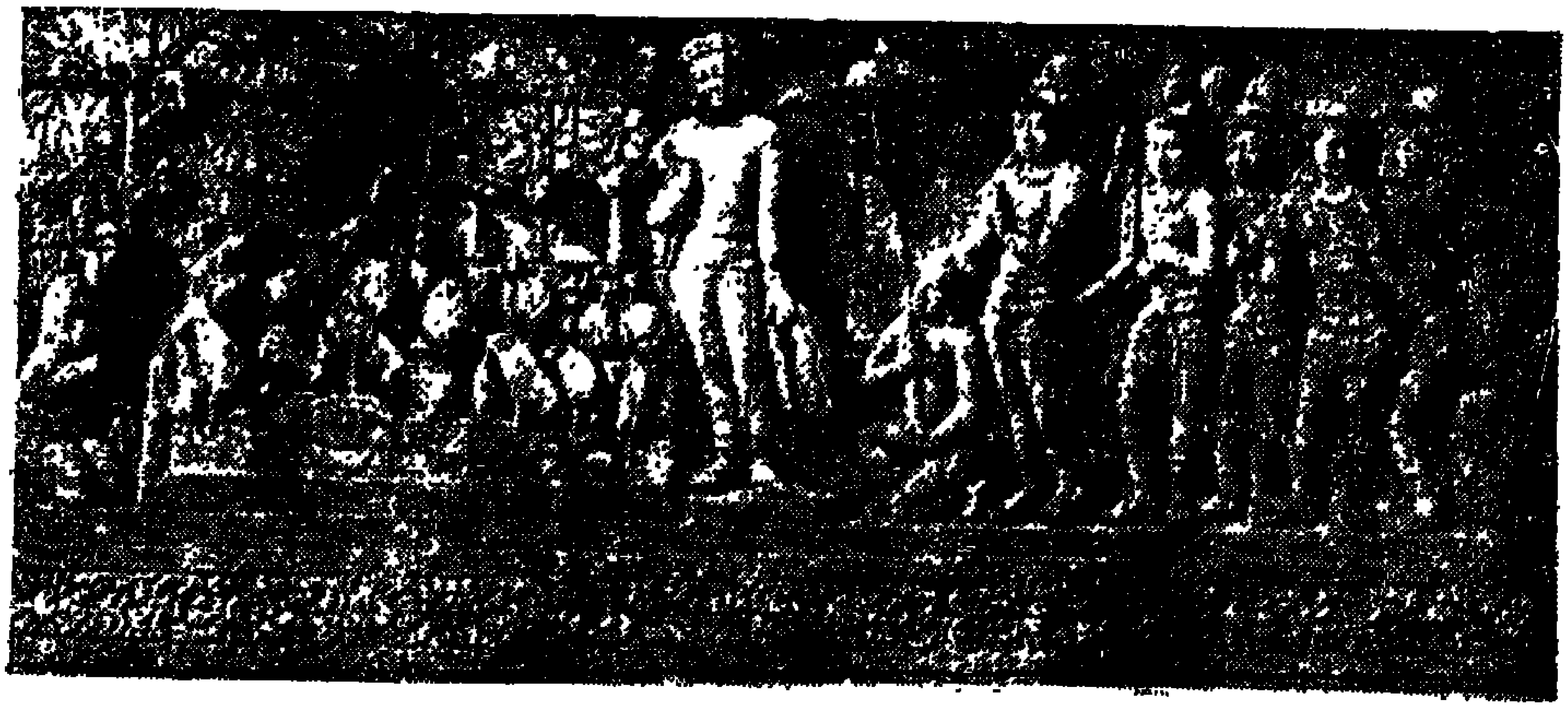

لوحة (٢٧)
بوذا يستحم ويغسل ثيابه فى نهر نرنفانا بعد
جهاد نفسى شاق استمر ست سنوات ، ثم يتجه الى الشجرة
التى اعتكف فى ظلها حتى حصول النور والمعرفة (تمثال من جاوا)

بسبب مناخها الجميل فى ذلك الحين . ومن هنا إمتزجت فيها الفنون الهندية والإغريقة ، وظهر مزيج من هذ الفن المتقدم ، الذى نعتقده بدون شك — صورة متطورة ومتقدمة للحضارة الكوشانية . وقد ظلت هذه الحضارة تنمو وتزدهر قرابة خمسة قرون ، أى منذ القرن الأول الميلادى حتى القرن الخامس الميلادى .

وتمثل العقيدة المهايانية البوذية فى جميع هذه الفنون ، كما أنها دخلت فى مرحلة التقدم والازدهار فيما بعد بسبب رعاية غبتا الذى كان من أعظم الملوك الهنود . ويجرى فى هذه المدينة نهر الجمنا الشهير ، ويقع على شاطىء مقابل لهذه المدينة وعلى مسافة ستة أميال منها مدينة تاريخية أخرى تسمى « برندابان » . وهى مسقط رأس « كرشنا » ومرتعه فى صباه . وهنا ظهرت معجزاته التى تنسبها إليه الأساطير . وقد ظهرت هذه المدينة منذ بداية العصر الآرى فى التاريخ ، ثم نالت إعجاب الناس بسبب صلتها بكرشنا ، وأخيرا إحتضنت البوذية وتراثها الحضارى . ولكننا لانجد الآن فى هذه المدينة إلا أطلال معابدها القديمة .

وبالإضافة إلى هذه المدن إزدهرت مدن كثيرة على وادى نهر الهند بفضل البوذية وانتشارها . إن المبانى البوذية المبنية بالطوب فى وادى السند على الرابية — وهى انقاض واطلال حضارة موهنجودارو وهارابا — يرجع تاريخها إلى القرنين الثانى والثالث الميلاديين . وخلال هذه الفترة إزدهرت المبانى والعمارات بصورة متطورة جدا . وعلى جوار هذه المبانى تقع أماكن مقدسة حيث كانت تؤدى المراسيم الدينية .

سانشى

ثم إنتقل مركز الفن الغاندارى إلى « سانشى » (Sanchi) وسط الهند بالقرب من بهوبال . وهنا شيدت النماذج الأولى للهياكل

البوذية أو معابدها التى سميت إستوباس (Stupas) أوشايتيا (Chaitya) لأداء العبادات والطقوس وعقد المجالس والندوات . وفى نماذج لمعبد من هذه المعابد تلوح لنا بوضوح الفن الرومانى. وكذلك إحتفظت لنا هذه المدينة بأول نموذج للمعبد الهندوكى . ويتراءى لنا من رؤية هذا المعبد أوأعمدته أنه قد شيد على الطراز الرومانى خلال القرن الرابع الميلادى ، وفى بداية عصر غبتا . وبعد مرور الزمن على هذه النماذج بدأت تتجلى العبقرية الهندوكية فى معابدها الشاهقة وهياكلها الناطحة السحاب . لقد تطورت المعابد الهندوكية منذ نهاية القرن الرابع الميلادى ، وبلغت القمة فى القرن الخامس الميلادى ، وتشبه معابدها فى هذه الآونة صورة مكعبة الشكل وعلى رأسها آلهة قديمة وشرفة عالية مثل البرج ، والطرق المنحنية حول المعبد ويتخللها أحيانا طريق ضيق وعليه سقف منحن .

وهنا إستطاع الفن الغاندارى أن يدخل فى طور جديد من الإبداع والإتقان ، وخلق ذاتيته . ولذلك لانكاد نرى ملامح اليونان فى آثارها البوذية.

الآثار البوذية الأخرى والعملات

وعلى المناطق الممتدة من السند إلى داخل فتحات هندوكوش عثر علماء الأحفار على عملات وآثار بوذية تمثل أوائل نماذج الفن الغاندارى وعيناته الأولى ، وإن تاريخها يرجع من عام ١٠٠ ق.م إلى عام ٢٠٠ م . ويبدو أن هذه العملات قد سكها اليونانيون . وكذلك نحت هؤلاء التماثيل للشخصيات البوذية العظيمة مبتديا من بوذا ومنتهيا إلى حواريه واشهر الرهبان والأولياء من أتباعه الذين ظهروا خلال هذه القرون . ومن الجـــــدير بالذكر أن

لوحة (٢٩)
معبد بوذى فى سانشى

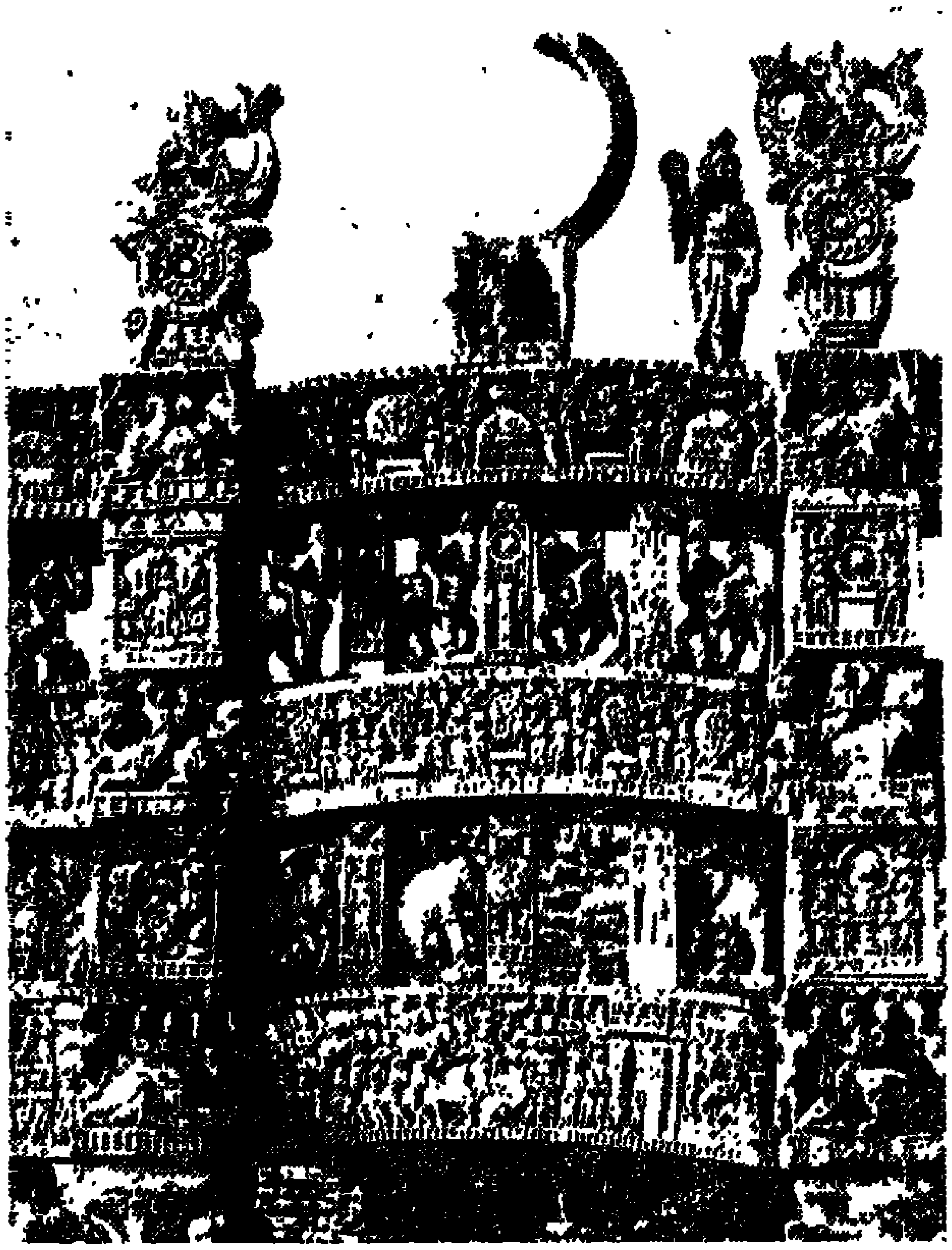

لوحة (٣٠)

ـ البوابة الشمالية من هذا المعبد . وفى الافريز الأول نرى شجرة مقدمة ترمز الى وفاة بوذا وحصوله على المعرفة تحت ظلها . وعلى يمين الافريز الأسفل نرى عجلة وهى رمز الوعظ الاول لبوذا الذى يعتبر بمثابة القوانين البوذية . وعلى الشمال نجد الهة لاكشمى بين الفيلين وهما يرشان عليها ماء نهر الجنجا المقدس . وبهذا يشير هذا المعبد الى خلط بين العقائد البوذية والهندوكية .

اليونانيين قد استوطنوا هذه المناطق منذ فتحها الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنهم سرعان ما اعتنقوا البوذية وامتزجوا بالفكر الهندى وتراثه ، وكما انتشر التزاوج والتناسل بين العنصرين الهندى واليونانى ؛ الأمر الذى أدى إلى ظهور نسل خليط من هذين العنصرين ومميزاتهما ؛ وإن كان الطابع اليونانى واضحا على ملامحهم بسبب الاتصال الوثيق المباشر الذى تم بين هذه المناطق واليونان خلال هذه القرون الثلاثة. ومن هنا لا يصح نسبة هذا الفن إلى اليونان كلية ، وإن كان دور الهند فيه يسيرا ، بسبب تخلفها فى الفنون الحضارية منذ نزوح الآريين إليها .

وتلوح للباحثين – فى نفس الوقت – ملامح الهند والصين واضحة بصورة ملموسة خلال بعض الآثار البوذية من هذا النوع والتى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادى . والسبب فى ذلك انتشار البوذية فى أنحاء هذه البلدان من جنوب شرق آسيا واتخاذها الصبغة الرسمية فيها ، وعناية ملوك الكوشانية بهذه الفنون ، وذلك على الرغم من ميولهم الشديدة إلى النواحى التجارية والاقتصادية ، وذلك لجلب المنافع المادية والرفاهية الشاملة لبلادهم وتطويرها فى هذا المجال إلى أقصى الحدود .

كانت سيلك (Silk) فى شمال الكوشانية حلقة الاتصال بين الحضارة الكوشانية والصين من جهة ، وبينهما وبين إيران والعراق وآسيا الصغرى إلى غاية البحر الأسود من جهة أخرى . وعلى هذا الطريق وصل الفن الغاندارى إلى الصين ومنطقة الشرق الأوسط .

أغوار اجنتا ومعابدها

تقع أغوار اجنتا (AJanta) على مسافة سبعين ميلا من مدينة أورنغاباد فى وسط الهند من ناحية الهضبة المنحدرة المائلة كالأفعى من خلال الوديان الضيقة وتتخللها المناطق القفراء الصحراوية التى تشير إلى وجود عمران عظيم فى هذه المنطقة قبل بضعة قرون . وأن بعض معابدها تشير إلى أنها قد شيدت فى أوائل القرون الميلادية ، ولكنها ارتقت إلى القمة منذ القرن الخامس ووصلت إلى الذروة فى القرن السادس الميلادى.

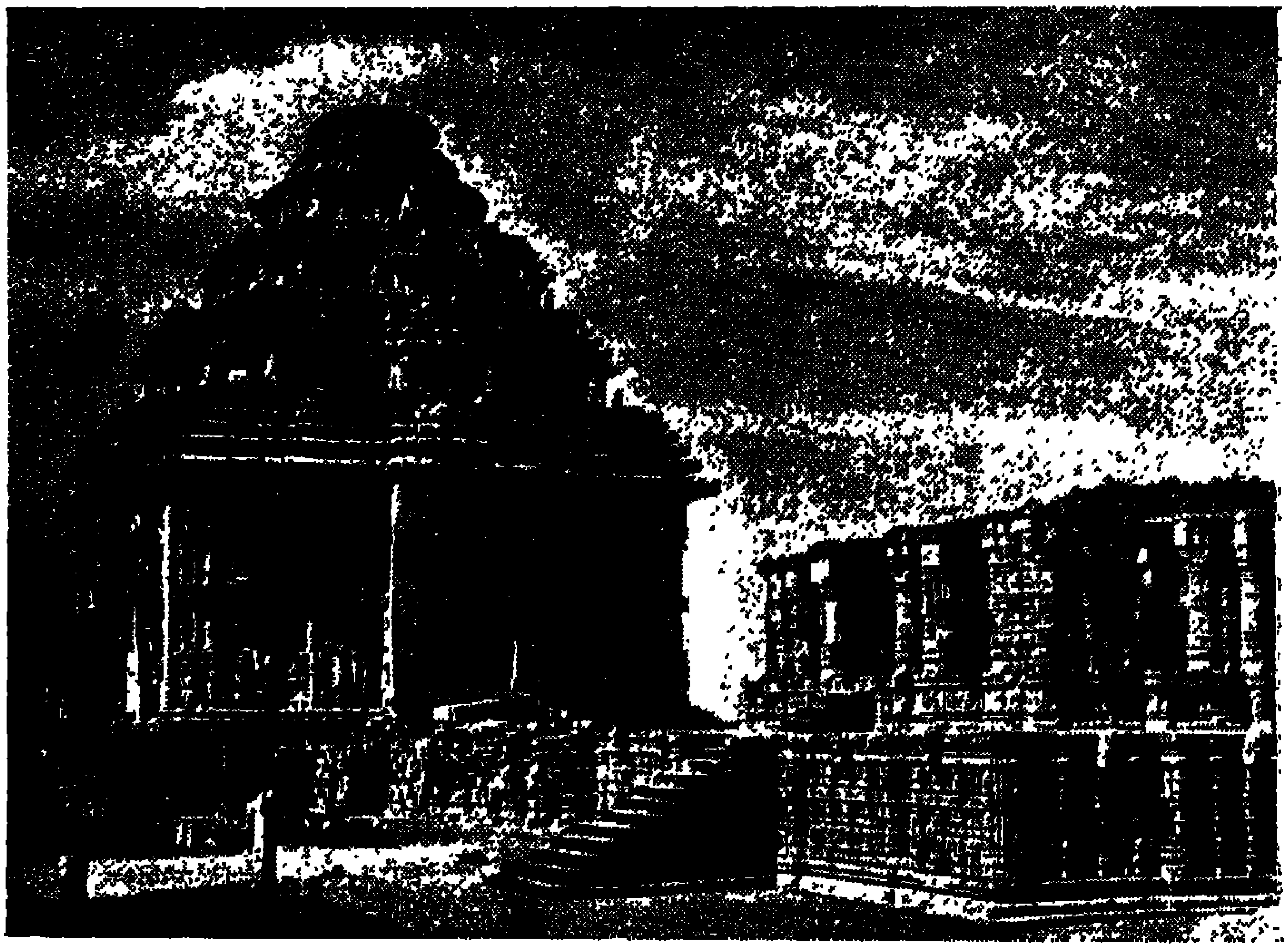

لوحة (٣١)
معبد الشمس فى كورانات

لوحة (٣٢)
تمثال بوذا صنع حديثا فى معبد
« لينغ اين » بالصين بارتفاع
يبلــغ ٩ أمتار تقريبا .

لوحة (٣٣)
معبد بوذا شيد حديثاً
فى بكين بالصين

ولعلها بدأت تأخذ مكانتها الخطيرة فى التاريخ البوذى بعد « شانشى » مباشرة ، ثم وصلت منها فنونها العظيمة الخالدة إلى أغوار « الورا » التى تليها مباشرة .

إن الفن المعمارى فى هذه المعابد التى حفرت فى الصخور تدل بوضوح على أنها تمثل العقيدة المهايانية البوذية الأولى . وفيها بهو عظيم فخم شيد للعبادة والطقوس ، يشد أنظار المشاهدين من آفاق الهند لرؤيته والوقوف أمامه إعجابا وتقديرا .

وأما النقوش المحفورة فى هذه الأغوار والصور المنقوشة على جدران معابدها والتماثيل المنحوتة فى كل جانب فهى تصور المواهب العظيمة والعبقرية الفذة فى التصوير للفنانين الهنود . لقد سجل كثير من الرحالة انطباعات مشوقة ومغرية للغاية بعد مشاهدتهم الألوان والجمال فى هذا النحت والرسم تلك التى تشد أوتار القلب ، وتثير العواطف والوجدان وتعزف فى النفوس نغمات موسيقية حلوة ، وتدفع المواهب الشعرية للانفجار والتدفق .

ومن ناحية أخرى فإن هذه المعابد فى هذه الأغوار من هذه المنطقة القفراء تثير إعجاب الباحثين ، لأننا لانجد ما يدل على قيام دولة بوذية فى هذه المنطقة إطلاقا . ولعل التفسير المقنع فى هذا الصدد أنها كانت تقع فى طريق الحج للبوذيين ، كما أنها عاشت فى ظل الدولة البوذية لمدة سبعة قرون ، تلك التى قامت فى عصر أشوكا ، ثم تفككت عراها فى صورة دول الطوائف واستمرت على ذلك ردحا طويلا من الزمن .

إن بوذا لم يعرض فى هذه المعابد فى صورة فخمة وفى مظهر مادى ممتلىء بحياة البهجة والزخارف ، كما عرض فى الفنون الغاندارية التى ظهرت بعد اجنتا . بل عرضت حياته فيها على ضوء العقيدة المهايانية فى منتهى البساطة والسذاجة . وأن تماثيله فيها هى الأخرى بسيطة للغاية ، لا زخارف فيها ولا روعة فنية ولا فخامة ولا إبداع .

أغوار الورا ومعابدها

إن أغوار الوراء (Ellora) الواقعة فى وسط الهند من ناحية الغرب تمثل أروع آيات الفنون البوذية وقمة مجدها. وفى هذه الأغوار حفرت الصخور لتشييد معبد بوذى فخم ومعابد أخرى كثيرة يبلغ عددها ثلاثين معبداً. أما أقدم معبد فيها فقد شيد خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين. ولعل هذه المعابد تعد مرحلة متطورة ومتقدمة للفن الغاندارى العظيم الذى ارتقى مدارج العلى فى «سانشى» حتى القرن الخامس الميلادى. وهنا امتزجت البوذية المهايانية بالحضارة الدراويدية المزدهرة وآلهتها الشهيرة سيفا وفشنو وآلهة الآريين مثل براهما وفسفاكارام (Visvakaram) — إله الصناعات والفنون المعمارية — ولذلك تلوح لنا البوذية فى هذه الأغوار ممزوجة بالعقائد الدراويدية والآرية، واحتلت هذه الآلهة مكاناً بارزاً فى المعابد البوذية.

ولعل سببه فى نظرنا أن عصر غبتا الذهبى منذ القرن الخامس الميلادى قد أثر فى الديانة البوذية إلى أقصى مدى. لأن الهندوكية استعادت قوتها فى هذا العصر وتجلت فى أبدع المظاهر وأروع الصور وبروح متسامحة جداً؛ وقد أصبحت البوذية فى مثل هذه الظروف مضطرة للتجاوب مع الديانة الهندوكية ولذلك ظهر تراثها الفكرى بهذه الصورة الممزوجة.

وإن معظم المعابد البوذية قد شيدت بالصخور، وتبدو لنا من أول وهلة أنها كتل من الصخور المنحنية والمائلة إلى الأرض، ولكن معابد الورا بالذات قد حفرت فى جبل منحن بدلا من الصخور. ومن هنا تلوح لنا هذ المعابد — إذا ألقينا نظرة عليها من فناء الدار — إنها تكاد تختفى تحت سطح الأرض، وينبغى لمشاهدتها الصعود إلى الشرفة من أسفلها. وعلى واجهة هذه المعابد وعلى جدرانها وأعمدتها نجد حياة الآلهة محفورة بكل عناية.

وفى معبد هنا يسمى « دومارلينا » نرى أربع قاعات كبرى ، تبدو فى اجتماعها على شكل الصليب . وهذا المعبد قد بنى تكريماً للإله سيفا القديم ، وأن واجهاته العديدة تشكل صورة رائعة لرقص الباليه المشهور فى عصرنا من حيث الروعة والجمال والإبداع . وهذاأروع مارسمه يراع الكهنة الآريون فى إبان مجد حضارتهم فى عصر غبتا .

ولكن معبد «كايلاسا » (k ailasa) يمثل قمة الفنون الهندية المعمارية والحفرية والنحتية فى ذلك الحين ، وليس هذا الصخر يمثل جزءاً من المعابد ؛ بل هو معبد كامل حفر فى جبل . وأنه قائم على أرض يشبه الزاوية المستطيلة ، غارقا فى باطن الأرض ، يبلغ عمقه مائة قدم . وهذا المعبد أيضا يمثل العقيدة المهايانية البوذية الممزوجة بالأفكـــار الآرية والدراويدية ، ويحتضن تماثيل الآلهة . وقد استغرق حفر هذا المعبد على هذا الجبل الشاهق مدة قرن أو أزيد منه بقليل ، ورفع من تحت هذا المعبد مايقرب من ثلاثة ملايين قدم مكعب من الصخور ؛ وأن جميع أعمدته وجدرانه وأجنحته وسقوفه وسرادقه قد حفرت فى الصخور الهائلة فصار كالطود العظيم . ولم يبن معبد عظيم من هذا النوع فى تاريخ الهند فيما بعد. وإن داخل المعابد يسودها الظلام فى بعض الأماكن بسبب ضخامة سقوفها الصخرية ، ولذلك يضطر الانسان إلى إشعال شمعة لإلقاء نظرة فاحصة على روعة هذه الصناعة وتقدمها المذهل فى الصخور والجبال .

ويبدو أنه قد أنشىء عليه فيما بعد برج شاهق جداً . ومن المعروف أن الأبراج العالية لم تزل تعتبر رمزاً خالداً للمعابد الهندوكية ، وهى تشبه فى مظهرها البروج فى الكنائس الأوربية ببعض الوجوه .

اليفنتا

إن اليفنتا (Elephanta) جزيرة تقع على مسافة ستة أميال من بومباى فى الهضبة الغربية من ناحية الجنوب .وتصون بومباى من العواصف الخطيرة

لبحر العرب والتى تعصف على ساحل بومباى . وقد صارت هذه المدينة مركز الإله سيفا وهو إله حضارة نهر الهند منذ القدم : وفى القرن الثامن الميلادى قد وجه أمراء « راشتراكوتا » (Rashtrakuta) عنايتهم الخاصة إلى هذه الجزيرة ، وحفروا معبداً كبيراً فى الصخور الموجودة فيها لتبدو شبيهة بأغوار اجنتا والورا . لقد أفل نجم البوذيين فى هذا العصر واندثرت دولهم فى أنحاء البلاد ، واستعادت الديانة الآرية قوتها ومجدها مرة أخرى ، ولكن آلهتها الآرية مثل برهما وإندرا قد فقدت مكانتها فى هذه الآونة ، واستعيد مجد الآلهة الدراويدية ، ولا سيما فشنو وسيفا ، وحلت محل الآلهة الآريين ، ولذلك تعتبر معابد اليفنتا ، تمجيدا لهذه الآلهة القديمة . ومن بين كثير من المعابد المحفورة فى هذه الجزيرة لم يستكمل بناؤها الكامل إلا معبد واحد فقط وهو « غانيش غبتا (Ganesh Gupta) ويضم هذا المعبد بهواً فخما يغطى مساحة أربعين متراً مربعا .

ثم انتقل هذا الفن المعمارى إلى ولاية أوريسا فى القرن الثامن الميلادى ، وظل يتطور فيها إلى القرن الثالث عشر الميلادى . وقد شيدت فيها ٣٥ معبدا فخما خلال هذه القرون تمثل أروع فن معمارى فى الدقة والروعة والجمال . ومن أهم المعابد فيها معبد شيد فى مدينة « بهونسوار » .

وكذلك يعتبر معبد الشمس فى « كوناراك » من أعظم المعابد فيها :

وكذلك انتقل هذا الفن منذ القرن الثانى الميلادى تقريبا إلى جنوب الهند واشتهرت مدينة امراواتى فى هذا المجال بعد أن صارت مركز الديانة البوذية فى هذه الفترة من الزمان . وقد حفرت نقوش رائعة على المعابد البوذية فيها فى منتهى الرقة والدقة والجمال والنعومة .

لوحة (٣٥)
الاله سيفا وباروائى زوجته فى معبد الورا

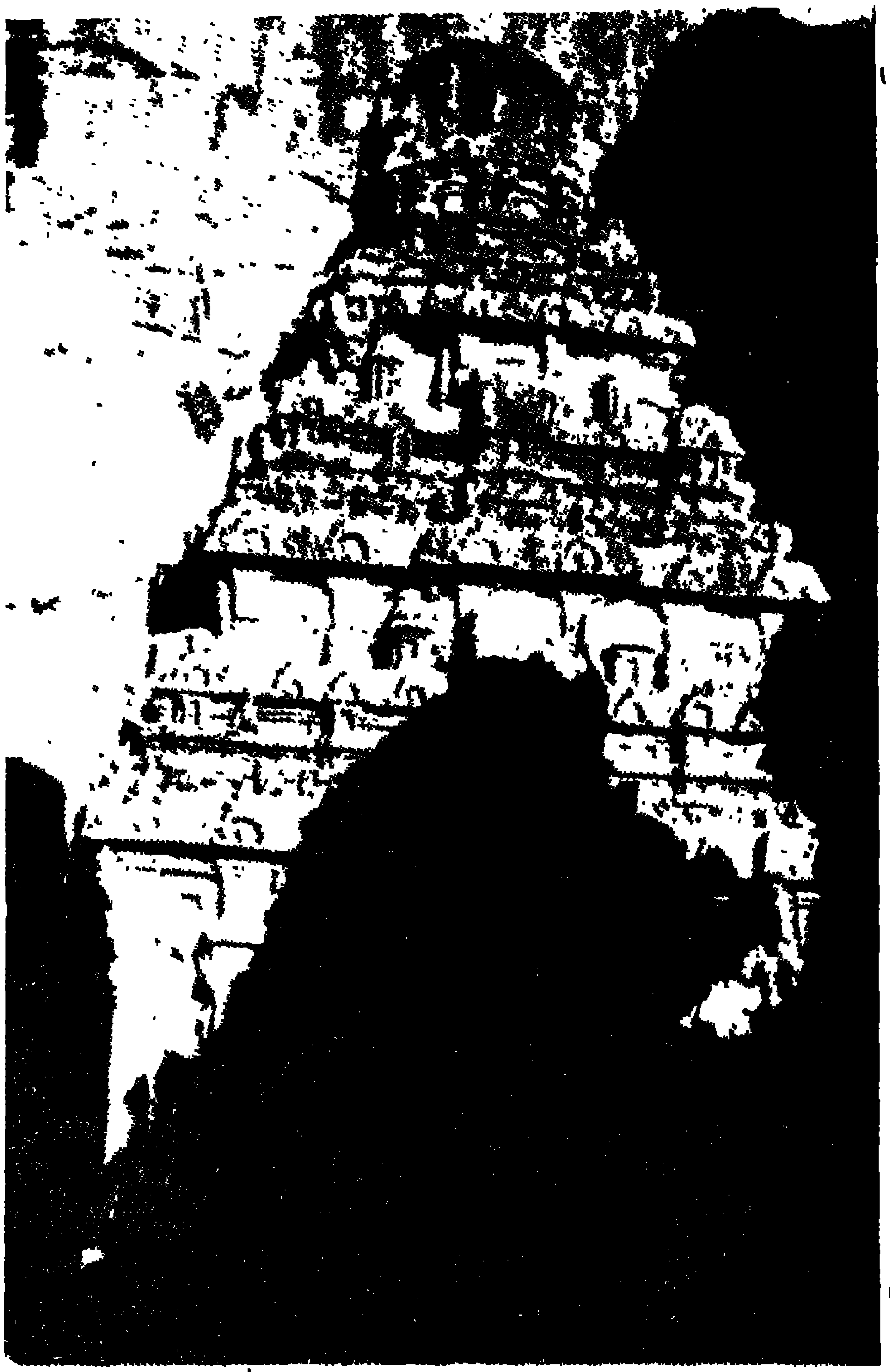

لوحة (٣٤)
معبد كايلاسا فى اغوار الورا

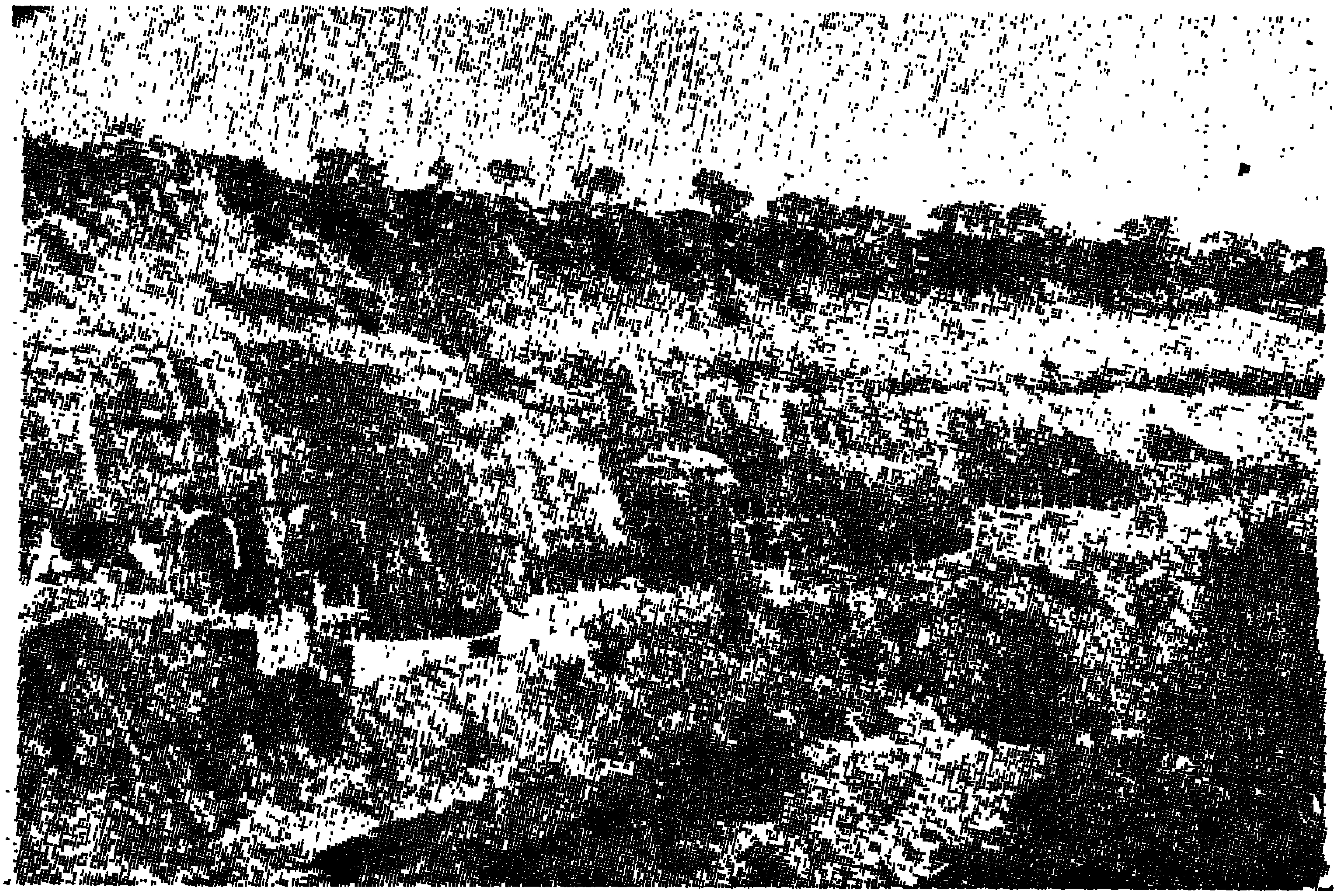

لوحة (٣٦)
أغـــوار أجنتـــا

بنـــارس

وقد ظهرت بنارس (الواقعة فى اتاربراديش) فى التاريخ فى القرن الثامن قبل الميلاد حينما دخلت الهند الآرية فى الطور المدنى والحضارى لأول مرة، ثم تحددت معالمها منذ قيام الدولتين الكبيرتين أولا ها « كوسالا » فى ولاية اتاربراديش وثانيهما « مجدا » فى ولاية بيهار . وقد القى بوذا أول وعظه فى هذه المدينة . ومن هنا نالت هذه المدينة مكانة التبجيل والتقديس لدى الهندوس . ومما زاد من قدسيتها لدى الهندوس أن نهر الجنجا المقدس يجرى وسط هذه المدينة ، وعلى شاطىء هذا النهر شيد اعظم معبد هندوكى فى القرن الثامن عشر الميلادى : وبهذا تكون هذه المدينة قد نالت اعجاب الهندوس وتقديسهم من حيث المعالم الحضارية خلال القرون الأخيرة فقط. وقد اصبحت هذه المدينة منذ ذلك الحين كعبة الهندوس وقبلتهم حيث يتوجهون إليها من كل فج عميق من الهند لإداء شعائر الحج وفق التقاليد الهندوكية .

عصر شندرغبتا موريا الذهبى
(٣٢٠ — ٥٧٠م)

وهذا «شند راغبتا موريا الأول » Chandra Gupta Maurya الذى ارتقى العرش فى عام (٣٢٠—٥٧٠م) وهو شبيه جدا بسلفه شند راغبت موريا (٣٢٢— ٢٩٨ ق. م .) المذكور من قبل ذلك الذى رفع مكانة الهند إلى القمة فى العلوم والفنون . وهذا الملك العظيم الذى نكتفى من الآن بذكر جزء من اسمه وهو « غبتا » — كما تعود كثير من المؤرخين الهنود — وكان أعظم ملوك الهند الذين تولوا عرش الهند حتى الآن . وهو الآخر قد أنشأ أعظم امبراطورية فى الهند تشمل معظم اجزاء الهند، ولكنه اتخذ « بنغال » عاصمة له ، فى حين اتخذ سلفه « بتنه » فى بيهار عاصمة له ، ثم امتدت رقعة امبراطوريته إلى المناطق الممتدة كلها الواقعـــة على ضفاف النهرين الجنجا والجمنا ، ونعنى بذلك إلى غاية « دلهى » العاصمة الحالية للهند . ولما توفى « غبتا » فى عام ٣٣٠ م خلفه ابنه « سامودرا — غبتا » (Samudra-Gupta)

٣٣٠– ٣٨٠ م) ثم حفيده « شاندرا غبتا موريا الثانى »(٣٨٠– ٤١٥ م).
لقد بلغت الهند خلال قرن قمة المجد وذروة العلا فى جميع المجالات ، واتسعت رقعتها رويدا رويدا من خليج بنغال إلى بحر العرب من ناحية ، ومن الهملايا إلى جنوب الهند من ناحية أخرى ، ولكن المناطق الجنوبية التى تكون الآن ولايات مدراس وميسور وكيرالا وآندرابراديش لم تدخل فى حوزة هذه الامبراطورية مطلقا بل عاشت منفصلة عنها كما سنذكره قريبا .

ولم تكن هذه الامبراطورية الشاملة على غرار الامبراطوريات التى ظهرت فى الشرق الاوسط تلك التى كانت تحكم البلاد كلها مباشرة وتصدر أوامرها من العاصمة لتنفيذها حرفيا ، بل حاول هؤلاء الاباطرة ضم هذه الدول فى صورة فيدرالية تقريبا ، واكتفوا بارغام جميع الملوك الصغار على إعلان الولاء للامبراطورية والاعتراف بالخضوع والطاعة لها على أن يدفعوا لها الضرائب ويرسلوا إليها ممثليهم ، وهم يرحبون بدورهم بمندوبى الاباطرة فى بلاطهم . وما عدا هذه الأمور فإنهم يتمتعون بالحرية الكاملة والحكم الذاتى المطلق داخليا فى حدود مملكتهم كما يشاءون ، دون تدخل من الامبراطورية . وهذا النظام الجديد الذى اعترف بكل من المركزية واللامركزية فى صورة فيدرالية سهلت الأمور إلى أقصى الحدود ، وأزالت جميع العراقيل والموانع عن طريق اتساع حدود الامبراطورية من جهة ، وابقاء الدول الصغرى من جهة أخرى ، وتبعا لذلك اختفت جميع العوامل والبواعث التى تدفع الدول الصغرى إلى التمرد والعصيان وشن الحروب الأهلية والثورات ضد المركز أو الامبراطورية .

وليست لدينا وثائق تدل على ممارسة الاباطرة ضغوطهم على الملوك الصغار وشنهم حروبا شعواء ضدهم لاخضاعهم لسيطرتهم . وليس من المستبعد أنهم قد مارسوا الضغوط وشنوا الحروب ولكنها كانت قليلة للغاية — فيما يبدو لنا — ، وذلك على حسب ما تقتضيه الضرورة ، وفى بداية الأمر فقط :

ولكنهم استطاعوا إعداد جيش جرار قوى اثار المهابة والخوف فى نفوس الملوك الصغار واقنعهم بالاعتراف بالامبراطورية بالطرق السلمية .

لقد ساد الأمن والسلام أنحاء البلاد لأول مرة بعد اشوكا ، واستقر النظام والقرار ، ولم يحدث شيء يعكر صفاء النظام والاستقرار للبلاد عدا حادثة مؤلمة فى عام ٤٦٠ م وهى تعرض البلاد لغارات القبائل البدوية المتدفقة على الشمال والزاحفة من ناحية ايران والتى سميت « افثاليت هونس» (Ephthalite Huns) ، ولكن سرعان ما قضى عليها ووضع الحد لما ارتكبت من الفوضى والقلاقل حتى عاد النظام والسلام .

ومما يثير الدهشة لدى المؤرخين استتاب الامن والنظام فى الهند فى هذه الآونة بالذات فى حين اشتد الصراع والمنازعات فى العالم المعاصر للهند وبصفة خاصة فى الشرق الأوسط والصين . وقد عمت البلوى والفوضى والاضطراب هذه البلاد كلها فى هذه الفترة من الزمان .

وبسبب استقرار الأمن والنظام دخلت الهند أعظم مرحلة علمية فى تاريخ الهند قاطبة . ولذلك اجمع المؤرخون كلهم على تسمية هذا العهد بالعصر الذهبي فى تاريخ الهند قاطبة .

لقد تقدم المجتمع الهندى تقدما كبيرا فى جميع المجالات ومرافق الحياة ، سواء أكان ذلك فى المدن أو القرى . كان الاباطرة يتسامحون إلى أقصى الحدود مع جميع الفرق والاتجاهات والميول والنزعات ، ولم يفرضوا عقيدة معينة على أحد ، ولم يرغموا أحدا على اتباع مذهب فكرى معين . ولذلك تمتعت جميع الملل والنحل بالحرية والمساواة. ومن ناحيةالتنظيم والإدارة فقد كانت الحكومة توفر التسهيلات للفلاحين ولم ترغمهم على دفع ضرائب باهظة ،وكذلك لم يمارس الا قطاعيون الصغار أوملاك الأرض ضغوطاً شديدة على هؤلاء . كانت القرى تتمتع بنفس الحرية والنظام القروى القديم المألوف ولم تكن هناك محاكم ولاقضاء للبت فى قضاياهم ، بل المجالس القروية المنتخبة هي التى كانت تمارس جميع هذه السلطات .

وفى عصر غبتا الثانى زار الهند رحالة صينى شهير وهو « فا ها سيان » (Fa hasien) ذلك الذى أشاد بالهند وأغرق فى ثنائه على الحرية والمساواة والنظم والإدارة والرفاهية فيها .

لقد ظهرت تنظيمات شعبية عديدة فى القرى والمدن داخل المعابد والأديار حتى تتمتع بكامل الحرية فى مناقشة الأمور وإصدار الفتاوى والأحكام بدون أى ضغط خارجى من جهة السلطات الرسمية أو من أية جهة أخرى .

وعلى الرغم من ظهور كثير من الطوائف والفرق لم تنشب بينها الخلافات المذهبية والصراع أو المنافسات ، لأن مثل هذه العوامل قد أخمدت فى مهدها ووضعت قوانين صارمة للقضاء على مثل هذه الأمور وحددت وظائف هذه الأمور وظائف هذه الطوائف بوضوح ودقة .

ويرى الباحثون أن الديانة الهندوكية الآرية قد تحولت فى هذه العصر إلى ديانة عامة وسميت بالهندوكية ، ولم يكن هذا الاسم معروفاً من قبل .

تدوين الشريعة الهندوكية

وعلى الرغم من تسامح أباطرة أسرة غبتا مع جميع الأديان والطوائف كان عهدهم فى الحقيقة عهد ارتفاع لمجد الطوائف الآرية وتقاليدها وديانتها واعلاء شأنها وتمجيدها وتقديسها وعرضها فى صورة جديدة . وبهذا أفل نجم البوذية فى الهند كدين رسمى للدولة وحلت محلها الديانة الكهنوتية الآرية ، ونالت التقدير والاحترام بهيكلها الجديد وملامحها المشرقة بعد إجراء تعديلات على ضوء تطور الأمور والملابسات . ومن هنا صار دين الهند الرسمى لأول مرة فى تاريخها بهذه الصورة التوسعية ، إذ أن الهند صارت فى هذا العصر أكبر امبراطورية لأول مرة فى تاريخ الهند الطويل .

ومن المعروف أن الكنهة قد وضعوا أول كتاب تشريعى فى القرن الثانى قبل الميلاد وهو « مانو — سمرتى » (manu simirti) الذى كان يتضمن

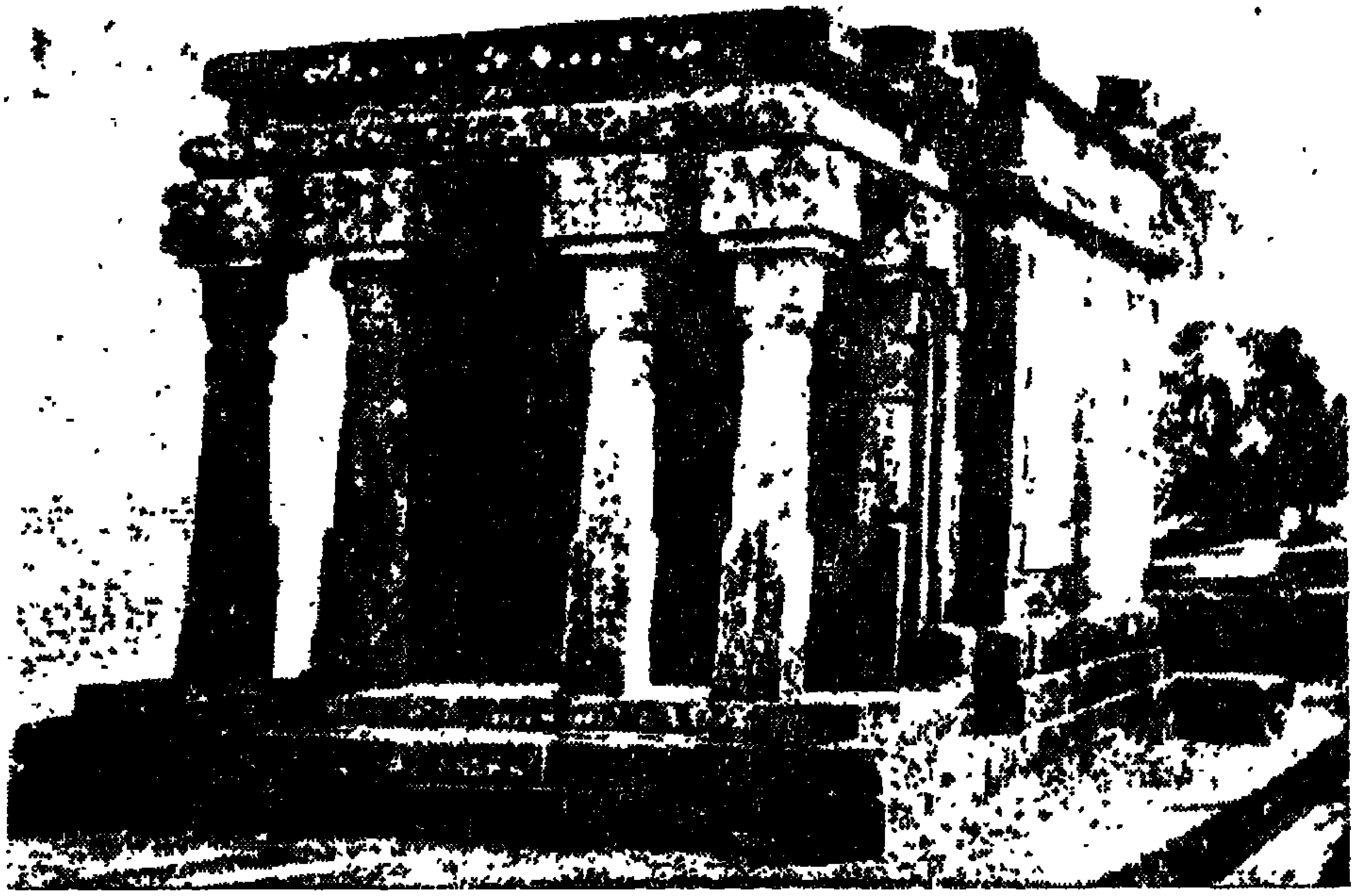

لوحة (٣٧)
أول معبد هندوكى فى عصر غبتا
على طراز رومانى

الأمور التشريعية للديانة الهندوكية . وقد عرض الكهنة هذا الكتاب على أن « مانو » أقدس قديس لهم — وهو بمثابة آدم فى ديانات الشرق الأوسط — قد تلقاه من الههم العظيم « براهما » ، مباشرة . ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الكتاب ينتقل شفوياً من جيل إلى جيل حتى تم تدوينه فى سجل فى القرن الثانى الميلادى . ولكنه وفى خلال هذه المدة الطويلة أضيفت إلى هذا الكتاب إضافات كثيرة فى شتى الموضوعات الدينية وتضخم الكتاب فى مضمونه ومحتوياته إلى درجة كبيرة . وأن هذا الكتاب بعد ظهوره على هذه الصورة الجديدة منذ القرن الثانى الميلادى نال مكانة التقديس والتبجيل لدى الآريين . ولعل سببه ظهور الديانة الهندوكية فى طور جديد فى هذه الآونة وتقليل شأن البوذية وتخفيف حدتها وحماستها وتراجعها من ميدان السياسة رويدا رويدا . وبعد هذا التدوين لم تضف إلى هذا الكتاب إضافات جديدة .

وعلى ضوء هذا الكتاب ظهرت فيما بعد تفسيرات جديدة للتشريع الهندوكى وظهرت أربع مجموعات جديدة . وقد دونت هذه المجموعات فى عصر غبتا وسميت « دهارما شاستراس » (Dharma - shastras) . وأن هذه الشريعة تبنى على المصادر الآتية :

(١) كتب الفيدا وشروحها (٢) التقاليد الهندوكية وعرفها ، وتجارب رجال الدين والكهنة والقديسين عبر القرون (٣) التجارب الفرديه وقوانين الملوك والحكام فى كل عصر وزمان .

لقد ظلت هذه التشريعات تسيطر على عقول الهندوس ووجدانهم عبر القرون ، واستلهم منها جميع الملوك أثناء إعداد تشريعاتهم وقوانينهم فى كل عصر ، واقتفى آثارها جميع الهندوس دون إبداء معارضة صريحة فى أى عصر ، ولم يحاول أحد منهم أن يبدى أية غضاضة ، بل احترموها غاية الاحترام وذلك اعتقادا منهم بأنها صدرت من « براهما » إله الآلهة ، وليس للانسان دخل فى إعدادها وإصدارها وعرضها .

تطور الديانة الهندوكية منذ القرن الأول الميلادى

ومن الجدير بالذكر أن الديانة الآرية هى الأخرى سارت على نفس طريق الشرق الأوسط فى مجال الحضارة حينما نسبت كل طور من الأطوار الحضارية إلى إله من الآلهة . لقد وجدنا مثلا فى أرض الرافدين إستعلاء مكانة اله الشمس فى عصر السومريين ، والإله ماردوك فى عصر البابليين ، والاله آشور فى عصر الآشوريين . وكذلك نسبت الحضارة الهندية المتمثلة فى الديانة الآرية إلى بعض الآلهة مثل الإله إندرا فور نزوح الآريين إلى الهند . وإلى براهما منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وإلى الإلهين الدراوديين ڤشنو وسيڤا منذ القرن الأول الميلادى إلى القرن السابع الميلادى . لقد ارتفع شأن الإله ڤشنو خلال هذه القرون واضمحل أمامه الإله سيڤا . وإن علو مكانته يمثلها الكتاب الهندوكى الشهير « البهاغاواتا » الذى ألف فى القرن الأول الميلادى . وكذا بلغت شهرة الإله ڤشنو الذروة حينما تجسد فيه بوذا وفق نظرية المهايانية ، وانتقل عن طريق البوذية إلى العالم الحضارى كله . وفى إمبراطورية غبتا إزدهر شأن الإله سيڤا وإنتشرت الحضارة المنسوبة إليه ، ونال مكانة عظيمة فى المعابد والطقوس والمراسيم لدى عامة الناس . ومن أجل ذلك نراه يحتل مكان الصدارة فى المعابد التى شيدت فى امبراطوية غبتا فى بمباى وأوريسا . وبالإضافة الى هذا الإله الشامل الحاوى فى عقول الهنود فى ذلك الحين ، ازدهر فى بنغال عاصمة غبتا إله محلى وهو « ساكتاس » (saktas) وارتفع شأنه فيها .

ومن المعروف أن الإله سيڤا هو أصلا إله حضارة نهر الهند فى موهنجودا رووهارابا تلك الحضارة التى كانت على منوال حضارة الشرق الأوسط فى تقدمها ومجدها . وهذا الإله الأعظم فى تلك الحضارة قد سيطر على عقول الناس وفرض سيطرته علهم ، وأرغمهم على الاعتراف

بسلطة الملوك على أنهم خلفاء الله فى الأرض . وهذا هو السبب فى أن هذا الإله الحضارى لما استعاد مجده فى امبراطوورية غبتا قضى على الدول المستقلة أوملوك الطوائف وأجبرهم على تسليم القيادة العليا للمركز وقائده الإمبراطور باى شكل من الأشكال ولو كان ذلك فى حدود الحكومات اللامركزية أوالفيدرالية .

بوراناس

لقد ذكرنا الكتاب « البهاغاواتا » الذى ظهر فى القرن الأول الميلادى لمجد الإله ڤشنو وتجسده فى شتى الأشخاص . وهذه النظرية ظلت تتطور وتنسج حولها الأساطير وتحاك القصص وتتناقلها الألسن ردحا طويلا من الزمن حتى تم تدوين مجموعة كبيرة منها فى عصر غبتا . وهذا الكتاب يعطى المكانة الأولى لكرشنا ، ذلك الذى تجسد فيه ڤشنو ، ثم تنسج قصص وأساطير كثيرة تتعلق بظهور الكون وفق هذه النظرية ، ويحتل فيها ڤشنو مكان الصدارة .

ولكن كتاب برانا أو بوراناس (puranas) ومعناه : التراث القديم ، ظل يتطور حتى القرن العاشر الميلادى وبهذا يحتوى هذا الكتاب على مجموعات كبيرة ومجلدات ضخمة عديدة ويشكل موسوعة كبرى فى الديانة الهندوكية .

ظهور المرونة فى الهندوكية

وبسبب سياسة المرونة والسماحة بين الملوك وجميع الطوائف الهندوكية قام الكهنة بإجراء تعديلات فى العقائد الهندوكية ، وجعلوها أكثر مرونة لتستظل فى كنفها جميع الطبقات مبتدئا من الفلاح الجاهل ومنتهيا إلى البراهمة — الطائفة العليا — . وأصبح الدين الهندوكى مشوقا ومغريا لجميع الطبقات وحتى للدراويديين ، لأن الههم القديم « ڤشنو » قد نحل بحل الإله بزهما إله الآريين ، وكذلك نال إله آخر لهم وهو سيڤا

مكانة مرموقة فى المعابد الهندوكية كلها . ولذا أصبح الدين الهندوكى مستساغا وملائما لأحاسيسهم وعواطفهم وعقولهم .

سبب انسحاب البوذية من مكان القيادة

لقد قلنا إن الديانة البوذية قد دخلت مسرح السياسة والعلم والفكر منذ عصر اشوكا ، ثم تحولت من البساطة والسذاجة إلى القوة والمجد ، وحملت لواء الحضارة والثقافة للإنسانية جمعاء ردحا طويلا من الزمن . وإن الزخارف المدنية وأنوار الحضارة وطغيان المادية وسلطان النفوذ والقوة التى عاشت فيها البوذية زمنا طويلا أغرقت رجالها الدينيين فى حب الجاه والمال والولع بحياة الترف والبذخ ، ثم حولت أديرتهم ومعابدهم إلى قصور من النعيم والجنان . وهذه الظاهرة هى التى تدفع كل أمة متقدمة نحو الزوال والانحلال ثم إلى الانهيار والإندثار ، وكذلك شأن كل ديانة وحضارة . لأن رجال الدين والقديسين إذا استبدت بهم المادية والأطماع وإستولت عليهم الشهوات والملذات أسرع الموت والفناء إليهم وإلى كل المعالم الحضارية عندهم. وهذا ماحدث للبوذية فى الهند ، ومن نتيجة ذلك إنسحبت من معارك الحياة وإنعزلت لتعيش فى داخل جدران معابدها وأديارها إلى الأبد .

انتشار الحضارة الهندية فى جنوب شرق آسيا

لقد ازدهرت الثقافة والحضارة فى عصر غبتا بصورة مذهلة فى أنحاء الهند وانتشرت من أقصاها إلى أقصاها ، ثم تخطت حدود الهند وامتدت إلى آفاق جنوب شرق آسيا ، وأثرت فى الصين واليابان وكوريا والبلاد الأخرى تأثيرا قويا : ومن المعروف أن الملك غبتا لم يخض معارك دامية ضد الملوك سواء أكان ذلك فى داخل الهند أو خارجها ، ومع ذلك فاق عصره جميع العصور فى مجال الحضارة والثقافة . وكذلك لم يكن غبتا متعصبا للديانة الهندوكية ، ومع ذلك أصبحت الديانتان البوذية والمسيحية ومناوئة لها فى كل جهة ؟

ولعل ازدهار التجارة فى هذا العصر كان أكبر باعث لانتشار الحضارة الهندية وثقافتها فى الدول المجاورة للهند بهذا الشكل المدهش . ومن الجدير بالذكر أن الطرق التجارية من الناحية الشرقية الجنوبية نشطت إلى أقصى الحدود فى هذا العصر ، واصبحت بلاد جنوب شرق آسيا ولا سيما جزر اندونيسيا وماليزيا على صلة وشيجة بالهند ، ومتفاعلة معها إلى أقصى الحدود فى الثقافة والحضارة .

لقد التقت الصين بالحضارة الهندية العظيمة المتكونة من العناصر اليونانية والرومانية والعراقية والإيرانية منذ القرن الأول الميلادى عن طريق البوذية . ثم انتشرت الحضارة الهندية والديانة البوذية عن طريق الصين فى اليابان وكوريا والمناطق المجاورة لها . ومن نتيجة ذلك تدفق سكان هذه البلاد على الهند لزيارة الاماكن المقدسة لبوذا فى ولاية بهار عن طريق خليج بنغال مارين بمدن بنغال المتصلة بولاية بهار . وقد اصبحت سجلات الرحلات لبعض أعظم الرحالة الصينيين وغيرهم خلال هذه القرون من أكبر وثائق تاريخ الهند السياسى والثقافى لهذه الفترة من الزمان . وكذلك انتشرت هذه الديانة فيما بعد فى جزر ملايا واندونيسيا والهند الصينية وتايلاند وفلبابن وبورما .

ولما قامت امبراطورية غبتا فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، ازدهرت الديانة الهندوكية بصورتها الجديدة ،فأصدرت الكهنودتية فتاواها فى تأييد الاسفار والرحلات خارج البلاد ، وذلك تشجيعا للتجارة والهجرة والرحلات بخلاف تزمتهم فى القرن الثالث قبل الميلاد حينما وقفوا ضد هذه الأمور وحرموا الاسفار والرحلات خارج البلاد لتوطيد مكانتهم وانقاذ حالتهم المالية المتدهورة من جراء التطورات المؤسفة ضد مصالحهم . وأما فى هذه الفترة من الزمان فقد قام البراهمة أنفسهم بعدة رحلات تجارية إلى جزر مالايا وبورنيو وإندونيسيا وبورما . وبهذا اتصلت بلدان جنوب شرق آسيا بالهند اتصالا وثيقا ،واستوردت من الهند أدواتها الثقافية المتقدمة

من جراء امتزاج الفنون الهندية والرومانية وخبراتها الفنية المتبادلة . وهذا الالتقاء وما ترتب على ذلك من تبادل الزيارات بين سكان البلدين أدى إلى انتشار الثقافة الهندية فى هذه المناطق وتبعا لذلك كان انتشار الديانة الهندوكية المتمثلة فى الإله سيفا ، ذلك الذى أصبح رمز الحضارة الهندية فى امبراطورية غبتا .

وكذلك بدأت السفن الهندية تتجول فى بلاد افريقيا فى هذا العصر . ولقد شوهدت سفنها فى سواحل السودان وغينيا واثيوبيا ، واستوردت هذه البلاد من الهند الحبوب الغذائية والفواكه مثل الموز والأدوات الحضارية الأخرى . ومن المعروف أن الهند كانت على صلة وثيقة بمصر فى عاصمتها الرومانية « الاسكندرية » .

يقول المؤرخون إن السفن التجارية الهندية لما قامت برحلاتها الأولى لجزر جنوب شرق آسيا كانت هذه البلاد تعيش فى حالة بدويه للغاية ، بعيدة عن مظاهر الحضارة والثقافة ، تمارس الزراعة كمهنة اساسية بالاضافة إلى الملاحة فى بحارها المحيطة بها وكان الأرز من أهم محاصيلها الزراعية . وإن تردد السفن الهندية وسكان الهند إليها قد صار موضع الإعجاب والدهشة لديهم ، لأنهم واجهوا أمة حضارية جديدة لم تتصورها عقولهم فى ذلك الحين . فارست سفن الهند فى سواحلهم واتصل الهنود بسكانها وصدروا إليهم بضائعهم وتزوجوا من نسائهم ، فارتبطوا بهم ارتباطا وثيقا ، الأمر الذى دفع هؤلاء إلى التجارب مع الهند فى الفكر والثقافة. وبهذه الاتصالات والصلات غزا الهنود قلوب هؤلاء جميعا ، فانتقلت ثقافتهم وديانتهم إليهم بحذافيرها . لقد كشفت عملية الاحفار فى هـــذه المناطق آثار اللغة السنسكريتية وآدابها وانتشارها فى انحاء تلك البلدان ، ونيلها المكانة الأولى فى الأوساط الحكومية والشعبية على السواء . ولما كانت معظم بلاد جنوب شرق آسيا ــ عدا الصين واليابان وكوريا ــ قد اتصلت بالهند منذ عصر غبتا فقط ، ثم اتصلت بها اتصالا وثيقا واستوردت منها

الأدوات التجارية والحضارية ، فقد اعجب أهلها بالطبع بالديانة الهندوكية المتمثلة في الإله سيفا ، إله الحضارة الذى يفرض سيطرة الملوك على الشعب كله : ومن هنا اصبحت الدول القائمة فى هذه الجزر مسيطرة على سكانها لأول مرة ، وسلم زعماء القبائل — من جراء هذه الأمور والتطورات — زمامهم للإله سيفا ، وتبعا لذلك اعترفوا بسيادة الملوك والقانون والنظام على نظمهم القبائلية الطائفية المشتتة .

العلوم والفنون فى عصر غبتا

لقد تقدمت العلوم والفنون تقدما كبيرا فى هذا العصر ، بل بلغت قمة المجد والعلا : ومن هنا اشتهر هذا العهد وسمى بالعصر الذهبي لدى مؤرخى الهنود والافرنج على السواء .

ومع ذلك لم يشهد هذا العصر أى تجديد أو أصالة فى مجال الفكر والدين ، بل جل المحاولات تركزت فى تأليف الشروح والتفاسير للكتب القديمة مثل كتب الفيدا دون اضافة جديدة إلى أصل النصوص القديمة . وكذلك وجهت العناية إلى حفظ النصوص القديمة وتناقلها شفويا من الاستاذ إلى التلميذ ، وذلك تقديسا وتيمنا . وقد ساد الاعتقاد حتى فى هذا العصر بأن العلم لن يأتى إلا بعد التتلمذ على الأساتذة ، وأخذ أسراره منهم اعتمادا على الذاكرة والحفظ . وبهذا ظلت العقيدة الهندوكية محافظة دون حدوث تجديد جذرى فيها .

اللغة السنسكريتية

لقد قلنا إن ظهور البوذية كان رد فعل عنيف ضد الفكر الآرى وتراثه كله . فقد سارت البوذية فى خط معاد سافر ضد اللغة السنسكريتية. ومن هنا ازدهرت لغة « بالى » ثم براكرت — إحدى اللهجات الشعبية فى ولاية بهار — وصارت مناوئة للغة السنسكريتية ، وظهرت فيها الآداب والفنون بعد ذلك : ولكنها اختفت من المسرح السياسى والفكرى

والأدبي فى عصر غبتا ، وعادت اللغة السنسكريتية إلى مجدها ورونقها ونشاطها ، وألفت بها الكتب الدينية والأدبية والقصصية كلها ، وأصبحت لغة التخاطب والتفاهم والبلاط والجهات الرسمية ، كما سكت بها النقود والعملات . وإن ازدهار هذه اللغة بعد اختفائها من المسرح السياسي والشعبي قرابة ثمانمائة سنة يعتبر معجزة عظيمة لهذه اللغة وتراثها الخالد . وفى نفس الوقت ضعفت لغة براكرت البوذية واندثرت تماما ، ولكنها احتفظت بكيانها ومجدها بعد انتقالها بكامل هيكلها إلى سيلان ، ولم تزل فيها اللغة الرسمية الأولى ؛ وهى التى تسمى الآن فى سيلان « السنغالية » .

لقد تقدمت الآداب تقدما ملحوظا ، ونالت الملاحم الهندية الشهيرة كالرامايانا والمهابهاراتا مكان التقديس والتبجيل ، كما أضيفت إليهما إضافات كثيرة فى هذا العصر . إن القصص البطولية الـواردة فيهما ومشاهدها الرائعة أصبحت موضع التقدير والعبر والموعظة للقواد والضباط ، ولذلك كان الكهنة يرتلونها فى المناسبات البطولية للبلاد .

وكذلك وجهت العناية لقراءة الكتب المقدسة مثل الڤيدا والجيتا للعبرة والموعظة نفسها ، وبذلك عادت لها الحياة مرة أخرى .

ومن الناحية اللغوية فقد واصلت الجهود من جديد لتطوير الدراسات النحوية والشعرية من حيث البديع والعروض ، تلك التى بدأها « باى نينى » خلال القرن الثالث قبل الميلاد . قد أضيفت شروح وتفاسير إلى أصول « باى نينى » وتضخمت الدراسات فى هذا المجال . وليس معنى ذلك أن الدراسات اللغوية والعروضية لم تنل أى اهتمام قبل عصر غبتا ، ولكن حركتها كانت بطيئة طوال السنين الألف الماضية حتى انفجرت كبركان فى عصر غبتا خلال القرنين الرابع والخامس . وهذه العناية الكبيرة باللغة السنسكريتية هى التى دعت الأدباء واللغويين فى هذا العصر إلى إعداد أول قاموس سنسكريتى ولأول مرة فى تاريخ الهند . ومن الجديد بالذكر ان

هذه الدراسات اللغوية والعروضية الجديدة المتقدمة والمتطورة للسنسكريتية هي التي عكف البيروني على دراستها بحذا فيرها واستفاد منها إلى اقصى الحدود وسجل تبحره وتمكنه فيها فى كتابه العظيم (تحقيق ما للهند) .

الطب

لقد اشتهرت الهند فى مجال الطب منذ القدم . ولكن طبها حتى قيام الحضارة كان مفردا بسيطا ، يعتمد على الأعشاب والعقاقير والسحر والتمائم والتعاويذ . ولما انتقلت الهند الى الطور الحضارى منذ القرن الرابع قبل الميلاد ظهر فيها الطب المركب وهو عبارة عن ظهور الأدوية المركبة وفق اصول الكيمياء من عناصر عديدة ، وظهرت العمليات واكتسب أطباء الهند خبرات واسعة فى هذه المجالات كلها ، وتطور الطب من جراء ذلك الى أقصى الحدود منذ القرن الاول الميلادى وحصلت لها الذاتية والأصالة فيه .

ولقد مر الطب الهندى الحضارى بطورين فى حياته . الاول منذ القرن الاول الميلادى الى القرن الرابع . وهذا يسمى « شاراكا » (Charaka) ولا نجد فى هذا الطب الدقة أو النظام بل تسوده الفوضى والخلط وسوء التنظيم وذلك فى كل من جداوله وقوائمه التى تتعلق بالعلاج والمواصفات والادوية . ولكنه منذ القرن الرابع دخل فى طور جديد يسمى « سوس زوتا » « susruta » . وفى هذا الطور الثانى اتسم الطب بالتنسيق والتنظيم فى كل الامور ، وزال الخلط والمزج والفوضى كلية . ومن هذا العصر دخلت الهند فى مرحلة متقدمة فى الطب وانتج اطباؤها إنتاجا ضخما يتسم بالأصالة والتجديد . وهذا الطب قد اعترف بالعمليات وادخلها كجزء اساسى فيه ، واذن بمزاولة اعمال التشريح للجثث . ومع أن التقاليد والمراسيم الجنائزية قد عارضت تشريح الجثث أشد المعارضة ، وحاولت دون تقدم هذا العلم واحرازه انجازات عظيمة .

علم الفلك والهيئة

لقد ازدهر هذا العلم منذ اتصال الهند باليونان ، ثم استفادت الهند من تجارب إيران فى ظل الدولة الساسانية ، ونتيجة لهذه الجهود استطاعت خلق أصالة وذاتية فى هذا العلم . ولكن الباحثين يرون أن علم الفلك لدى الهنود فى هذه الآونة كان مخلوطاً بالرياضيات .

وقد ظهرت الرياضيات منذ ظهور المعابد ومناراتها الشامخة . إن المذابح والقرابين فى المعابد هى التى كانت عاملا أساسيا لظهورها ، لأنها تستند إلى الحساب . وكذلك دعت الضرورة إلى معرفة حركات الشمس وحالات الجو والطقس فأدى إلى ازدهار هذا العلم ازدهاراً كبيراً . وقد ظهر أكبر عالم رياضى فى عام ٤٩٩ م وهو « ارياباتا » (Aryabhata) ذلك الذى أجرى تعديلات عديدة فى الرياضيات وابتكر فيها ابتكارات ، وهو الذى يرجع إليه الفضل فى ظهور الأعداد والأرقام التى نستعملها اليوم فى اللغات الافرنجية ، وهذه الأرقام هى التى انتقلت إلى العربية فى العصر العباسى ، ثم تطورت فى أوربا على الشكل الذى نراه اليوم . وكذلك عرف هذا العالم استخدام النظام العشرى والصفر ويعتبران من أهم الابتكارات فى العالم الرياضى التى ظهرت فى بابل فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . ثم انتقلت إلى العواصم الحضارية لتتطور وتتقدم حتى وصلت إلى الهند لتبلغ القمة .

ومن الجدير بالملاحظة أن المجتمع الهندوكى لم يتمتع فى هذا العصر بالروحانية فحسب وفق الحياة الصوفية المبنية على نفى الذات ووحدة الوجود ، بل زخارف الحضارة وأنوارها البديعة دفعت كثيراً من الناس إلى ممارسة حياة الترف والبذخ والشهوانية المغرقة إلى حد بعيد . ويبدو فى ظاهر الأمر أنهما متناقضان جداً ، ولكن الحياة الحضارية تمهد السبيل لكلا اللونين من الحياة فى كل عصر وزمان .

بداية عصر الظلام منذ سقوط امبراطورية غبتا الى الفتح الاسلامى

لقد عاشت هذه الامبراطورية قرنين ونصف قرن من الزمان حياة حافلة بالمجد والعظمة صاعدة وملتوية ومرتفعة ومتساقطة حتى كتب لها الزوال منذ عام ٥٧٠ م وفق سنة الحياة وسير الحضارة منذ ظهور هذا الكون . وإذا وصلت أية حضارة إلى قمة المجد وذروة العلا وجدناها من ذلك الحين تتجه إلى الانهيار ثم السقوط نهائيا . لأن الحياة الحضارية المفعمة بالمادية تجلب أنواعا من الأضرار ، ومن شأنها أن يتناوب جسدها السليم ألوان من الأضرار والعلل ، تشل قواه وتضيف إلى الجسد المريض وهنا إلى وهن حتى تبلغ حد الشيخوخة وتموت إلى الأبد ، ثم ينتقل لواء الحضارة إلى أمة جديدة لم تزل تتمتع بالصحة الموفورة بسبب ممارستها الحياة البدوية وبعدها عن زخارف الحضارة وأنوار المدنية ، ثم تنفجر شحنات هائلة من الطاقات الروحية من نفوسها الكامنة ، فتندفع هذه الأمة لتنشر رسالتها الجديدة ، وتبعا لذلك تستولى على قيادة الحضارة الإنسانية . ونفس ماحدث حينما انفجرت طاقات الهند الكامنة بفضل بوذا ورسالته السامية ، وحينما ارتفعت حضارة غبتا فى الوقت الذى وصلت فيه الحضارة الرومانية إلى طور الشيخوخة . ولما آلت جميع الحضارات الانسانية إلى الزوال بعد حدوث أمراض الشيخوخة فيها ، فجرت الجزيرة العربية — منبع الرسالات السموية فى الشرق الأوسط فى كل عصر وزمان — شحنات جديدة من الطاقات الروحية ، فظهر الرسول العربى محمد عليه السلام وانطوت تحت لوائه جميع الحضارات الإنسانية حينذاك وصارت بلاد العرب مركز الحضارات الإنسانية مرة أخرى .

انهارت امبراطورية غبتا منذ عام ٥٧٠ م كما قلنا بعد إصابتها بمرض الشيخوخة من ناحية ، وتدفق بعض القبائل البدوية على الشمال من ناحية ثانية ، وتفكك عرى الوحدة أو الفيدرالية من ناحية ثالثة ، الأمر الذى أدى إلى ظهور ملوك الطوائف ، وكثرة المنازعات والمنافسات والصراع

فيما بينهم ، فسادت الفوضى أنحاء الهند ، وانهار النظام والأمن وحدث خلل هائل فى ميزان القوى الداخلية . وتبعا لذلك انتشرت الخلافات المذهبية . ومما زاد الطين بلة أنه قد تدفقت أمواج همجية وحشية على الهند ، وحطمت معالم الحضارة فى المناطق التى قامت فيها الدولة الكوشانية . وهذه تسمى بالقبائل الهونية (Huns) . وهى فى الحقيقه كانت إحدى الموجات الهمجية التى زحفت من شمال الروم ؛ ولكنها فى نفس الوقت لم تكن من الأصل الهندى الأوربى . فقد جاست هذه القبائل من أقصاها إلى أقصاها الأمر الذى أدى إلى انهيارها إلى أقصى مدى .

ثم عاد إلى الهند شىء من الطمأنينة حينما استطاعت الهند التقاط أنفاسها بعد تجمع بعض قواها المنهارة فى الشمال فى أوائل القرن السابع الميلادى ، وإنشاء دولة سميت « هارشا » (Harsha) وهو اسم ملكها الأول . وهذه الدولة راعت كلا من البوذية والهندوكية ، ثم قامت دولة أخرى مناوئة لها من ناحية جنوبها فى نفس المنطقة وهى « البولاكشنية » (pulakeshin) ، وهى الأخرى سميت باسم ملكها الأول ، وزاد بينهما التنافس والمنازعات فى بعض الأحيان إلا أنهما تمكنا من صيانة استقلالهما وحريتهما قرابة ثمانين سنة . ثم زاد الصراع والمنازعات بين أمرائهما . وفى هذه الآونة دخل الإسلام هذه المنطقة الشمالية التى ظلت تتصارع وتتنازع ، فقضى عليهما القائد العربى محمد بن القاسم وضم هذه الأراضى المفتوحة من ولاية السند إلى الدولة الأموية فى دمشق وذلك بالتحديد فى عام ٧١٢ م .

استقلال جنوب الهند عن الشمال حتى فى العصر الاسلامى وازدهار حضارته

لقد كان جنوب الهند على اتصال وثيق بالشرق الأوسط والأمبراطورية الرومانية كما قلنا . ومن هنا أتيحت له فرصة عظيمة لتطوير حضارته وتقدمه

إلى أقصى الحدود بعدقيام الدولة الإسلامية فى الشمال. لأن الفتوحات الإسلامية لم تمتد مطلقاً إلى حدوده ، اللهم إلا فى القرن السابع عشر الميلادى حينما قامت دويلات إسلامية فى ولايتى ميسور ومدراس تلك التى سرعان ما سقطت فى ايدى الانجليز بعد سقوط « دلهى » العاصمة بزمن يبلغ نحو نصف قرن .

وفى هذه المنطقة علا نجم إلههم القديم « قشنو » ذلك الذى تجسد فى راما وكرشنا ثم فى بوذا ، لقد انشئت جميع المعابد فى هذه المنطقة باسم الإله سيقا إله الحضارة والمجد عندهم .

إن الهند الجنوبية التى تتكون من أربع ولايات وهى : مدراس وميسور وآندرا براديش وكيرالا لم تدخل فى حوزة اية امبراطورية قامت فى شمال الهند فى أى عصر من العصور . كان العنصر الداراويدى يشكل أغلبية ساحقة فى هذه الولايات منذ قدم التاريخ . ولذلك لم يمتد نفوذ أية امبراطورية إلى حدودها . ومن ثم عاشت هذه المنطقة بعيدة عن الشمال تتمتع بحرية كاملة واستقلال تام وفى انفصال مستمر . وفى العصر الإسلامى أيضاً عاشت هذه المنطقة منفصلة انفصالا تاماً ، ذلك لأن الفتوحات الإسلامية لم تصل إليها قط ، ولذلك أصبحت هذه المنطقة مزدهرة ومتقدمة خلال جميع العصور تتمتع بكامل حريتها وتطوير حضارتها . ومن هنا انتقل لواء الحضارة الهندوكية من الشمال إلى الجنوب فى العصر الإسلامى . ولكن الجنوب فى نفس الوقت فتح صدره للاسلام ليغزوه بالطرق السلمية وبالتبليغ . لقد قام بهذه الأدوار الرائعة فيها التجار العرب والجاليات العربية الموجودة فيه وصفوة من الصوفية والصالحين .

ومن المعروف أن الجنوب وموانيه الشهيرة كانت غاصة بتجار العرب فى كل العصور ، وظل على اتصال وثيق دائم مباشر ببلاد العرب ، ولذلك دخل الإسلام هذه المنطقة قبل دخول الجيوش الإسلامية فى المناطق الشمالية التى تشكل الآن باكستان الغربية وهى ولايات السند وبنجاب وبلوشستان

والمناطق الجبلية . ومن هنا ظهرت جميع حركات التجديد فى الديانة الهندوكية فى هذه المنطقة إبان مجد الإسلام فى الشمال : وظهر فيها مجددون ومصلحون ، وتجاوب هؤلاء مع تعاليم الإسلام والتجارب الصوفية الإسلامية التى كان صداها يتردد فى أرجاء جنوب الهند وأدخلوها فى الديانة الهندوكية لأول مرة ، ومن أبرزهم سانكارا (sankara) : ٧٨٨ — ٨٢٠م) ذلك الذى أعاد تصميم الديانة الهندوكية على ضوء التصوف الإسلامى مستمدا عناصرها الأصلية من تعاليم كتب الفيدا الأخيرة ، ولا سيما البرهمانان واليوبانيشاد اللذان أعطيا للعالم لأول مرة نزعة التصوف ووحدة الوجود تلك التى تجلت فى أبدع مظاهرها فى مدرستى القنوصية والإسكندرية كما قلنا . وقد سميت حركته الإصلاحية الهندوكية بالفيدانتية (Vedant) . وهذه الحركة هى التى أخذت طريقها إلى الشمال فيما بعد ونالت الاحترام والقبول فيه . وبهذا تكون راية الدين الهندوكى الآرى انتقلت ولأول مرة من الشمال إلى الجنوب . وكذلك الحركة البهاكتية الداراويدية فى الجنوب تجاوبت مع مبادئ الإسلام التوحيدية والتصوف الإسلامى وتجلت فى مظهر جديد .

فنون الشرق الأوسط فى الجنوب

لقد ازدهرت صناعة النحت والتماثيل ازدهارا كبيرا فى منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثانى قبل الميلاد . وأصبحت أدواتها ومصنوعاتها فى هذا الصدد من أهم مظاهر التجارة فى تلك الآونة التى كانت تتلقى ترحاب التجار ، وتنتقل عن طريقهم إلى جميع بلدان العالم . كانت الأسواق الرومانية تتزعم هذه الصناعة وتلك التجارة ، ومنها كانت تصدر إلى البلدان الأخرى بكميات هائلة . وبهذا أخذت هذه البضائع طريقها إلى الهند أيضاً . لقد بلغت العلاقات التجارية بين الروم والهند إلى ذروتها منذ القرن الأول الميلادى كما قلنا . وأنشأ الرومانيون مستعمراتهم وجالياتهم على سواحل الهند الشرقية والغربية على السواء . وقد أنشأوا

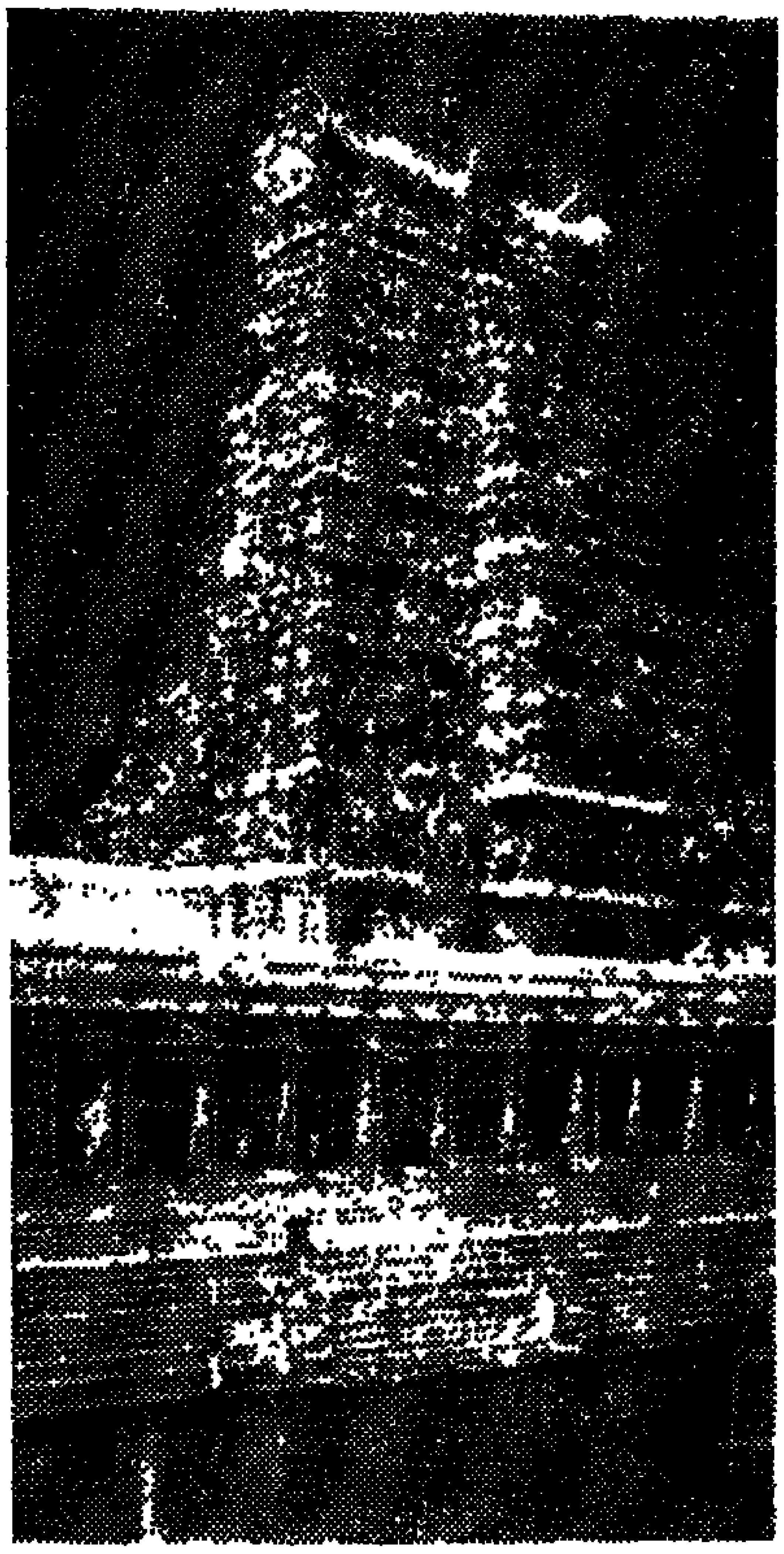

لوحة (٣٨)
معبد مدورى بمدراس

لوحة (٣٩)
معبد مهابالى بورم بمدراس على خليج بنغال

كذلك معابدهم المحتوية على قاعات واسعة للجلوس وعقد الندوات ، وقد وجدت هذه المعالم فى مدينة « باندشيرى » بالقرب من مدراس ، تلك المدينة التى احتلتها فرنسا فى القرن الثامن عشر الميلادى ولعل بعض الشخصيات الكبيرة قامت بانشاء هذه المعالم الرومانية فى مدراس .

وهذه الظواهر كلها قد أدت إلى خلق مواهب فنية ذاتيه فى الهنود تلك التى انفجرت فيما بعد ، ودفعت هذه الصناعات فى الهند إلى التقدم والإزدهار .

لقد دخلت مدراس فى المجال الحضارى منذ القرن الأول قبل الميلاد . وفى عصر شولاس فى هذه الآونة قد انشىء أعظم معبد فى « تانجور » وذلك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، وفى عصر بانديا‌س فى مدوراى ، وأخيراً وصلت المعابد الهندوكية إلى القمة فى معبد مهابالى بورم الذى شيد على صخرة واحدة .

ومن المعروف أن معابد مدراس هى الأخرى قد شيدت لتكريم الإله سيفا إله الحضارة . وقد بنى أول معبد فى كانشى بورم خلال السنوات ٧٠٠–٧١٠م .

معابد مدورى

وهذه مدينة شهيرة فى ولاية مدراس قد اتصلت بالامبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادى وأقيمت للجاليات الرومانية فيها مستعمرات فى عهد ملوك بانديا‌س . وقد أشاد بها العلماء الرومانيون الذين زاروها فى القرن الأول الميلادى أمثال « بلينوس الأكبر » (pliny) : ٢٣–٧٩م) ذلك الذى كان من أشهر علماء الطبيعة . قصد بومباى من نواحى بركان الفيسون عند انفجاره لينقذ بعض أصدقائه فمات بالغازات الكبريتية . صنف هذا العالم كتاب « التاريخى الطبيعى » وهو مفيد جدا للاطلاع على معارف الأقدمين . كذلك أشاد « بطليموس » (ptolemy) :

المتوفى بالقرب من الاسكندرية فى ١٦١ او١٦٧ م) وهو صاحب مؤلفات عظيمة فى الفلك والرياضة والجغرافيا والطبيعة .

وقد حكمها ملوك ناكياس منذ القرن السادس عشر الميلادى وشيدوا فيها معابدهم لتمجيد الإله سيفا . ويقال فى تسمية هذه المدينة أن الإله سيفا أحب فتاة حسناء ذات عيون سميكة اسمها الأميرة ميناكشى وباسمها سميت المدينة ، ثم حدث فيه تغييرات وتحريفات إلى أنسميت « مدورى ». لقد اشترت شركة الهند الشرقية الإنجليزية التى استولت على الهند هذه المدينة فى عام ١٧٣٦ م ، ثم توغل الإنجليز عن طريقها إلى داخل الهند للإستيلاء عليها .

مهابالى بورم

لقد شهد هذا المعبد العظيم الذى يطل على خليج بنغال ملوك بالاڤاس أولئك الذين تولوا عرش مدراس منذ أربعة قرون ، وبهذا يكون هذا المعبد قد بنى فى القرن السابع عشر الميلادى ، حينما بلغ الفن المعمارى الهندى قمة المجد وذروة العلا . ولذلك يعتبر هذا المعبد آية الفن والجمال .. وفى الحقيقة لقد بنى ملوك بالاڤاس على ناصية هذا البحر الجميل سبعة معابد شاهقة تناطح السحاب ، ولكن موجات البحر وعواصفه الطاغية قد ظلت تنقض عليها بقسوة طوال القرون الثلاثة ، وأحالت معظمها إلى أطلال ، فلم يبق منها الآن إلا معبد واحد فقط ينافس المعابد الهندوكية كلها فى روعة الفن وعظمة البناء . ويرجع خلود هذا المعبد إلى دقة الفن المعمارى الذى حفره على الصخور الشامخة ، وفى أسفله أغوار عميقة تثير دهشة الزوار والرواد حينما يتخيلون مهارة الأيدى العاملة التى وصلت إلى أعماقه بكل جدارة وشجاعة .

ويبدو أن الدراوديين فى هذه الآونة قد أصبحوا أصحاب تأثير دينى قوى للأمبراطورية غبتا تلك التى اندثرت فى نهاية القرن السادس

الميلادى ، مع أنها التى رفعت مجد الإله سيفا فى معابدها . ومع أن مدراس قد رفعت راية الإله فشنو منذ دخولها فى مجال التاريخ والحضارة والفكر ، إلا أن معبد مها بالى بورم قد شيد لتمجيد الإله سيفا . إننا نرى فى هذا المعبد تماثيل رائعة وصوراً عظيمة للآلهة ، ومن بينها صورة نزول الجنجا من السماء إلى الأرض ، وهى التى تحتل مكان الصدارة . وتبلغ هذه الصورة فى ارتفاعها ثلاثين قدما ، وطولها ستين قدما . وكذلك نجد صوراً رائعة للحيوانات والقديسين والأولياء . ومن بينها مشاهد رائعة لآلهة السماء التى تشاهد ارجنا — بطل ملحمة المهابهاراتا — والإله سيفا الذى يختفى عن الأنظار فى زيه السحرى . وكذلك نجد صوراً جميلة للأفيال التى تتدفق وتندفع إلى الأمام كأمواج هائلة ، وعلى رأسها مخلوقات سموية تصعد إلى السماء بين مشاهد رائعة من الرقص والطرب .

الختـــام

نذكر فى الختام بعض الجوانب الحيوية الهامة المستمدة من الروح الهندية القديمة والتى لم تزل حية ونابضة ، وأصبحت موضع الإعجاب والتقدير لدى الشعوب العالمية بصفة عامة والشعب العربى من الخليج إلى المحيط بصفة خاصة بسبب صلتها الوثيقة بالهند منذ أقدم العصور كما عرضها هذا الكتاب .

اللغات العديدة

ان لغات الهند الحديثة كلها — وان كثر عددها واختلفت ألوانها وأشكالها — تنحدر فى الحقيقة من ثلاث لغات قديمة رئيسية وهى : السنسكريتية الآرية ، والبالية البوذية والتاملية الدراويدية . إن معظم لغات شمال الهند ولا سيما لغات بهاروااتاربراديش وبنجاب قد تفرعت من لغة البالية البراكريتية التى ازدهرت منذ عصر اشوكا ، ثم صارت لهجات عديدة على مرور الزمن وفق قانون اللغات فى كل عصر وزمان .

وقد استمدت بعض لهجات اتاربراديش طاقات هائلة من الوقود فى العصر الإسلامى من اللغتين العربية والفارسية ، ثم تمخضت هذه المظاهر عن ظهور لغتين . أولاهما الأردية التى دخلت فيها الكلمات العربية والفارسية بكمية هائلة مع سلامة هيكلها البراكرتى وهندسة تركيبها وقواعدها اللغوية . وهى الان اللغة المشتركة العامة فى كل من الهند وباكستان . والثانية الهندية التى تحاول حكومة الهند الحالية اعطاءها الصبغة الرسمية للبلاد كلها ، وهى نفس اللغة الأزدية ، إلا أنها تكتب بالحروف السنسكريتية القديمة — فى حين تكتب الأردية بالحروف العربية — وتغلب فيها الكلمات السنسكريتية على نفس مقدار الكلمات الفارسية والعربية فى الأردية .

وأن لغات بنغال وآسام وججرات وبومباى كلها كانت لهجات شعبية أصيلة لتلك المناطق ، إلا أنها استمدت من اللغة السنسكريتية كلماتها ومفاهيمها وحروفها وهندسة تركيبها منذ امبراطورية غبتا ، ولذلك يحسن بنا أن نعدها من أسرة اللغة السنسكريتية .

إن اللعة التأملية الدزاويدية التى ازدهرت منذ القرن الأول الميلادى أمدت اللهجات الدارجة المنتشرة فى جنوب الهند بكمية كبيرة من القوة الأمر الذى ساعد هذه اللهجات العامية على أن تصبح لغات مستقلة منذ القرن العاشر الميلادى وهى : الملايالم لغة كيرا لا ، والكنرى لغة ميسور ، وتيلوغو لغة آندارا براديش . وان كل لغة من هذه اللغات تزخر بعشرات من اللهجات ، ولكنها لا تستخدم فى الكتابة ، بل إنما فى التخاطب فقط . وعلى أساس هذه اللغات قسمت جهورية الهند الى ولايات .

الرقص

وقد دخل الرقص فى صميم الدين الآرى منذ أقدم العصور ، وأصبح عنصرا هاما من عناصر الطقوس التى كانت تقدم بين يدى الآلهة .

إذ كانت تغنى أناشيد الفيدا أثناء الطقوس وتعزف الموسيقى ويقدم الرقص . ونفس هذه الطقوس كانت تؤدى أثناء حفلات الزواج والمناسبات السارة الأخرى . ثم انقطعت عذارى حسناوات طاهرات عفيفات لخدمة الآلهة فى المعابد ، وأصبحن مثل الراهبات ، وكن يقدمن أنواعا من الرقص بين يدى الآلهة كعبادة ومناجاة .

إن الرقص الكلاسيكى الهندى يتميز بإيماءات تعبيرية رائعة تشترك فيها الأرجل بحركاتها الخفيفة والحثيثة فى نظام ودقة وتتناوبها الخفقات والنبرات ويساهم الوجه والعيون وأصابع اليد بنفس الإشارات والإيماءات تعبيرا عما تختلج به النفوس وتخفيه الصدور من الأحاسيس والمشاعر . وكل هـذه الأمور تسير مع الإيقاعات الموسيقية الرائعة والنغمات الغنائية الجميلة .

لقد تمخض هذا الرقص التعبيرى عن ظهـور أربع مدارس : (١) مدرسة بهاراتا ناتيام(BharataNatyam) ومركزها «تانجور » بمدراس (٢) وكاتاكالى (Kathakali) ومركزها مالا بار بكيرالا (٣) وكاتاك (Kathak) ومركزها شمال الهند (٤) ومانيبور ومركزها آسام فى شرق الهند .

أما الرقص الأول فهو يحتل مكانا بارزا من بين جميع الرقصات الأخرى لأنه صعب للغاية ، ويتعلق بالمعابد ، ويقدم بين يدى الآلهة تقديسا لها وتبجيلا . وإن المران عليه واتقانه يتطلب زمنا طويلا تقدر بعشر سنوات ، وإن عرضا واحدا منه يستغرق ما يقرب من أربع ساعات متواصلة دون توقف أو فاصل .

والثانى يشبه الرقص البالى الأوربى إلى حد كبير . وإن التمثيل يحتل فيه مكانا بارزا . ويقدم هذا الرقص فى مكان مفتوح ويستمر طوال الليل . إن الموضوعات لهذا الرقص تختار من بين الأساطير القديمة ، ولاسيما النواحى الانسانية العظيمة منها . ويضاف إليها أشياء بجديدة رائعة للاثارة والتشويق

وجذب الأنظار والقلوب . وجل العناية فيه توجه إلى الزينة والزخارف واختيار أحسن الألوان ، واستخدام أجمل الأذواق ، ويغطى وجه الراقص بقناع لعرضه فى شكل جميل جذاب يفوق التصور ، ويبدو أنه خيالى أو من العالم المثالى . وهكذا يبدو الماكياج خياليا جدا بسبب التغالى والتصنع فيه إلى أقصى الحدود . وكذلك التقاليد والعادات التى تعرض من خلال هذا التمثيل غزيرة بالخيال ، وبعيدة عن الواقعية ، إلا أن الفرقة الموسيقية التى تصاحب هذا الرقص تكون عادية ، وكذلك الآلات الموسيقية لا تتجاوز الطبلة والصنج والمغنيين . وهذان المغنيان يتحاوران وجها لوجه ، فى حين يحاكيهما الراقص فى رقصه الجميل وحركاته اليدوية البارعة الرائعة . ويعتمد كل من الابداع والروعة على مهارة الراقص وذكائه الخارق وتمثيله الرائع البديع . إن السماء والأرض تلعبان دور المسرح فى هذا الرقص . ولهذه الأسباب كلها أصبح هذا الرقص أقرب إلى قلوب الشعب ووجدانه منه إلى الكلاسيكيين المثقفين .

والثالث رقص مغولى من شمال الهند ازدهر فى العصر المغولى الاسلامى فى بلاط الاباطرة المغول . ولذلك يزخر بعناصر الفرحة والسرور والبهجة والمتعة . وليس هذا الرقص مغرقا فى الإيماء والتعبير والتصنع . وأهم ما يمتاز به هذا الرقص هو النشاط والحيوية . وهذا الرقص هو الآخر يستمد أصوله وعناصره من منابع تقاليد الهند القديمة . وفيه ناحيتان بارزتان: (١) حركات الأرجل (٢) والإيماء التعبيرى . ويسير كل منهما وفق الإيقاعات الموسيقية وبمنتهى البراعةو الصفاء والليونة دون اقتراف غلطة صغيرة ، وذلك وفق مهارة الراقصة وبراعتها الفنية . إن قصة القديس رادها كرشنا هى التى خلقت هذا الرقص واضفت عليه من مادتها الخصبة البكرة . وكذلك اضيفت إليه مادة أخرى من خلال الحياة الريفية وتقاليدها . وهذا الرقص مختص بالراقصات فقط .

والرابع مختص بعشاق الطبيعة والفطرة ، ويقدم هذا الرقص فى مناسبات عديدة وفق تغيير المواسم والفصول ، وحلول الصيف والشتاء ، وشعور البرودة والحرارة وتناوب السحاب والغيوم والاشراق والظلام ، وتغيير الطقوس والاجواء ، وتأثيرها فى النفوس والوجدان . وهذا هو السبب فى أنه أصبح فنا شعبيا جماهيريا ، تقبل عليه جميع الطبقات والاجناس دون تمييز فى كل المواسم . وهذا الرقص له علاقة بكل من «كرشنا» — الإله المتجسد — و «رادها كرشنا» — القديس الشهير — . وقد خصص فى كل قرية وفى كل معبد مكان لتقديم هذا الرقص فى تكريم الشخصيات الدينية البارزة . ويشترك فى هـذا الرقص كل من الرجال والنساء ، ويقدمون أروع آيات الروعة والبراعة والمهارة التى اكتسبوها . وتعكس المرايا رقصاتهم مع كل جمالها وبهائها وتتضاعف روعتها وجمالها وسحرها من خلال رؤيتها فى تلك المرايات ، وما يلوح لنا خلالها من الأنوار والأضواء . وتعزف الموسيقى بآلات عديدة ، ومعظمها ريفى ، وعلى وحى من ايقاعاتها ونغمها تخف حركات الرقص أو تزيد ، وتتمايل الراقصات ويتأرجحن ويقفن ويتحركن . إن الوجوه البارزة فى هذا الرقص تأتى من الريف والمناطق الجبلية . وتلعب أروع الأدوار ، ولا نجد من بينها إلا راقصا واحدا فقط يلعب دور «كرشنا» .

وبوحى من هذه الرقصات القديمة ظهرت مدارس جديدة من الرقص ومن أهمها «يوداى شانكار» (Uday shankar) التى تمتاز بروحها القديمة وعرضها الفنى الجديد وتتسم بالطهارة والليونة والصفاء .

وكذلك توجد هناك رقصات شعبية عديدة مثل الرقصات التى تقدمها الفلاحات أيام الحصاد ، ولاسيما فى «غوا» (Goa) ورقصات الجبليين كرقص الناغا (naga) ورقص اللاما (lama) وما إلى ذلك .

الموسيقى والغنـاء

إن الموسيقى والغناء كانا يعتبران من صميم الدين وطقوسه منذ عصر الفيدا .

لوحة (٤٠)

رقص بهاراتياناتام المدراسي

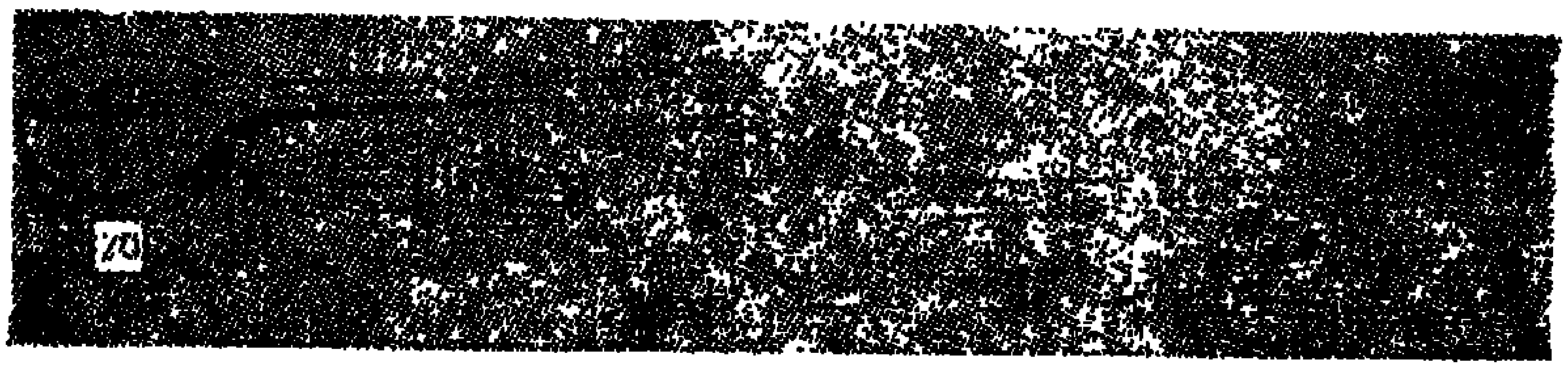

لوحة (٤١)

آلات موسيقية

لوحة (٤٢)
رقص بها راتياناتام

لوحة (٤٣)
حكاية عاطفية تعبر عنها بالأيدى والعيون فى رقصة شعبية
من ولاية راجستان

لوحة (٤٤)
رقص كاتاكالى من مالابار

لوحة (٤٥)
رقص ما نيبور

لوحة (٤٦)
رقص دار جلنغ الشعبى

لوحة (٤٧)

رقصات غاربا الشعبية فى ججرات

لوحة (٤٨)

العاب الأطفال فى العيد

لوحة (٤٩)
رقص شعبى بمناسبة الحصاد فى غوا

لوحة (٥٠)
رقص قبائل ناغا الشعبى فى آسام

لوحة (٥١)
رقص يقدمه فرقة بوداشانكار

لوحة (٥٢)
رقصات باليه تقدمها فرقة فى بومباى

ومن المعروف أن كتب الفيدا قد ألفت بالشعر السنسكريتى ، وأبيات مختارة منها كانت ترتل بين يدى الآلهة اثناء أداء الطقوس فى نغمات موسيقية حلوة . وبهذا كانت الموسيقى والغناء يسيران جنبا إلى جنب مع الرقص . وفى العصر البوذى أيضا نال كلاهما نفس التقدير والترحيب . ومع ذلك فقد ظل كلاهما يتناقل بالألسن ، وتحفظه الصدور وينتقل من جيل إلى جيل . وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الحين أن هذه الفنون الدينية لاتأتى إلا بعد التتلمذ على الأساتذة ومحاكاتهم فيها ، وحفظهم إياها عن ظهر قلب ، بعد تلقيها عن ألسنتهم المقدسة . وقد دونت هذه الأعمال الفنية لأول مرة فى عصر غبتا خلال القرنين الرابع والخامس حينما تقدمت الآداب والفنون . وكان « بهاراتا » أعظم فنان فى ذلك العصر ، ذلك الذى دون أعماله الموسيقية الخالدة . ومن هذا اليوم دخلت الموسيقى فى طور فنى متقدم .

وكان العرض الموسيقى يتقدم فى العصور الساحقة فى قصور الملوك والأمراء وذلك إيمانا منهم بقداسة هذا الفن ، ورغبة فى تسلية أنفسهم فى ساعات العزلة أو الفراغ ، لتمتلئ قلوبهم بالفرحة والبهجة والمتعة الروحية . وكذلك خصصت لها أجنحة فى المعابد لتقديمها بين يدى الآلهة لإثارة النشوة واللهفة والحب والحنان فى قلوب العباد تجاه الآلهة . ولكنها لم تدخل فى هذه الآونة إلى المجالس الشعبية وندواتها لاثارة الجماهير ، ولم تتخذ طابعاً شعبيا عاماً . ومن هنا ظهرت جماعات اتخذت الموسيقى والغناء مهنة خاصة ، واحتكرتها لمدة طويلة .

وتمخضت هذه الروائع الفنية العتيقة الخالدة عن ظهور مدرستين عظيمتين وهما مدرسة شمال الهند ، ومدرسة الكرناتك الجنوبية . وأما الأولى فهى — حقيقة — خلاصة الموسيقى القديمة الخالدة : بالإضافة إلى العناصر البناءة الخالدة من الموسيقى الفارسية والعربية التى امتزجت بها فى العصور الإسلامية . وبهذا تكون هذه الموسيقى ممثلة الطابع الشرقى العالمى ، ومميزات الروح الشرقية كلها ، أى : الهندية والفارسية والعربية . والثانية هى الموسيقى الهندية

لوحة (٥٣)
يعزف على الستار

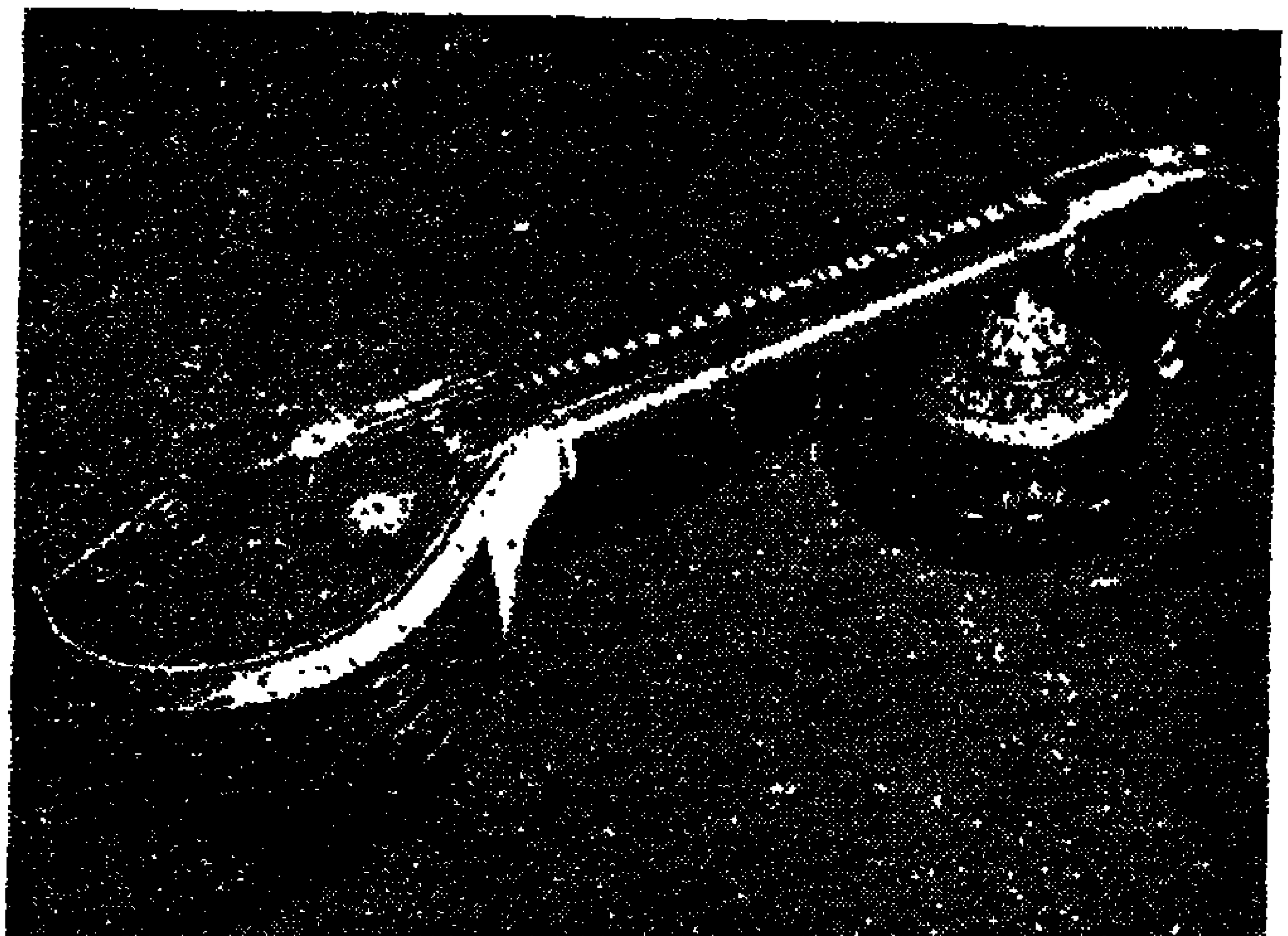

لوحة (٥٤)
ڤينا الآلة الموسيقية

لوحة (٥٥)
يعزف على آلة الشهنائى الموسيقية

الأصيلة دون امتزاج بأى عنصر من العناصر الخارجية ، ومركزها مدراس .
ومن الغريب جدا أن العالم الغربى لم يستطيع حتى الآن فهم الموسيقى الهندية الشرقية الأصيلة على الرغم من فهمه النواحى الهندية الأخرى الكثيرة . وفى حين تغزو الموسيقى الهندية — من خلال أفلامها — البلدان الشرقية كلها والتى يعتقد الغرب بأنها ممتلئة بالتناقضات ومتأخرة ومتزمة للغاية . والسبب الرئيسى فى ذلك إختلاف الطبائع الشرقية والغربية وامزجتهما فى التجاوب مع النغمات والنبرات والإيقاعات . وهذه الأمور كلها خارجة عن نطاق العلم والقواعد ، ومتصلة إتصالا وثيقا بالأذواق والطبائع .

وإن الآلات الموسيقية الهندية كثيرة جدا ، بعضها قديم وبعضها جديد . وقد ظهرت فى العصور الإسلامية بسبب عناية الملوك المسلمين بالموسيقى إلى درجة كبيرة مثل : ڤينا (Vina) وهى آلة قديمة ، والستار (Sitar) والشهنائى (Shahnai) وهما ظهرتا فى العصور الإسلامية ، كما توجد كذلك آلات موسيقية شعبية كثيرة .

المسرح والتمثيل

لقد قلنا إن الفن المسرحى قد تقدم فى الهند منذ القرن الأول الميلادى وبلغ القمة فى مسرحية شكنتلا . وظل الأمر كذلك يتقدم ويتطور .

وكان هذا الفن يتطلب أن يسير معه الرقص والتمثيل جنباً إلى جنب . وكانت المسرحيات تقدم صورا رائعة حية نابضة بالأساطير التى تعبر عن الجوانب الروحية والفلسفية . لقد وجدت كلمات للتعبير عن المسرح منذ البداية ، وهى لم تزل تستعمل فى نفس المعنى فى شتى لغات الهند ومن بينها اللغات الدراويديه كالتأمل فى مدارس ، وهى مثل : « ناتيا » (Natya) أو « ناتاكا » (Nataka) . وتطلق على الرقص كلمه « نرتيا » (Nritya) .

ومن المعروف أن الرقص والموسيقى والغناء كانت عناصر هامة للمسرحية منذ القدم . كانت المسرحيات تتضمن الجوانب الروحية كلها .

ولم تكن تشمل المأساة أو التراجيديا فى بداية الأمر ، ولذلك لم تكن المسرحيات السنسكريتية فسيحة المجال ، متسعة الآفاق ، تنطلق إلى جميع الأجواء دون قيد أو شرط . كان اختيار الموضوعات وتطبيقها أهم جانب فى الفن المسرحى السنسكريتى . لقد وجدت — وفق الموضوعات — النواحى الساخرة والهزلية والجدية والعاطفية والرمزية بحذافيرها . ولم تكن المناظر الطبيعية للمشاهد الحية موجودة ، ولكن الممثلين كانوا يعوضونها بمهارتهم الفنية وذكائهم الخارق وبراعتهم التمثيلية وحوارهم المشرق الخلاب ، ولغتهم الجميلة؛ وكذلك عبرت عن الأحاسيس الرقيقة والمشاعر القوية الجياشة بحركات الأيدى والوجوه والعيون بكل براعة ورقة ودقة .

ولما آلت الامبراطورية الهندية إلى الزوال بعد انقراض عصر غبتا ، اضمحل الفن المسرحى فى بلاط الملوك ، ولكنه ظل نشيطا متحفزا فى الأوساط الشعبية . وأصبحت الهند الجنوبية مرتعا خصبا لتقدم المسرحيات من شتى الأنواع فى كل من بلاط الملوك والمجالس الشعبية ومحافلها . وكانت هذه المسرحيات تقدم فى كل من القصور الملكية والأمكنة المفتوحة تحت سقف السماء لجماهير الشعب . وكانت الفرق المسرحية تتكون من المحترفين أو من هواة المسرحية ، وتنقل من قرية إلى قرية ، وتعيش حياة التجول والتطواف دون وجود مقر دائم لها .

ومنذ قيام الدولة الإسلامية فى الهند لم تعد لها مكانة فى القصور وبلاط الملوك ، لأن المسلمين لم يرغبوا فيها، إلا أنها عاشت فى قلوب الشعب الهندوكى وازدهرت فى قراه وريفه فى صورة متجولة . وهذه المسرحيات الشعبية كانت تختار المصادفة والمفاجأة محوراً أساسياً لموضوعاتها ، وذلك لإثارة نفوس الشعب ووجدانه ، وأسر قلوبه وعواطفه وشد انتباهه إلى الموضوع على الدوام ليكون فى انتظار المشاهد المقبلة المثيرة المفاجئة فى لهفة وشوق . كانت الحفلات تبدأ عادة عند منتصف الليل وتستمر حتى انفلاق الصبح ،

لوحة (٥٦)
مشهد من مسرحية شكنتلا

ويكون العرض مستمرا دون توقف . وكانت الأضواء الساطعة من الكشافات والنجوم والقمر تضفى الألوان والزخارف والأشكال البديعة على الأشخاص والأدوار والمشاهد فى صورة طبيعية دون تصنع على الإطلاق .

ولم تزل هذه المسرحيات الريفية تلعب دوراً كبيراً فى حياة الشعب الهندوكى ، وتستمد موضوعاتها ومشاهدها وخيالها الخصب من خلال الملاحم السنسكريتية الخالدة المهابهاراتا والرامايانا .

ومنذ القرن التاسع عشر دخلت المسرحيات الهندية فى طور جديد حينما امتزجت بالفن المسرحى الأوربى . وقد تم أول امتزاج من هذا النوع فى مدينة كلكتا عاصمة بنغال ، التى اتخذها الإنجليز مركز الثقافة الأوربية . لقد تجاوبت المسرحيات البنغالية فيها مع المسرحيات الإنجليزية إلى حد بعيد ، واستمدت منها الموضوعات والأفكار والأدوار والتمثيل . ولعل قصة يوليوس قيصر أول مسرحية أوربية عرضت فى كلكتا . ثم شارك كثير من الكتاب بنصيب وافر فى إدخال الجوانب الإنجليزية الحية العظيمة وموضوعاتها الخالدة فى المسرحيات البنغالية ، كما ألف عدد منهم بوحى من الثقافة الغربية مسرحيات بنغالية عديدة . ثم ظهر عدد من مؤلفى المسرحيات ، ومن أبرزهم « دواركانات طاغور » جد طاغور الشاعر العظيم ، ثم طاغور نفسه .

وبهذا انتشرت المسرحيات فى أنحاء الهند تمثل الجانبين الهندى والأوربى على السواء .

الأعياد الهندوكية

إن الأعياد الهندوكية كلها مستمدة من الأحداث الماضية وأساطيرها . وهى تحتفل إما بذكرى الآلهة أو أبطالها الخالدين . وبهذا كثرت الأعياد عند الهندوس وبلغت ما يقرب من سبعين عيدا . ولكن معظمها ليس مشهوراً ، بل هى محلية ، أو مختصة ببعض الطوائف ، ويحتفل بها فى مناسبات عديدة سارة أو حزينة فى ذكرى الخالدين . وكذلك هناك أعياد تتعلق بالحركات القمرية والنجومية مثل عيد ليلة البدر الكامل .

ومن بين تلك الأعياد الكثيرة اشتهرت ستة أعياد فقط تلك التي يحتفل بها على المستوى القومي في معظم أنحاء البلاد . وهي : ١ — ديوالى أو ديباوالى (Deebavali or Diwali) وهو عيد الشمع . تشعل فيه شموع الزينية وهي عبارة عن السلاطين الطينية التي توضع فيها الزيوت ، وتشعل النار في قطعة من القماش فيها ، وتوضع في كل مكان باعداد كبيرة ، على واجهة الدار وفنائها والطرقات والشوارع والحدائق والروضات . وتضاء البلاد في هذه الليلة وتتلألأ الأسواق وتغطى أنوارها وأضواؤها كل مكان : البيوت والأسواق والمعابد والطرقات والشوارع . يقع هذا العيد في شهر أكتوبر من كل عام ويختلف يومه مع اختلاف التقويم الهندوكي . وهو يحتفل فيه بمناسبة عودة « راما » — بطل ملحمة الرامايانا — من منفاه إلى وطنه . وتبدأ الاستعدادات لهذا اليوم قبل أسبوع تقريبا ، وتوجه السيدات عناية خاصة إلى تبييض المنازل وترتيب أدواتها وتنسيق أمورها . وفي الصباح الباكر ليوم العيد يستحم كل فرد ، ويلبس ملابس جديدة نظيفة وفخمة على حسب غناه وفقره ، ويزور الأصدقاء ، ويتعانق كل واحد مع غيره ويتبادل الناس الهدايا . كما توجه العناية إلى إعداد أحسن المأكولات والمشروبات . ويعتبر الأطفال هذا العيد أسعد يوم في حياتهم ، فيذهبون إلى الأسواق لشراء أنواع من المفرقعات والصواريخ النارية ويطلقونها وهم في غاية السرور والبهجة . وفي المساء تتجمع كل عائلة في منزلها لتقديم الصلوات إلى « الإلهة لاكشمى » تلك التي تمنح البركة والسعادة . وهذا في شمال الهند . وأما في بنغال فتقدم الصلوات للإلهة كالى . وكذلك تختلف هذه الصلوات في الهند الجنوبية باختلاف الملل والنحل فيها .

٢ — راخى (Rakhi) أو (راكشابانذهان) (Rakshabandhan) : ويحتفل بهذا العيد رمزا للمودة والمحبة بين الإخوة والإخوات في كل عائلة ، وتوثيقها وتجديدها طول الحياة . ومن الجدير بالذكر أن العلاقات بين الإخوة والإخوات بين الهنود تفوق التصور . وكل ذلك يرجع إلى تقاليد الهند القديمة

الرمزية الأسطورية . ويحتفل بهذا العيد حقيقة فى ذكرى الإله إندرا ــ الإله الآرى الأصل الذى جاء من موطنه الأصلى فى أوربا ـ . وتحكى الأساطير أنه لحقته الهزيمة مرة فى معاركه ضد العفاريت . وحينئذ تقدمت إليه زوجته (ساخى) (Sachi) وربطت حول معصمه تميمة لينتصر على جميع أعدائه . وبفضل هذه التميمة وسحرها انتصر اندرا على العفاريت وقضى عليهم ومنح له طاقات هائلة تفوق التصور .

وفى هذا اليوم تحاول كل أخت فى كل عائلة أن تربط رباطا ملونا حول أخيها ، وترتل آيات الشكر والطلاسم أثناء هذه العملية ، وتتمنى لأخيها السعادة والقوة والمجد والانتصار . ثم تقدم له الحلوى رمزا للعلاقات الودية المتوثقة المتبادلة بينهما ، وهو الآخر بدوره يقدم لها الهدايا النقدية . ويتعاهد كلاهما فى هذه الآونة على مساعدة الآخر ومساندته ومناصرته فى كل المحن والآفات والمشاركة فى السرور والفرح .

٣ ــ (ڤاسانت بانشامى) (Vasant panchami) : وهذا عيد الربيع ويحتفل به فى مستهل فصل الربيع ، وذلك حينما تتفتح البراعم ، وتورق الأشجار ، وتعود النضارة والبهجة للأغصان ، ويبتسم كل شئ فى هذا الكون ، ويبتهج كل فرد وترقص الطيور والحيوانات وتتغنى البلابل على الأغصان . ويلبس كل فرد فى هذا العيد الملابس الصفراء ، يضع الرجال عمائم صفراء على رءوسهم ، وترتدى السيدات ساريات صفراء ، ويلبس الأطفال ملابس صفراء ، وكل شيء يكون أصفر فى هذا اليوم . ولعل الأطفال أكثر الناس بهجة وسرورا . فيتدفقون على الميادين لاطلاق الطائرات الصفراء فى الهواء ويبتهجون كل البهجة .

ويحتفل بهذا العيد فى الحقيقة فى ذكرى انتصار الإله سيڤا على عدوه الإله كامديڤا (Kamedeva) ــ إله الحب والهوى ــ : فقد أحاله سيڤا إلى رماد بمجرد القاء نظرة غاضبة عليه بعينه الثالثة .

ولكن البنغاليين يحتفلون بهذا العيد تمجيداً للإلهة ساراسواتى — إلهة العلوم والمعارف — ويسيرون فى موكب عظيم يحملون أصنامها ، ثم يغرقونها فى مياه الأنهار .

٤ — هولى (Holi) : يحتفل بهذا العيد فى شهر مارس من كل عام وذلك فى ذكرى انتصار « كرشنا » — الإله المتجسد وصاحب الجيتا — على عدوه الرهيب « هوليكا » (Holika) ذلك الذى لقى مصرعه على يد كرشنا فى هذا اليوم . وفى هذا اليوم تقدم ألاعيب متنوعة ، ومن أهمها رش المياه الملونة على جميع الناس . فيحمل كل فرد مرشة فى يده مليئة بالماء الملون ، ويرشه على كل من يلقاه فى الطرقات والشوارع والبيوت ولا يستثنى منه أحد ، كائناً من كان ، سواء أكان صديقاً أو عدواً ، ومهما بلغت مكانته واختلفت ديانته وجنسياته . وهذه العملية تقوم بها عادة جماعة من الناس يطوفون الشوارع والطرقات كلها حتى لايفلت أحد من قبضتهم فيرشون عليه الماء وهم فى منتهى البهجة والسرور . وفى المساء يتجمع الكل حول النار الموقدة التى ينطلق لهيبها إلى السماء ، ويقدمون أنواع الأغانى والأناشيد فى ذلك الحين وبهذا ينتهى هذا العيد .

٥ — دوسيراه (Dusserah) : وهذا العيد يختلف فى كل منطقة . ففى شمال الهند يحتفل هذا العيد بمناسبة ذكرى راما — بطل الملحمة الرامايانا — وانتصاره على عدوه اللدود راون الشرير — ملك سيلان — ذلك الذى خطف زوجته من إحدى غابات جنوب الهند . وكان يقضى فيها مع أسرته أيام المحن ومتاعب المنفى . ويسبق هذا العيد أيام يعقد فيها عديد من المسرحيات والحفلات . وفى يوم العيد تقام حفلات عظيمة فى سرادق فخمة فى أنحاء المدن والقرى ، وتحرق فيها تماثيل راون — ملك سيلان — وأعوانه وتتحول إلى رماد وسط هتافات مدوية وتهاليل وابتهاجات صارخة .

أما فى جنوب الهند فيحتفل بهذا العيد لمدة سبعة أيام فى صور مختلفة

تماماً عن الشمال . ولا شأن لهذا العيد فيها براما وراون . بل يصنع فى كل بيت دمى طينية تمثل عدداً من الآلهة . وفى مساء كل يوم تتبادل الزيارات بين الناس ويلتقى كل فرد مع أصحابه وأصدقائه ، وتفتح الأبواب على مصاريعها طوال الأيام التسعة . وفى اليوم التاسع تقدم الصلوات للإلهة ساراسواتى — إلهة العلوم والمعارف ، وكذلك تقدم العبـــادة لجميع الأدوات والآلات رمزاً لمساعدتها الإنسان فى شئونه وحرفه ومهنه .

ولكن فى ميسور فقد اتخذ هذا العيد صورة مغايرة تماماً . فإن المهاراجا (أى الملك الإقطاعى) يقيم الولائم والمآدب والحفلات لمدة تسعة أيام فى قصره ، وفى اليوم العاشر يخرج فى موكب عظيم ، وعلى ظهر فيل ، وهودجه مصنوع من الذهب .

وفى بنغال يحتفل بهذا العيد تكريماً للإلهة دورغا (Durga) ، وتستمر حفلاته أربعة أيام . وفى اليوم الرابع يخرج الناس وسط موكب عظيم يحملون تمثال الآلهة دورغا وهى راكبة على ظهر الأسد ، ويطوقها الآلهة من كل جهة للهجوم عليها . ثم تغرق فى مياه الأنهار . ويرمز هذا العيد فى بنغال إلى عودة الإلهة بارفاتى (parvati) إلى وطنها وإلى زوجها سيفا . وهذا العيد يعتبر من أشهر الأعياد فى بنغال .

٦ — وبالإضافة إلى هذه الأعيـــاد الشهيرة التى ترمز إلى الآلهة والأساطير والأحداث الدينية المقدسة ، تقام كذلك أعياد كثيرة مثل عيد « مها كمب » (mahakumb) الذى يحتفل به فى بعض المدن الشهيرة مثل : هاردوار ، وإله آباد ، وأوجين ، وناسك ، وذلك مرة فى كل اثنتى عشرة سنة . ويعتقد أن المستحم فى نهر الجنجا المقدس فى هذه الأيام يكون فى منتهى البركة والسعادة واليمن . وهذا العيد يرمز إلى أصل الإنسان وخلوده ، وشجرة الخلد التى تمنح الخلود للبشرية . وقد وضعت الآلهة

لوحة (٥٧)
احراق جثة راون وأعوانه

لوحة (٥٨)
ـ الموكب الملكى بمناسبة الاحتفال بعيد دوسيراه فى ميسور

لوحة (٥٩)
الاستحمام فى الجنجا المقدس فى معبد بنارس

لوحة (٦٠)
احتفال دوسيراه

لوحة (٦١)
تمثال الاله دورغا فى احتفال عيد دوسيراه فى بنغال

رحيق هذه الشجرة فى إناء فى مكان محفوظ ، ولكن بعض الشياطين اطلعت عليه ، وحاولت خطفه بشتى الطرق والوسائل . ولذلك دارت المعارك بينها وبين الآلهة . وقد سقط الرحيق أربع مرات – أثناء المعركة – فى البلدان التى تحتفل بهذا العيد . ثم تدخل الإله فشنو فى المعركة وفض النزاع بتوزيع الرحيق على المتصارعين على حسب استحقاقهم .

وهو احتفال عظيم تتدفق الجماهير من أنحاء البلاد للمشاركة فيه على هذه المدن : ويقضى الناس أيامهم فى الصيام والاستحمام فى نهر الجنجا وفى العبادة والتأمل . ويخرج الرهبان واليوجيون وسط موكب عظيم فى هذه المناسبة ويقدمون للجماهير المحتشدة طول الطريق العشاء الربانى رمزاً لقداستهم وصلتهم بالله .

المراجع الأفرنجية

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
1	A critical Suvey of Indian philosophy	Dr. Chandradhar Sharma	London 1960
2	Ancient Times : A History of Earlyworld	Tames Henry Bre-astered	London 1944
3	A Short History of Chinese	Mary A. Nourse	New York 1943
4	Face of India	George Woodcock	London 1964
5	Hinduism	Louis Renoun	New York 1963
6	Hinduism	K.S. Seu	London 1963
7	History of Religions	E.O. James	London 1956
8	Iran	R.Ghirshman	London 1961
9	Larousse Encyclopedia of Mythology		London 1959
10	New Ligh on the Most Ancient East	Gordon Childe	London 1958
11	Selected writings of Mahatma Grandhi	Ronald Duncan	London 1946
12	The China : Their History And culture	Kennelt Scott Latourctte	London 1964
13	The Chinese	Winifred Galbraith	Cairo 1963
14	The Encyclopedia of Britanica		London 1960
15	The Encyclopedia of America		Washington 1961
16	The Hindu view of Life	Dr. Radhakrishnan.	London 1957

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
17	The Legacy of Indian (H.G. Rawlison) وفيه مقال راولیـــون بعنوان : India in European Literature And Thought.	G.T. Garralt	London 1945
18	The Rise of the West	W.H. McNeill	London 1965
19	The Wisdom of India	Linyutang	London 1956
20	Buddhism	Edward Conze	London 1951
21	Buddhism in China	Chao pu-chu	Peking 1960

المراجع العربية

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
٢٢	إيران ماضيها وحاضرها	تأليف «دونالدولبر» وترجمة الدكتور عبد المنعم محمد حسنين	القاهرة ١٩٥٨
٢٣	تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية	الدكتور محمد إسماعيل الندوى	بيروت ١٩٦٨
٢٤	تراث الموسيقى العالمية	تأليف «كورت زاكس» وترجمة الدكتورة سميحة الخولى	القاهرة ١٩٦٤
٢٥	التراث الهندى	همايون كبير — ترجمة مجلس الهند للروابط الثقافية	نيو دلهى
٢٦	المدارس الفلسفية	الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى	القاهرة ١٩٦٥

بحوث المؤلف فى مجلة تراث الانسانية الصادرة فى القاهرة

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان الطبع وتاريخه
٢٧	الجيتا		أغسطس ١٩٦٤
٢٨	شكنتلا		أغسطس ١٩٦٥
٢٩	الرامايانا		مايو ١٩٦٦
٣٠	المهابهاراتا		أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٧
٣١	الأساطير الهندية		مايو ١٩٦٨

قائمة الموضوعات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	تقديم	٩
٢	الفصل الأول : ملامح الهند الطبيعية والجغرافية	١١
٣	وجه الهند من الجو	١١
٤	تقسيم الهند الجغرافى	١١
٥	صورة الهملايا من الجو	١١
٦	موقع الهملايا والمناطق الشهيرة فى أحضانها	١٢
٧	نهر الهند	١٢
٨	كشمير	١٣
٩	ولايتا السند وبنجاب .	١٣
١٠	المناطق الجبلية المتاخمة لحدود ولاية السند	١٣
١١	نهر الجنجا والبرهمبترا والمناطق الشهيرة بين شواطئها	١٤
١٢	ولاية بنغال ومدينتها الشهيرة كلكتا	١٤
١٣	التقاء نهرى الجنجا والجمنا فى الله آباد	١٥
١٤	مدينتا بنارس وآغرا	١٥
١٥	ولاية بهار مسقط رأس بوذا	١٥
١٦	دلهى العاصمة	١٦
١٧	الهضاب الشرقية والغربية وأشهر المدن حولهما	١٦
١٨	أشهر مدن الهضبة الغربية	١٧
١٩	بومباى	١٨
٢٠	الأرض الجنوبية وأشهر مدنها	١٨

الرقم	الموضوع	الصفحة
٢١	مدراس	١٩
٢٢	ميسور	١٩
٢٣	كيرالا	١٩
٢٤	بين الهنود والهنود الحمر	٢٠
٢٥	الفصل الثانى : أوائل الحضارات الهندية المعاصرة للحضارات السومرية فى أرض الرافدين والفرعونية فى وادى النيل : « موهنجودارو وهارابا »	٢١
٢٦	حضارة الشرق الأوسط : أرض الرافدين وفلسطين ومصر	٢٣
٢٧	أسباب ظهور هذه الحضارات	٢٤
٢٨	مناطق الشرق الأوسط الأخرى	٢٤
٢٩	سبب وجود الملامح المتشابهه بين سكان الهند والعراق	٢٥
٣٠	أوجه التشابه الأخرى بين الهند والعراق	٢٦
٣١	بين الهند والعراق ومصر	٢٩
٣٢	معالم الحضارة فى وادى نهر الهند	٣٠
٣٣	التجارة والبضائع التجارية	٣٤
٣٤	وسائل المواصلات	٣٥
٣٥	المبانى : طرازها ومواد بنائها ومحتوياتها	٣٦
٣٦	الملابس والحلى	٣٧
٣٧	الأدوات المنزلية	٤٠
٣٨	الحيوانات	٤١
٣٩	نظام الرى	٤٣
٤٠	المعادن	٤٣
٤١	الأسلحة	٤٣

الرقم	الموضوع	الصفحة
٤٢	الدين	٤٤
٤٣	مراسيم الدفن	٤٦
٤٤	دور حضارة وادى نهر الهند فى تكييف التقاليد الهندية وديانتها عبر القرون	٤٨
٤٥	الهند تتجاوب مع العراق فى بعض النواحى	٥٠
٤٦	امتداد الحضارة فى وادى نهر الهند وحياتها	٥٣
٤٧	متاعب هذه الحضارة وأسباب اضمحلالها	٥٥
٤٨	من هم الدراوديون ؟	٥٦
٤٩	نهاية الحضارة الدراويدية	٥٩
٥٠	الفصل الثالث : الحضارة الآرية وديانتها	٦١
٥١	تحقيق شخصية الآريين	٦١
٥٢	معنى الآرى	٦٣
٥٣	حياة الآريين فى بلادهم ولغاتهم	٦٣
٥٤	أسباب اندثار حضارة وادى نهر الهند إلى الأبد وانتصار الآريين	٦٤
٥٥	مقار الآريين فى الهند وظهور النظام القروى وازدهاره فى عهدهم	٦٦
٥٦	ظهور أولى المدن والحكومات المدنية فى العصر الآرى	٧٥
٥٧	النظام الزراعى بين عصرى حضارة وادى نهر الهند والآريين	٧٦
٥٨	الآلهة والطقوس من الأصل الهندى والأوربى	٧٧
٥٩	المشروبات المقدسة	٨٢
٦٠	آلهة حضارة نهر الهند عند الآريين	٨٣

الرقم	الموضوع	الصفحة
٦١	دور ڤشنو وسيڤا فى خلق نهر الجنجا المقدس	٨٥
٦٢	الآلهة التى ظهرت على تراب الهند	٨٨
٦٣	البرهما وتطور مدلولاته إلى الكهنة وإله الآلهة والطائفة العليا	٨٩
٦٤	آلهة الحيوانات والجمادات	٩٣
٦٥	حياة الآلهة وصفاتها مثل الإنسان	٩٣
٦٦	عقائد الآريين وتجاوبهم مع الشرق الأوسط	٩٤
٦٧	الطقوس	٩٥
٦٨	تجاوب الآريين مع بعض عقائد الشرق الأوسط	٩٥
٦٩	الآخرة	٩٦
٧٠	طبيعة ديانة الڤيدا	٩٨
٧١	كتب الڤيدا وقيمتها	٩٨
٧٢	تفوق طبيعة الكهنوت وظهور الطبقات	١٠٠
٧٣	عقيدتا كارما والتناسخ وصلتهما بالنظام الطبقى	١٠٤
٧٤	فلسفة نفى الذات أو الحلول أو وحدة الوجود من خلال كتاب اليوبانيشاد	١٠٦
٧٥	أصحاب نظرية وحدة الوجود	١٠٦
٧٦	الكهنة ووحدة الوجود .	١٠٧
٧٧	اليوجا	١٠٨
٧٨	التقمص أو التجسد	١١٠
٧٩	إثبات الذات أو الفلسفة الإيجابية من خلال كتاب الجيتا	١١٣
٨٠	الجيتا	١١٤
٨١	الإلحاد	١١٤

الرقم	الموضوع	الصفحة
٨٢	حركة بهاكتي كرد فعل ضد عقيدة التناسخ والتفرقة الطبقية العنصرية	١١٧
٨٣	أسباب ظهور الاتجاهات المتناقضة المتصارعة فى هذا العصر	١١٨
٨٤	كتب الشريعة الهندوكية	١١٩
٨٥	موقف الهندوكية من الرسالة السماوية	١٢٠
٨٦	هل صنع الآريون التماثيل والأصنام ؟	١٢٢
٨٧	هل كان الآريون نباتيين أصلا ؟	١٢٢
٨٨	طبيعة الديانة الهندوكية وسر خلودها	١٢٤
٨٩	ملحمة المهابهاراتا	١٢٦
٩٠	ملحمة الرامايانا	١٢٩
٩١	كرشنا وراما واتخاذهما صورة الآلهة	١٣٤
٩٢	الديانة الجينية	١٤٢
٩٣	بوذا : حياته وتعاليمه	١٤٥
٩٤	البوذية فى عصر بوذا	١٥٠
٩٥	البوذية بعد وفاة بوذا	١٥٣
٩٦	فرقتان بوذيتان : المهايانا والهينايانا	١٥٤
٩٧	الفصل الرابع : دخول الهند فى طور الحضارة من جديد والتقاؤها مع العواصم الحضارية الكبرى فى العالم	١٥٥
٩٨	بقية أجزاء الهند طوال العصر الآرى	١٥٨
٩٩	الهند والشرق الأوسط منذ القرن الثامن قبل الميلاد	١٥٩
١٠٠	الهند وإيران	١٦١
١٠١	ظهور اليونان على المسرح العالمي واتصالها بالشرق الأوسط والهند	١٦٢

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٠٢	الهند واليونان : قبل غزو الإسكندر	١٦٥
١٠٣	الإسكندر والهند : والتقاء الحضارات العالمية فى ساحة واحدة	١٦٧
١٠٤	لأول مرة	
١٠٥	ظهور أول إمبراطورية بقيادة شندر غبت	١٦٨
١٠٦	الإمبراطور أشوكا : مبشر الديانة البوذية فى العالم	١٧١
١٠٧	الإمبراطور أشوكا وتوطيد علاقات الهند مع آسيا ومصر واليونان وانتشار البوذية فى عصره	١٧١
١٠٨	العلاقات الهندية واليونانية بعد أشوكا	١٧٤
١٠٩	الصين فى مجال الحضارة والفكر	١٧٥
١١٠	الديانة الكونفوسية	١٨١
١١١	الديانة التاوسية	١٨١
١١٢	المدرسة القانونية	١٨١
١١٣	الصين والشرق الأوسط	١٨٢
١١٤	الهند والصين	١٨٤
١١٥	الهندوكية منذ عصر الإمبراطور أشوكا	١٨٥
١١٦	الهندوكية فى موقف الدفاع	١٨٦
١١٧	الصراع بين اللغتين : السنسكريتية والبالية وازدهار الفنون والآداب	١٨٨
١١٨	مسرحية شكنتلا	١٩١
١١٩	العلوم والفنون	١٩٢
١٢٠	النظم السياسية فى الأسرة المورية	١٩٤
١٢١	الفصل الخامس : الهند منذ القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادى	١٩٥

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٢٢	ظهور الإمبراطورية الرومانية على المسرح العالمى واتصالها بالهند	١٩٧
١٢٣	تطورات جديدة فى إيران والعراق خلال العصر الرومانى	١٩٩
١٢٤	العصر الساسانى	٢٠١
١٢٥	الحركات الدينية والعلمية فى إيران	٢٠٣
١٢٦	الصلات بين الهند والروم	٢٠٤
١٢٧	جنوب الهند فى مجال الحضارة واتصاله بالروم	٢٠٦
١٢٨	الإسكندرية وجنوب الهند	٢٠٧
١٢٩	ظهور لغة دولية شعبية فى الإسكندرية	٢٠٩
١٣٠	الهند وبلاد العرب	٢٠٩
١٣١	مجد الديانة البوذية كديانة عالمية أولى	٢١٠
١٣٢	الهندوكية فى آسيا الصغرى وسوريا	٢١٢
١٣٣	مشكلات الرومانية ومصائبها	٢١٢
١٣٤	الفلسفة الغنوصية واتصالها بالبوذية	٢١٤
١٣٥	مدرسة الإسكندرية	٢١٥
١٣٦	اللقاء بين المسيحية والبوذية فى الأسكندرية	٢١٨
١٣٧	الإسكندرية مركز الثقافة فى العهد الرومانى	٢٢٢
١٣٨	معالم الحضارة البوذية والهندوكية	٢٢٤
١٣٩	الغاندارا مدرسة الفن المعمارى البوذى الجديد	٢٢٥
١٤٠	تطور فن الغاندارا	٢٢٧
١٤١	ماثورا	٢٢٧
١٤٢	سانشى	٢٣٠
١٤٣	الآثار البوذية الأخرى والعملات	٢٣١

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٤٤	أغوار أجنتا ومعابدها	٢٣٤
١٤٥	أغوار الورا ومعابدها	٢٣٩
١٤٦	اليفنتا	٢٤٠
١٤٧	بنارس	٢٤٥
١٤٨	عصر شندرغبتا موريا الذهبي	٢٤٥
١٤٩	تدوين الشريعة الهندوكية	٢٤٨
١٥٠	تطور الديانة الهندوكية منذ القرن الأول الميلادى	٢٥١
١٥١	بوراناس	٢٥٢
١٥٢	ظهور المرونة فى الهندوكية	٢٥٢
١٥٣	سبب إنسحاب البوذية من مكان القيادة	٢٥٣
١٥٤	إنتشار الحضارة الهندية فى جنوب شرق آسيا	٢٥٣
١٥٥	العلوم والفنون فى عصر غبتا	٢٥٦
١٥٦	اللغة السنسكريتية	٢٥٦
١٥٧	الطب	٢٥٨
١٥٨	علم الفلك والهيئة	٢٥٩
١٥٩	بداية عصر الظلام منذ سقوط إمبراطورية غبتا إلى الفتح الإسلامى	٢٦٠
١٦٠	استقلال جنوب الهند عن الشمال حتى فى العصر الإسلامى وازدهار حضارته	٢٦١
١٦١	فنون الشرق الأوسط فى الجنوب	٢٦٣
١٦٢	معبد مدورى	٢٦٥
١٦٣	مهابالى بورم	٢٦٦
١٦٤	الختام	٢٦٧
١٦٥	اللغات العديدة	٢٦٧

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٦٦	الرقص	٢٣٨
١٦٧	الموسيقى والغناء	٢٧١
١٦٨	المسرح والتمثيل	٢٨١
١٦٩	الأعياد الهندوكية	٢٨٤
١٧٠	المراجع	٢٩٢

قائمة اللوحات

مسلسل	الموضــــوع	الصفحة
١	تمثال حجرى لرجل من موهنجودارو	٢٧
٢	تماثيل للسومريين من أرض الرافدين	٢٨
٣	تماثيل نحاسية لراقصات من هارابا	٢٨
٤	زهرية مرسومة من موهنجودارو	٣٣
٥	حلى من موهنجودارو	٣٨
٦	حمام عظيم من حضارة موهنجودارو	٣٩
٧	أختام وتمائم من موهنجودارو	٤٢
٨	الإله سيفا من حضارة موهنجودارو ذى الوجوه الثلاثة	٥١
٩	غاندى	٧١
١٠	ونى بهاوى	٧٢
١١	الإله اندرا يجلس على فيله	٧٩
١٢	أغنى إلهة النار	٧٩
١٣	الإله فشنو ينام على الأفعى	٨٦
١٤	الآلهة تقوم بطحن مياه البحار	٩١
١٥	الإلهة لاكشمى	٩٢
١٦	هانومان ــ البطل القرد ــ يخوض المعركة ضد راون ــ ملك سيلان ــ فى نصرة راما	١٣٣
١٧	سيتا وهانومان ويتوسطهما راما وتحتهم جماعة من القرود تقدم لهم الصلوات	١٣٥
١٨	الإله سيفا فى صورة جديدة عند الآريين والدراوديين	١٣٦

مسلسل	الموضـــوع	الصفحة
١٩	كرشنا وهو طفل يلعب على ثعبان	١٣٨
٢٠	كرشنا يسرق ملابس راعيات الغنم	١٣٩
٢١	العملات والأختام الهندية واليونانية التي عثر عليها في شمال الهند الغربية	١٧٦
٢٢	ثلاثة أسود ذات شوارب خشنة : رمزاً للسلام والمحبة للامبراطور أشوكا . وتحتها ثور وضعها أشوكا على أعمدة من الصخور خلال القرن الثالث قبل الميلاد . وهذه الأسود قد اتخذتها جمهورية الهند الآن رمزاً للسلام والمحبة بين الشعوب العالمية	١٧٧
٢٣	ديمي تريوس (Demetrius : ١٩٠ — ١٦٠ ق . م) ملك باكتيريا اليوناني يلبس ملابس عليها رسوم الأفيال رمزاً لانتصاره على الهند وضمه إياها إلى حوزته	١٧٨
٢٤	هندية خلال العصر اليوناني بالهند	١٧٩
٢٥	اثنان من الرهبان البوذيين	٢١٦
٢٦	ثلاثة من الرهبان الهندوس على طريقة اليوجيين	٢١٧
٢٧	تمثال بوذا المصنوع خلال القرن الثاني — الخامس الميلادي وفق الفن الغانداري	٢٢٩
٢٨	بوذا يستحم ويغسل ثيابه في نهر نرنغانا بعد جهاد نفسي شاق استمر ست سنوات ، ثم يتجه إلى الشجرة التي اعتكف في ظلها حتى حصول النور والمعرفة (تمثال من جاوا)	٢٢٩
٢٩	معبد بوذي في سانشي	٢٣٢
٣٠	البوابة الشمالية من هذا المعبد . وفي الأفريز الأول نرى	٢٣٣

مسلسل	الموضــــوع	الصفحة
	شجرة مقدسة ترمز إلى وفاة بوذا وحصوله على المعرفة تحت ظلها . وعلى يمين الأفريز الأسفل نرى عجلة وهى رمز الوعظ الأول لبوذا الذى يعتبر بمثابة القوانين البوذية . وعلى الشمال نجد الإلهة لاكشمى بين الفيلين وهما يرشان عليها ماء نهر الجنجا المقدس . وبهذا يشير هذا المعبد إلى خلط بين العقائد البوذية والهندوكية .	
٣١	معبد الشمس فى كوراناك	٢٣٥
٣٢	تمثال بوذا صنع حديثاً فى معبد «لينغ اين» فى «هانغ هو» بالصين بارتفاع يبلغ ٩ أمتار تقريباً .	٢٣٦
٣٣	معبد بوذا شيد حديثاً فى بكين بالصين	٢٣٧
٣٤	الإله سيفا وباروانى زوجته فى معبد الورا	٢٤٢
٣٥	معبد كايلاسا فى أغوار الورا	٢٤٣
٣٦	أغوار أجنتا	٢٤٤
٣٧	أول معبد هندوكى فى عصر غبتا على طراز رومانى	٢٤٩
٣٨	معبد مدورى بمدراس	٢٦٤
٣٩	معبد مهابالى بورم بمدراس على خليج بنغال	٢٦٤
٤٠	رقص بهاراتياناتام المدراسى	٢٧٢
٤١	آلات موسيقية	٢٧٢
٤٢	رقص بهاراتياناتام	٢٧٣
٤٣	حكاية عاطفية تعبر عنها بالأيدى والعيون فى رقصة شعبية من ولاية راجستان	٢٧٣
٤٤	رقص كاتاكالى من مالابار	٢٧٤

مسلسل	الموضـــوع	الصفحة
٤٥	رقص دارجلنغ الشعبي	٢٧٤
٤٦	رقص مانيبور	٢٧٤
٤٧	رقصات غاربا الشعبية فى جچرات	٢٧٥
٤٨	ألعاب الأطفال فى العيد	٢٧٥
٤٩	رقص شعبي بمناسبة الحصاد فى غوا	٢٧٦
٥٠	رقص قبائل ناغا الشعبي فى آسام	٢٧٦
٥١	رقص يقدمه فرقة بوداشانكار	٢٧٧
٥٢	رقصات باليه تقدمها فرقة فى بومباى	٢٧٧
٥٣	يعزف على الستار	٢٧٩
٥٤	فينا الآلة الموسيقية	٢٧٩
٥٥	يعزف على آلة الشهنائى الموسيقية	٢٨٠
٥٦	مشهد من مسرحية شكنتلا	٢٨٣
٥٧	إحراق جثة راون وأعوانه	٢٨٩
٥٨	الموكب الملكى بمناسبة الاحتفال بعيد دوسيراه فى ميسور	٢٨٩
٥٩	الاستحمام فى نهر الجنجا المقدس فى معبد بنارس	٢٩٠
٦٠	احتفال دوسيراه	٢٩٠
٦١	تمثال الإله دورغا فى احتفال عيد دوسيراه فى بنغال .	٢٩٠

الخرائط

١ ـ الهند والعراق
٢ ـ الهند
٣ ـ الهند والامبراطورية الرومانية

THE ANCIENT INDIA : CIVILIZATIONS AND RELIGIONS

By

Dr. Muhammad Ismail Nadwi
M.A. (Cairo) Ph.D. (Ain Shams)

الثمن ٤٥ قرشا

مطبوعات
دار الشعب
تصدر عن
الشعب
مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون في المطبوعات العاجلة
عضو اتحاد الصناعات
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٩٩٩١؟؟
التوزيع : مكتبة دار الشعب
المطابع : قصر العيني - ت ٣١٨١٠-٣١٨١٨-٣١٨١٩
دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠
رئيس مجلس الإدارة
السيد ابراهيم

١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م

Bibliotheca Alexandrina
0214368